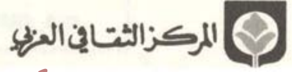

رواية
عبدالإله بن عرفة
الحوامي
المركز الثقافي العربي

عبدالإله بن عرفة

الحواميـم

(روايـة)



الكتاب
الحواميم
المؤلف
عبدالإله بن عرفة
الطبعة
الأولى، 2010
عدد الصفحات : 240
القياس : 14,5 × 21,5
الترقيم الدولي
ISBN: 978-9953-68-447-2

الناشر
المركز الثقافي العربي

الدار البيضاء (المغرب)
ص . ب : 4006 (سيدنا)
42 الشارع الملكي (الأحباس)
هاتف : 522 303339 ـ 522 307651
فاكس : 305726 522 212+
Email: markaz@wanadoo.net.ma

بيروت (لبنان)
ص . ب : 5158 ـ 113 الحمراء
شارع جاندارك ـ بناية المقدسي
هاتف : 01750507 ـ 01352826
فاكس : 01343701 ـ (9611+)
www.ccaedition.com
Email: cca@ccaedition.com
cca_casa_bey@yahoo.com

الإهداء

إلى أمة الأندلس في الحواميم في صراعها بين الحاء والميم، حاء الحياة وميم الموت، حاء الحضور وميم المعنى. إلى أرواح جميع شهداء الحرية والكرامة للأرض التي أَعْطَوْهَا أَفْضَلَ ما لديهم وأَعْطَتْهُمْ أَسْوَءَ ما لديها.

بيان أدبي حول
الكتابة بأحرف النور أو الكتابة بالنور

الكتابة بأحرف النور مفهوم جديد نَحَتُّهُ من اشتغالي على هذه التجربة الجديدة في الكتابة الأدبية والروائية. فماذا أعني بذلك؟

لقد اعتاد القُرّاء أن أُقدّم لهم بين يَدَيْ كلّ رواية بياناً جديداً يوضّح بعض ملامح هذه الكتابة الجديدة ويفتح بعضاً من أسرارها. ولن أخرجَ عن هذا التَّقْليد الحَميد الذي بَصَّرَ كثيراً من القُرّاء بضرورة التَّلَبُّثِ في التَّأويل في اقتحام مباهج القراءة ومَسَرّاتها. فأين موقعُ هذا العمل الجديد من الهندسة النورانية السابقة واللاحقة؟ لقد أعلنّا سابقاً أن الثلاثية الروائية السابقة: جبل قاف، بحر نون، بلاد صاد، تستمد أساساً من الحروف النورانية المقطعة في بعض فواتح السور التي تُجمَع في كلام حق نصره يسطع. وقد بدأنا المشروع من السلسلة الأولى مع الحروف المفردة الثلاثة وهي القاف والنون والصاد. والآن بعد أن أنهينا الثلاثية الأولى نشرع في السلسلة الروائية الثانية مع الحروف الثنائية وهي حم، يس، طس، طه. وهذه الرواية هي أول السلسلة الثانية وعنوانها الحواميم من السور السبع المفتتحة بـ. حم.

فالنور الساري من هذه الحروف ينعكس على هذه الكتابة بالنور.

فكيف تكونُ الكتابةُ بمادّةِ النُّورِ وهيَ تتوسّل بمادّة الظُّلمة (أي الحِبْرُ الأسود)؟ لَكِنْ دعنا نقول «مَا أَعْجَبَ شَأْنَ القَلَم، يَشْرَبُ ظُلمةً ويَلْفِظُ نُوراً». وهذا عامٌّ في كل كتابة لكنَّ له معنى خاصاً في هذه الكتابة الأدبية. كيف يَتَكَيَّفُ النُّور ويَحُلُّ في أجسام الكلمات الكثيفة؟ إن اللغة في وجودها السَّاذَج كائنٌ مُظلِمٌ، مُهْمَلٌ، عَارٍ عن الاستعمال، فإذا امتدَّت إليها يدُ القلم بالتَّرقيم، أو لسانُ النطق بالتَّرخيم انصبغَتْ بالنور ودبَّتْ فيها الحياةُ بحياةِ نُورِ مَنْ يَنطِقُ أَوْ يَكْتُب. إن هذه الكتابة الأدبية تطْمحُ أن تُخرجَ اللغةَ من ظلمة الإهمال إلى نور الاستعمال بإحياء مفهوم الأدب وإعادة الاعتبار إلى اللغة الأدبية. فليس مستساغاً اليومَ أن يُحسَبَ على الأدب مَنْ ليس منه مِمَّنْ لا يُتقِنُ حتى أَوَّلِيَّاتِ اللغة. يجبُ علينا أن نقطعَ مع هذه المرحلة نهائياً، فكل لغاتِ العالم وآدابِهِ تُقرِّر هذه الحقيقة وهي أن الأديب يجب أن يكون مالكاً لناصية الكتابة اللغوية الرفيعة.

ونحن نبتدئ في هذه **الكتابة بالنور** من أصغر جزء في اللغة وهو الحرف لِنُشِيدَ الكلمةَ والجملة والنص. فحكم الأصل ينسحب على الفرع. النور يَنْحَتُ جميع الكلمات الكثيفة فيلطِّفُها بقَبَسَاتِهِ حتى تتلاشى سُدْفَتُها ثم تُضيءُ لتصبحَ بِلَّوْرَاتٍ نورانية. نريد من وراء كل هذا إنشاء لغة نورانية لأن الظلمةَ من عالم الفساد، والنورَ من عالم الصلاح. وقد عَلِقَتْ باللغة والكلمات ظلمانية كثيفة لا بد من إزاحتها بسطوة النور. إن الكلمات هياكل للأنوار تحرِّكُها الأنفاس، أما هياكل

الظُّلَم فتذهبُ بها الأنفاس. الظلمة من عالم الموت، والنُّور من عالم الحياة. النور يُدرَك ويُدرَك به، والظلمة تُدرَك ولا يُدرَك بها. وقد يستولي النور ويتعاظم بحيث يُدرَك ولا يُدرَك به. وبالعكس، فقد يتلطَّف فلا يُدرَك ويُدرَك به. وكل القوى الظاهرة السمعية والبصرية والشَّمِّية والذَّوقية واللَّمسية، وسائر القوى الباطنة إنما هي نور إدراكي. وأحرف هذه الرواية هما الحاء والميم. أحدها حرف الحياة، والآخر حرف الموت. لكنهما حينما يَتَشَكَّلان في هذا الزَّوج (حم) يطبعان كل شيء لمَسَاهُ بهذا المَيسَم العجيب. هناك إفناء وإحياء في نفس الآن. وهذه هي مهمة النور. أن يُفنيك عنك ويُحييك لك. النور والظلمة إما ظاهرية وإما باطنية. فالعقل والعلم والإيمان أنوار معنوية. أما الجهل والشرك والجنون فظلمات معنوية. وبينهما منطقة برزخية لم تتخلَّصْ للنور المحض ولا للظلمة المحضة، وهي دائرة الشك والظن والحيرة والنَّظر.

إن هذه الكتابة النورانية من حيث مصدرُها وغاياتُها تتوخَّى إخراجَ القارئ من ظلمة التِّيه والجهل والفَهَاهَةِ إلى نور الوَجْد والعلم والكِيَاسَة. ولولا النور الكامن في كل أحد لما تخلَّصَ له النورُ المُدْرَكُ. إن المُدْرَكَ لا يُعطيكَ من ذاتِه إلا بقدر استعدادِكَ لأن تُدرِكَه. وليس استعدادُك إلا قابليَّتَك لِتَلَقِّي النور الكامِنِ فِيكَ. فلا مِنَّةَ لأَحَدٍ عليكَ.

مِـنِّـي عَـلَـيَّ دَارَتْ كُـؤُوسِـي   مِـنْ بَـعْـدِ مَـوْتِـي تَـرَانِـي حَـيْ

ونحن مع هذا الكتاب بين زوج من الحروف أحدهما من عالم

الغيب والهمس، والثاني من عالم الشهادة والجهر. فحرف الحاء حرف الحضور، والنور يقتضي الحضور. والميم حرف المعنى، والنور يقتضي المعنى. وهذا الأدب هو أدب الحضور وأدب المعنى، إنه مَتَمَكِّنٌ في حُضُورِيَّتِهِ زماناً ومكاناً وأعياناً. فهو حضور في الآن الدائم أو الحاضر المستمر، والأين الواحد، والنَّفْس الكلية التي هي المَثَلُ الأعلى والكتاب المبين والمختصر الشريف. ولا ينكشف المعنى إلا بالحضور. إن حَرْفَا حم هما عَقْدٌ شرعي بين الأديب ونفسه من حيث إن هذا الأدب يرتفع بصراع الحياة والموت ليصبح باباً للتَّعرُّف ولِواءً للحمد. كما أنه عَقْدٌ بينه وبين القارئ، إذ أحدهما يُنتِجُ مشروعَ الأدب والثاني يحقِّقه بإنتاج المعنى عبر الحضور الكامل في الرواية. لقد تَكلَّمتِ الفلسفة الألمانية مع هايدجر عن مفهوم الدَّازَايْن. ولاشك أن ما نتحدَّثُ عنه هنا يلتقي مع بعض دلالات هذا المفهوم، لكنه أعمق من هذا وأوسع إذ لا تتحدَّثُ تلك الفلسفة إلا عن الوجود الظاهر ولم تُكابِدْ أو تَخْبُرْ قَطُّ ذَرَّة من الوجود الباطن. كما أن غايةَ الحرية عندها في الموت، أما أعظمُ حرية في هذا الأدب فهي تمتَدُّ لما بعد الموت.

إننا ندعو القارئ المُتبصِّر أن يستأنس بفلسفة التأويل (الهرمينوطيقا) في فهم هذا الأدب ليقف على مَسرَّات كشف المعنى لأن هذا النوع من الفلسفة هو أقرب أنواع الفكر الإنساني الكفيل بإدراك بعض أبعاد دائرة الحقيقة التي نتحدث من داخلها. ولقد صرَّحَتْ هذه الفلسفةُ أنها ليست نقاشاً حول المفاهيم فحسب، بل

هي أولا وأخيراً كَشْفٌ (dévoilement) للمعاني التي تُنَوِّرُ دواخِلَنا وأفهامَنا. ومن هنا يَفهَمُ القارئ لماذا نتحدَّث هنا عن النور الكاشف والكتابة بالنور. لأن الفهمَ يجب أن يكون هو أيضاً مُنوِّراً بهذا النور الآتي منكَ إليكَ. فهل أنت مُستعِدٌّ أيها القارئ لتكتشف أصول نورانيتك وتكشف المعنى فيك؟ فَأَنْتَ حَرْفٌ جَاءَ لمعنى. فَقِفْ على الحرفِ فِيكَ تَجِدِ المعنى مِنْكَ فِيك.

إن المعنى يتأسس من العلاقة بين الدَّال والمدلول. ولكن دعنا نتساءل مَنِ الذي يؤسس هذه العلاقة؟ إنها ذاتُ القارئ، أو لِنَقُلْ إنه الحضور. حضورُ ذاتِ القارئ في حضرة من حضرات الفهم الممكنة. وهو ما يسميه مارتن هايدغر (دازاين *Dasein* = هنا الآن)، ويسميه العارفون والمحققون بالحضرة والحضور. أن تكون **هُنَا الآن** يعني أن تُدْلي بشهادة حضور. هذا الشرط الوحيد الذي نَطْلبُهُ من القارئ. أن يكون حاضراً **هُنَا الآنَ** وكفى، وأن يتركَ جانباً القولَ بأن هذا أصلُ ذَاكَ وأن ذاكَ نتيجةٌ لهذا، أو أن هذا أثَر في ذاك وذلك تَأثَّرَ بهذا. وبعبارة أوضح، يجب أن يَسْتَنْكِفَ عن ممارسةِ وظيفة المؤرخ كما اعتاد النُقَّادُ على ممارستها. هذا الحضور هو الذي يُمَكِّنُ من فهم المعنى في الحاضر. فَبِدُونِ هذا الحضور لا مَطْمَعَ في انكشاف المعنى. ثم إن شكلَ وجودِ هذا الحضور الإنساني يتجلى في كشف المعنى بحيث يصبحُ ذلك المعنى في حدِّ ذاته مُنعَكِساً بتمكين الذَّاتِ الكاشفةِ من اكتشاف نَفْسِها. هذا هو النور وهذا هو حَدُّ النور وهذا هو الكشف بالمعنى العميق الذي نريدُ تأسيسَ القراءة المتبصِّرة عليه.

ولاشك أن هناك مستوياتٍ مُتعدِّدة للفهم لأن هناك مستويات متعددة للحضور. فشكلُ الحضورِ أو الوجودِ هو الذي يحدِّدُ شكلَ الفهم. وكلما كان المرءُ أكثرَ حضوراً ووجوداً كلما كان أكثرَ فهماً ووَجْداً. فإذا لم يتيسَّر للمرءِ الإشهادُ بحضورهِ فلا مطمعَ له في إزاحة حُجُبِ ذاته المانعة له من الفهم. فالقارئ حِجابٌ عن نفسِه ما لم يشهَدْ بحضوره. ومقياسُ ذلك الحضورِ نستخلِصُه من مدى فهمِه وتحوُّلِهِ ووجودِه.

ولعلَّنا نطرحُ السؤال التالي: أين هي الحقيقة؟ إنَّ ما يعتقدُه أصحابُ الظواهرِ والرُّسُوم في كلِّ علم هو أن الاستعارةَ ليست هي المعنى الحقيقي، ويقصدون به المعنى الواقعي التاريخي الظاهر. بينما أهل البواطن يَرَوْنَ أن المعنى الحقيقي يكمن بالأساس في الاستعارة التي تَبَرَّأ منها أهل الظواهر، وأن المعنى التاريخي الواقعي الظاهر هو الاستعارة وليس العكس. فالتاريخ والمؤرخون يشتغلون على استعارة الحقيقة وحَجْبِها من دون وعي منهم بسبب عدم حضورهم. إن هذا القَلْبَ الظاهري قِراءة عَلْمَانِيَّةٌ (sécularisée) للتاريخ والواقع والحقيقة.

وهنا يطرح سؤال حول التاريخ بشكل عام وتاريخ قراءة النصوص بشكل خاص. إن المؤرخَ يدَّعي أنه يبني الماضي بناء على النصوص والمعطيات المتوفرة لديه، لكنه يُصرِّح في الوقت نفسه بأنه غير مسؤول عن هذا الماضي، بل ولا حتى عن الدلالات والمعاني التي يعطيها له، على الرغم من أنه هو الذي يَخْلَعُ على هذا الماضي رداءَ

المعنى. فالبنسبة للمؤرخ، الأحداثُ قد مرّت وأصبحتْ من الماضي، بينما هو لم يكن حاضراً ولا موجوداً وقتَ وُقوعِها. بل إن مهنَتَهُ تُحتِّمُ عليه أن لا يكونَ قد حَضَرَ هذه الأحداثَ حتى يستحِقَّ أن يُنعَتَ مِنْ نُظَرَائِهِ بالمؤرخ، ويتكلَّمَ عنها بـ «موضوعية تاريخية». وعليه، فلكي يتكلَّمَ مؤرخاً، لابد أن يكونَ غيرَ حاضِرٍ في هذا الماضي. بينما رأينا أن القارئ المتبصِّر المتأوِّل يجبُ أن يكونَ حاضراً لأنه لا وجودَ لشيءٍ مَضَى. فإدلاؤه بشهادة الحضور يعني أنه يفتحُ إمكانيةَ المستقبلِ الكامنةَ في كُلِّ مَاضٍ. وهذا الفهمُ العميق هو الذي يجعلُ منه مسؤولا عن الماضي وعن الإمكانيات المستقبلية الواردة فيه. إن الشهادةَ على الحضور تعني أيضاً طواعِيّةَ المستقبل للحضور لديك. ولهذا تتحمَّل الدول والشعوب والأفراد المسؤولية في الحاضر عن أخطاء الماضي وتُكفِّرُ عنها وتُقدِّمُ الاعتذارَ عن الجرائم التي حَدثَتْ. كما أنها من جهة أخرى تنتشي بأمجاد الماضي وتحتكر ملاحِمَه، وتَجْهَدُ في تأمين مُستقبلٍ أفضلَ للأجيال المقبلة. فهل تستطيع إنسانية اليوم أن تكون من أهل الحضور وتتحمَّلَ مسؤولية ما مضى ممَّا لَمْ يَزَلْ، أم أنها تتجاهلُ تلك المسؤولية، وتعتبرُ أن ما مضى قد انقضى؟

هذه بعضٌ من النتائج الأدبية والقانونية والفلسفية والأخلاقية التي طُرِحَتْ عَلَيَّ حين قرَّرْتُ أن أشتغل على فترة من فترات التاريخ المنْسيّ والمغيَّب. فلم أجِدْ أفضلَ من طرد وتشريد الموريسكيين لترجمة هذا الصراع بين الحياة والموت، وكماله في زوج الحضور

والمعنى الذي يظهر في الحاء والميم. إن شخوصَ الرواية وأسماءَها وحواراتها تترجم هذا الصّراعَ المستمر بين الموت والحياة لبناءِ الحضور والمعنى.

لقد بَدأتْ هذه المأساةُ مع سقوط غرناطة ثم استمرت 117 سنة حتى صدور مرسوم الطرد سنة 1609. فالملك فيليب الثالث الذي أصدر مرسوم الطرد هو ابن الملك فيليب الثاني، ابن الإمبراطور شارل الخامس، حفيد الملكة إيزابيلا الكاثوليكية، والملك فرديناند اللذان كانا وراء سقوط مملكة غرناطة سنة 1492.

إن إسبانيا التي قدّمتْ للعالم أعظمَ صورة للتعايش وأبرزَ مثال للسّماحة بين أتباع الديانات الثلاث هي نفسُها إسبانيا التي قدّمتْ أبشعَ صورة على إخفاق هذا التعايش والسّماحة.

ولقد مَرَّ الآن 1300 سنة على دخول الفاتحين العرب إلى إسبانيا، و400 سنة على التهجير القسري للأندلسيين. فهل ستعتذر إسبانيا عن نتائج الطرد الكارثية؟ ثم إن إسبانيا قد أطلقت في سبتمبر 2004، مبادرةَ تحالف الحضارات، لكنها ما زالت مُصِرّة على عدم الحضور والاعتذار التاريخي وتحمل المسؤولية القانونية والأخلاقية والثقافية عن قرار طرد الموريسكيين سنوات 1609 ـ 1614.

إن تأجيل هذا الاعتذار إلى أجل غير مسمى سيجعل ذاكرة الموريسكيين تلاحق إسبانيا كاللعنة الأبدية إلى أن تتخلّص نهائياً من الإرث التاريخي الثقيل الذي عبّر عنه قيدوم الرواية وأب الأدب الإسباني الكبير، سيرفانتس في أحد أعماله:

«إن إسبانيا ترعى في أحضانها نفس العدد من الثعابين والموريسكيين». (ندوة الكلاب *COLOQUIO DE LOS PERROS*)

إننا نُحِبُّ سيرفانتيس ونشغف بسذاجة وسخرية أبطاله الزائفة، لكنَّنا لم نَنْسَ أنه كان ينطقُ هنا باسم الوجه غيرِ المشرق من إسبانيا التي نُنْكِرُهَا، ضد إسبانيا الأخرى التي نعرفها ونُحِبُّهَا وننتمي إليها.

وكما كان حَرْفَا هذه الرواية (حم) يعكسان الحضور والمعنى، فإن بناء المستقبل من خلال مبادرة تحالف الحضارات يجب أن يبدأ في نفس المنطقة وبين نفس الزوج من فرقاء الماضي وشركاء الحاضر والمستقبل، وأقصد إسبانيا والمغرب العربي. وسيكون المحك الصادق والخطوة الأولى لامتحان هذه المبادرة تصفية احتلال سبتة ومليلة والجزر الجعفرية، وبناء تحالف إنساني حقيقي بين منطقتين يجمعهما أكثر مما يفرقهما. سيكون نموذج النجاح الماضي هو نفسه نموذج النجاح في الحاضر والمستقبل. هذه هي خارطة الطريق الحقيقية لمبادرة **تحالف الحضارات** والاتحاد المتوسطي. لقد جعلت أوروبا من إيراسموس، أستاذ سيرفانتس أحد رموز نهضتها ووحدتها الحالية، كما وضعت إسبانيا على قطعة اليورو صورة عميد الأدب الإسباني، كما تعتزم إصدار قطعة نقدية سنة 2010 لصورة الجامع الأعظم في قرطبة، في الوقت الذي يمنع على المسلمين الصلاة فيه. إننا نأمل أن ترفع إسبانيا هذا الحظر نهائياً مع إطلاق القطعة الجديدة؟ كما نأمل تعبيراً عن حسن النية، أن تصدر قطعاً نقدية بصورة ابن رشد أو ابن العربي على نفس العملة التي أصبحنا

نتداولها جميعاً كما كان الدينار والدرهم المرابطي قبل قرون عملة دولية رائجة في أوروبا والعالم. وسيكون لمثل هذه الخطوات العملية الرمزية الدالة على إعادة امتلاك هذا التراث الرفيع، أبلغ الأثر في طريق تحالف الحضارات وبناء الاتحاد المتوسطي.

الرباط

(في الذكرى 400 لصدور مرسوم طرد الموريسكيين
بتاريخ 22 سبتمبر 1609)

د. عبد الإله بن عرفة

﴿حم والكِتَابِ المُبِينِ﴾

حاءُ الحَواميم سِرُّ اللهِ في السُّورِ

أَخْفَى حَقِيقَتَهُ عن رُؤْيَةِ البَشَرِ

فإنْ تَرَحَّلْتَ عَنْ كَوْنٍ وَعَنْ شَبَحٍ

فَارْحَلْ إِلَى عَالمِ الأَرْوَاحِ وَالصُّوَرِ

وَانْظُرْ إلى حَامِلاَتِ العَرْشِ قَدْ نَظَرَتْ

إلى حَقَائِقِهَا جَاءَتْ عَلَى قَدَرِ

تَجِدْ لِحَائِكَ سُلْطَاناً، وَعِزَّته

أَنْ لاَ يُدَانَى وَلاَ يَخْشَى مِنَ الغِيَرِ

اللواء الأول

حمّ النهار بقيظ شديد، وأجدبَ العيش بعد مَحْلٍ، وتَنَزَّلَ الكتاب من الله العزيز الحكيم.

بعد سقوط مملكة غرناطة سنة 1492، هاجر كثير من وجهائها وعلمائها إلى الضفة الجنوبية باتجاه المغرب وبقي الآخرون في دورهم وأراضيهم يعيشون حياتهم كما كانوا من قبل، بحسب المعاهدة المبرمة بين آخر ملوك غرناطة أبو عبد الله وملوك إسبانيا الكاثوليك. لكن المسيحيين نكثوا بنود المعاهدة التي ضَمِنَتْ حقوق المسلمين في مملكة غرناطة. لقد تجمّع من بقي من سكان المدينة في رَبَضِ البيّازين، وعملت إيزابيلا الكاثوليكية ملكة قشتالة على نقل آلاف القشتاليين إلى الأحياء الأخرى في المدينة. ثم بدأ العدُّ العكسي لطرد المسلمين فتكاثرت التّحرُشات والمضايقات وتحوّلت إلى محاربة عاداتهم وإرغامهم على التنصير وقشتلتهم شيئاً فشيئاً. أمام نكث العهود، كان الغرناطيون المسلمون ينظرون نظرة احتقار إلى القشتاليين والكنيسة حتى وَهُمْ تحت الاحتلال، لكون إيزابيلا ملكة قشتالة وزوجها فرناندو ملك أراغون والبابوية تنكروا للعهود التي

ضمنوها في معاهدة تسليم غرناطة. لقد كانوا مغتصبين محتلين لأرض السكان المسلمين.

استمر الوضع على ما كان عليه ولم يتغير نمط الحياة سوى ما كان من بعض الشكليات. فالمسلمون في مملكة غرناطة كانوا أغلبية ونمط حياتهم أرقى من نمط نظرائهم من القشتاليين. وقد أصروا على أسباب عيشهم وممارسة حياتهم كما عهدوها من ذي قبل وأدَّوْا مناسكهم وشعائرهم الدينية. وتحايل بعض المتنفِّذين من القشتاليين على تملُّك الأراضي الزراعية الخصبة التي كانت بيد أهل غرناطة من المسلمين.

وعلى العكس، كان الحسد والأَثَرَةُ يطبعان سلوك القشتاليين تجاه المسلمين. ثم تحوَّل الحسد إلى النقمة عليهم نظراً لترفُّهِهِمْ وحذقهم ودهائهم ومدنيَّتهم بالنظر إلى هؤلاء المستوطنين الجدد بجفائهم وطباعهم الغليظة.

لكن أعظم شيء كان يَقُضُّ نفسية الموريسكيين، هو الضغط النفسي الناتج عن الاحتلال. وهذه حالة جديدة لم يعرفوها من قبل ولا عرفها آباؤهم ولا أجدادهم. كان عليهم أن يقبلوا بهذا الأمر من أناس دونهم حضارة ومدنية. كما كان لإحساسهم الجديد بالغربة عن أرض الإسلام والمسلمين والانقطاع عن بلاد المغرب أثر كبير على نفسياتهم.

ومن بين العائلات الأندلسية التي بقي بعض أفرادها في غرناطة، بنو مَعَن. كان هؤلاء يعيشون من الزراعة والتجارة. كان كبير هذه العائلة شاباً في مقتبل العمر. لقد عاش قبل سقوط غرناطة طفولة وادعة

ثرية. ثم لما دخلت إيزابيلا لم يتحمَّل والدُهُ الصدمة فتوفي وتركه لم يَطِرّ شاربُه ولا بَقَلَ وَجهُهُ بَعْدُ. تزوج من عائلة موريسكية وعاش شبيبته في ظلِّ حكم غريب، لكنه كان حريصاً على ضمان أسباب عيش أسرته الثرية، لذا كان ينأى بأهله وأولاده عن النزاعات والخصومات، وخاصة مع القشتاليين. بل لربما عَمَدَ في بعض الأوقات إلى دفع بعض المال للمتنفذين منهم حتى يضمن سلامة أسرته وممتلكاته. وكان يتقن اللسان القشتالي وله أصدقاء قشتاليون في مناصب عليا.

أما حالُ اليهود من سكان مملكة غرناطة فكان أسوءَ حالٍ مقارنةً مع حال الموريسكيين المسلمين. فقد عمدت إيزابيلا لتنصريهم بالقوة واضطهادهم. بل إنها لجأت إلى محاكم التفتيش التي أُسِّسَتْ في الأول من أجل محاربة كل الهراطقة المسيحيين. ووافق البابا على طلب إيزابيلا التي أَوْكَلتْ إلى كاهن متعصب اسمه توماس دي توركيماده مهمةَ المفتش العام في قشتالة والتأكد من سلامة تنصُّر اليهود الذين عرفوا باسم قشتالي تحقيري هو «المارانوس» أي الخنازير. طبعاً كان المسلمون غير راضين عن هذه المعاملة القاسية التي عومل بها اليهود الذي كانوا يعيشون معهم في سلم وأمان يوم كان القولُ قولُهُم والأمر بيدهم، لكنه آلَ اليومَ إلى ما آل إليه من اضطهاد وتحقير وتنكيل وتحريق. وإلى جانب كل هذا قامت المحاكم الظالمة بتغريب هؤلاء اليهود عن أوطانهم بالآلاف. وبعد أن تخلَّصت إيزابيلا من مشكلة اليهود الذين دفعوا ثمناً غالياً للتكفير عن ذنوب لم يقترفوها، اكتشفت الملكة الكاثوليكية مشكلة أعظم منها. إن تواجد أعداد كبيرة من

المسلمين في مملكتها أمر لم يكن ليسُرَّها على الإطلاق، وهي التي حظيت بالتبجيل والتكريم من قبل بابا الكنيسة الكاثوليكية.

لقد سيطرت إيزابيلا على غرناطة لكنها لم تسيطر على قلوب الغرناطيين. فهاهم يعيشون كما سلف من سابق عهودهم. فرغم تحويل بعض مساجدهم إلى كنائس، لم يَكُفَّ الموريسكيون عن أداء شعائرهم الدينية. كانت إيزابيلا تريد المزيد، فهي لم تملأ مساجد المسلمين المحولة إلى كنائس بمصلين كاثوليك، إذ لم تكن أعدادهم كافية لتحقيق تلك الغاية. كانت إيزابيلا تسعى لأن تصبح قديسة، فلم يكن نعت الملكة الكاثوليكية الذي أطلقه عليها البابا يكفيها. لذا سعت إلى مزيد من اضطهاد الموريسكيين.

كان الوضع في أراغون مملكة فرناندو زوج إيزابيلا مختلفاً بعض الشيء، إذ حرِصَ الملك على حماية بعض حقوق الموريسكيين خوفاً من إضعاف مملكته الصغيرة التي كان بها عدد وفير من المسلمين ذوي الكفاءات والمهارات المتميزة، والتي لم يكن لها مثيل عند الأراغونيين الكاثوليك. لكنه كان مثل إيزابيلا يؤمن بضرورة قشتلة وتنصير المسلمين.

كان بنو معن يعانون مثل بقية إخوانهم من الموريسكيين من هذه الأوضاع المتدنية، وكان شعورهم مُتأَرْجِحٌ بين المقاومة وبين المغادرة. لقد ردَّدوا كثيراً في أوساطهم وخلال مجالس جماعتهم وصية جدِّهم يعقوب المنصور الموحدي التي تركها وهو على فراش الموت حيث استوصى بأهل الأندلس خيراً وسماهم بالأيتام وسمَّى

جزيرتهم باليتيمة. لقد كان لهذه الوصية وقع عجيب على قلوبهم في هذه الأيام العصيبة. لقد كانوا يجلسون مجالس للسَّمَر ويتحدثون عن قوة بلادهم أيام الأمويين والمرابطين والموحدين حين حكموا رقعة جغرافية شاسعة امتدت شمالا من جبال البرانس إلى نهر السنغال جنوباً، ومن بحر الظلمات غرباً إلى الحدود الليبية المصرية شرقاً. وها قد ضاق بهم النطاق اليوم وضُيِّقَ عليهم الخِناق حتى لم يعد بإمكانهم أن يبرحوا حيّاً واحداً من أحياء مدينتهم غرناطة.

تفاقم الوضع مع الكاهن الجديد الذي عيَّنته إيزابيلا بدل الكاهن طَلَبِيرَة السابق. والذي كان يسعى إلى استمالة الموريسكيين بأساليب الدَّهاء والتَّرغيب والتَّعْويل على الوقت في تذويب الفروق. بل لقد عمد إلى البدء في ترجمة الإنجيل إلى العربية. لكن بعد أن حلَّ محلَّه الكاهن خيمينيس، فإنه أوقف الترجمة لاعتقاده أن العربية نجسة وستلحق نجاستها بالكتاب المقدس.

كان أمام خيمينيس ثلاث طرق للتنصير: الإقناع أو التهديد أو الرشوة. لكن أياً من هذه الطرق لم يُفلِح لأن التنصير تتبعُهُ محاكم التفتيش أو التحقيق للتأكد من الخلوص في النصرانية. وقد أدرك الموريسكيون خطر إظهار التنصير لما يترتب عن ذلك من إجراءات تصل إلى حدِّ الحرق كما حصل مع اليهود.

أمام هذا الوضع المتأزم، لجأ خيمينيس إلى مناورة مختلفة حيث دعا الفقهاء لمناظرته حول الدين الصحيح. ومن بين من دُعِيَ شيخ بني مَعَن لمناظرة خيمينيس.

جاء الفقيه ابن معن مع بقية الفقهاء إلى أحد المساجد التي حولت إلى كنيسة. ولما دخلوا أمرهم خيمينيس أن ينحنوا أمامه لتحيته، لكنهم امتنعوا إلا ابن معن فإنه سجد باتجاه الكاهن. نظر بعض الفقهاء إلى ابن معن مستغربين وبعضهم حَدَجَهُ شَزْراً. فلما قام من سجدته التي طالت للحظات توجَّه خيمينيس إلى الفقهاء قائلا: لماذا امتنعتم عن الانحناء لي وتحيتي بما يليق بمقامي؟ أتظنون أنفسكم ما زلتم في مملكة مسلمة؟

وقبل أن ينبِسَ أحدهم بالجواب، أخذ ابن معن الكلمة قائلا: يا غِبْطَةَ الكاهن، إن التحية عندنا معاشر المسلمين فرْضٌ كِفائي، إذا قام به البعض سقط عن البعض الآخر. ولقد رأيتَ كيف أني قمتُ بالتحية لما دخلتُ هذا البيت نيابةً عن رفاقي الفقهاء. فأجابه خيمينيس: لقد رأيتُ صنيعَك يا ابن معن وأعجبني تواضُعُك وأدبُك.

ثم تحوَّل الكاهن إلى محاولة إيضاح تفَوُّق المسيحية على الإسلام بأدلة تافهة في معظمها. استمرَّ الأمر طول النهار وتوقَّف مع إرخاء الليل لذيوله. ثم عاود الكاهن استدعاءهم في يوم الغد وهم مُصِرُّون على دينهم غير عابئين بآراء الكاهن الضعيفة. وأقوى ما قاله لهم هو تأكيدُه أن النَّصرَ الذي حالف المسيحيين ضد المسلمين في سقوط غرناطة وبلاد الأندلس دليل على أن الله بجانبهم. مثل هذه الأقوال قد تسري إلى بعض ضعاف القلوب في مثل هذه الحالات، لكن الفقهاء لم يقُضَّ مضْجَعَهُم هذا الرأي، بل ردُّوا عليه بأن مشيئةَ الله نافذةٌ سواءٌ في النصر أو الهزيمة. والمؤمن الحقُّ مُبْتَلى في كل

الأحوال وليس أمامَه سوى الرِّضا بحكم الله. واستشهد ابن معن ببعض أقوال ابن عاصم الغرناطي من المتأخرين في كتابه «جُنَّة الرضا في التسليم لما قدر الله وقضى» الذي وضعه لمسلمي الأندلس بعدما تناثر عِقْد دولتهم في يد المسيحيين. لكن أحد الفقهاء زمجَر غاضباً لدى جواب ابن معن.

استمر النقاش أياماً بين الفقهاء والكاهن من دون غلبة حتى يئس من تنصيرهم وإقناعهم بمزية دين المسيحية على الإسلام.

وبعد انتهاء أيام المناظرة اجتمع الفقهاء ورؤوس الموريسكيين في سمرهم المعتاد ببيت أحد أمرائهم وتفاوضوا في المناظرة التي تمت. قام بعض الفقهاء متوجهاً بالسؤال إلى ابن معن منكراً عليه سجدته للكاهن، بل واتهمه بالردة وأغلظ له في القول.

ابتسم ابن معن وقال مخاطباً الفقهاء: يا إخوة الإيمان لا تثريب عليكم يغفر الله لكم. رأسُ العلم أيها الفقهاء، مُداراةُ الناس كما تعلمون. وهذا الكاهن مُضمِرٌ الشَّر بنا فهَلاّ تحايلنا عليه بالكياسة. أمّا عن سجدتي فإن ذلك أمر بسيط للغاية، وهي أني نويت بها تحية المسجد ولقد رأيتم أني سجدت في تجاه القبلة التي كان الكاهن يستدبرها أمامي. وأثناء سجودي سألت الله أن ينصرنا عليه وأن يُسَلِّمَنَا من كيده وبطشه. فهلا تأَنَّيْتُمْ في الحُكم علي بالرِّدة.

فلما أنهى جوابه تناوله الفقيه الذي كان قد حدجه غاضباً أثناء المناظرة فقال له: هذه قد فهمناها وإن كان سجودُك ملتبِسٌ في ذلك الموطِن، ونحن لا نُعطي الدَّنِيَّة في ديننا، ولكن عذرَك مقبول وإن

كان فِعْلُكَ مذموماً. ثم ما بالُك تساير الكاهن في أننا راضون بالهوان وأننا تحت أقدام المشيئة لا نرفع الرأس؟

ابتسم ابن معن مرة أخرى وجال في خاطره أن مثلَ هذا الفقيه قد يعرّضهم للهلاك بسلوكه المزاجي المتحمّس، ثم خاطبه قائلا: يا أخي، أنا لم أَزِدْ على قولي أننا راضون بحكم الله. ومن مِنّا لا يرضى بذلك؟ إن قولي لا يعني أنني أقبل هذا الوضع الذي نعيشه والاحتلال الذي نرزح تحتَه. إن مفهومَ الرضا أيها الفقيه يُستعمَلُ في السّلب كما يستعمل في الإيجاب. فإذا قرّرنا أن نقاوم القشتاليين غداً قلت لك نفس الشيء بأننا راضون بحكم الله. لقد زلّ كثيرون في فهم الرضا. وهذا مبحث حول القضاء والقدر لم يَسْلَمْ منه كثير من العلماء الأماجد. فكيف نَسُلُّ شعْرةَ هذا العجين؟ أرى والله أعلم، أن الله عز وجل كلّفنا بالرضا بالقضاء وهو الحكم الإلهي، لكنه لم يكلّفنا بالرضا بالمقضِيّ به أي بالمحكوم به. والفرق بين الأمرين بيِّنٌ، فالقضاء حكمُ الله والمقضيُّ به نتيجةُ الحُكم، ولسنا ملزمين بالرضا به.إنك تعلم أن هؤلاء القشتاليين كفار، فهل ترضى ببقائهم على ملة الكفر؟ لا أراك يا فقيه تفعل ذلك. بل ستتبرّأُ من الكفر وتوابعه، لكنك مع ذلك راض بحكم الله فيهم وستبذل وسعك وجهدك لدعوتهم بالخروج من ظلمة الكفر إلى نور الإيمان. وهكذا الأمر في سائر المصائب التي يأباها كل عاقل مثل الأمراض والعاهات والجهل. فهي كلها أمور مَقْضِيٌّ بها. أما حكم الله فهو الأمر الإلهي الذي لا يتخلف. فإذن قولي لذلك الراهب كان من هذا

الباب. ولكن دعنا من هذا النقاش الكلامي الآن، وَلْنَرَ كيف نُخلِّصُ أنفسنا من ورطة هذا الكاهن ونتَّخذُ الأسباب للنجاة بأنفسنا وأموالنا وأراضينا. وأرى أن نستعدَّ للمقاومة المنظمة السِّرِّية.

تكلم بعد ذلك أحدُ أَوْجُهِ المقاومة، وكان رجلا شجاعاً مقداماً يميل إلى مقاومة القشتاليين بدل مهادنتهم وأثنى على حكمة ابن معن ثم طلب من الفقهاء أن يحثُّوا عامة الناس على رفض التنصير وعلى الاستعداد للمواجهة. ثم أخبرهم أن المقاومة هي السبيل الوحيد قائلا: لقد رأيتم ما حصل لابنة فلان لما اعتدى عليه أحد أعوان الراهب في المدينة. لقد هبَّ الجميع قرب باب البُنود في ثورة عارمة لإنقاذ الفتاة الصارخة. وقد أنشأنا على إثر هذه الثورة مجلساً من أربعين من الأشاوس لقيادة الثورة وتسيير شؤون المدينة بمعزل عن القشتاليين. وحيث لم تتمكن قواتهم من النيل منا فقد عملوا على إبرام هدنة واتفاقية جديدة يلتزمون فيها بمكاسبنا السابقة. وأقول لكم إنهم لن يلتزموا بما وقَّعوه كعادتهم. وسنخرج إلى جبال البُشَرَات لنلحقَ بإخواننا هناك ونبدأ حربَ استنزافٍ ضد أعدائنا.

انفضَّ المجلس وعاد كل واحد لبيته وأهله. دَلَفَ ابن معن هو الآخر إلى داره الفسيحة فاجتمع إليه أبناؤه وأخبرهم بجليَّة الأمر وما حدث له مع الكاهن ونتيجة المناظرة، وماكان من إنكار الفقهاء عليه.

ثم وعظ أبناءه ونصحهم قائلا: يا أبنائي، إنني مستعد لخوض معركة ضد القشتاليين لكنني متيقِّن أن نتيجةَ المعركة لن تكون في صالحنا وعليكم أن تُزْمِعُوا أمرَكُم على مغادرة هذه البلاد إلى المغرب

قبل أن نُمْنَعَ من ذلك. لقد نشأتُ هنا وأنا مستعِدٌ للموت دونَ هذه البلاد. وقد استدبرتُ من أمري أكثرَ مما أنا مستقبلٌ. أما أنتم فلا زلتم في زهرة الحياة ونَضارة العيش وإقبال الدنيا، فدونَكُم أرضُ الله الواسعة لتسيحوا فيها. وما أرضُ المغرب عنّا ببعيدة. فما هي إلا مراحلُ قليلة حتى تجدوا أنفسكم بين أهل الإسلام في عِزّة وإباء.

ثم تحوّل يخاطب ولدَه البِكْر محمداً: الرأي عندي يا أبا عبد الله أن تأخذَ أخواتك وإخوتك الصغار وترحل إلى فاس للاستقرار هناك حتى نتمكّن من اللحوق بكم مع بقية الأسرة، إن كتب الله لنا النصرَ. لكني سَأَكْمُنُ في بلد نشأتُ فيه وحقّق أجدادُنا انطلاقاً منه أعظمَ الإنجازات. إني أكاد أسمعُ في أذني وصيةَ جدِّنا يعقوب المنصور الموحدي، رحمة الله عليه وهو على فراش الموت. لا بد أن نهتمَّ باليتيمة والأيتام. لا بد أن نبذُلَ المالَ والأنفسَ في سبيل هذه البلاد التي استطعنا أن نُلَقِّنَ العالَمَ من خلالها درساً في التسامح والمدنيَّة والإنسانية، كنا نعيش جميعاً مع بعض، يهوداً ومسيحيين ومسلمين. أما اليوم، فقد استيقظتْ نوازع الشر والدَّمار والاستبداد عند أناس غَبِطُونَا على حياتنا والمثالِ الذي أبدعناه على هذه الأرض الطيبة المباركة. يا أبنائي، يجب أن أنافح عن هذه الثمرة الإنسانية الطيبة التي زُرِعَتْ في هذه الأرض. إن البشرية وُلدتْ هنا على أرضنا، البشرية التي تفسحُ المجالَ أمام كلِّ أَحَدٍ. لم نُقِمْ حدوداً وهمية بين بني الإنسان. طبعاً لكل واحد الحقُّ في أن يعيش حسب ما اختاره لنفسه ولكن في نطاق قبولِ الآخرين وطرائق عيشهم. هذه

ميزتُنا وهذا ما قدَّمناه للإنسانية. فكيف أتركُ كل هذا وأرحل لأنجو بنفسي؟ إنني إن نجوتُ حقاً فسأعيش تعيساً لأن ضميري سيشْكُني بإِبْرَة العِتاب والتَّأنيب كل نفَسٍ من الأنفاس الصاعدة في هذا الجسد. لا حياة يا أبنائي إلا بحياة هذه القِيَمِ العُليا فينا. إنني سأحارب من أجل أن تحيى هنا إنسانية حقيقية، وإذا استشهِدتُ فسيتذكر قوم يأتون بعدنا أننا كنا على حق. ستبقى ذكرانا حية في قلوب الناس. وهذه هي الحياة الباقية. استعدوا الآن للرحيل. لقد أخبرني بعض نبلاء القشتاليين ممن لي به علاقة طيبة أن إيزابيلا ستُصدر مرسوماً لتنصير جميع الأندلسيين. ومن أبى لا خيار أمامه إلا الرحيل، والآتي أعظم. إن أمامنا أياماً صعبة يا أبنائي الأعزاء. استعدوا إذن للرحيل وخذوا ما استطعتم حمله من الكتب النفيسة النادرة والذهب والفضة لتستعينوا بها على بناء حياة جديدة في المغرب.

كان كلام ابن معن مؤثراً، وساد صمت رهيب ولم يجرؤ أبناؤه على رفع رؤوسهم إلى والدهم أو التحدث بمحضره. إن الصمت في مثل هذه المواطن أبلغ من الكلام، بل إن الكلام تعسُّف كبير. إن النفس إذا نطقت بكلامها النفسي وصمتها اللفظي كانت أعظم أثراً. سالت دموع أبنائه في صمت خاشع حتى بكى صارخاً أحد الأطفال الصغار فأخرج الجميعَ من حرَج هذه اللحظات وانصرف الواحد يتبعه الثاني إلى أن خرجوا وتركوا ابن معن ينظر من نافذة البيت إلى السماء التي تَلبَّدَتْ بسُحُبٍ سوداء.

في الأيام التي تلت باع ابن معن كثيراً من الأراضي التي كان

يملكها وأخذ ثمنها من النبلاء القشتاليين الجدد ثم حثَّ أبناءه على الرحيل بأقصى سرعة.

ثم حلَّ ما كان متوقعاً، وبدأت نُذُرُ الشؤم تخيِّم على البلاد، فقد حوّل خيمينيس مسجد غرناطة إلى كنيسة كبرى، وحوَّلوا مسجد البيازين إلى كنيسة أخرى تحمل اسم المخلص، وتمَّ تنصير أكثر من خمسينَ ألف موريسكي قَسْراً بعد ثورة جبال البُشَرات وأُبِيدَتْ قرى بكاملها وتفنَّن القشتاليون في أنواع الوحشية. لقد أصبحوا يعاملون المسلمين الموريسكيين كالعبيد بل وأفظع من ذلك. لقد اختلط الحقد والأثرة مع الوحشية فسالت أودية بدماء الأبرياء. واعتُدِيَ على النساء والفتيات، ونُكِّل بالشيوخ والعجزة، انتقاماً من الشباب المقاوم.

ثم إن الكاهن خيمينيس أمر بجمع جميع الكتب التي يحتفظ بها الموريسكيون، إذ كان هذا الأمر يسبب له إزعاجا كبيراً في تطبيق سياسته لتنصير الأندلسيين. لقد كان يعظ الناس قسراً في المساجد المحولة إلى كنائس، وما إن يخرجوا من وعظه البئيس حتى يعودوا لبيوتهم لقراءة القرآن والحديث وكتب أهل العلم، فيلتهب حماسهم ويزدادون إصراراً على هويتهم ودينهم.

لم يكن أمام الكاهن إلا هذه المناورة الأخيرة، بل الجريمة العظمى في تاريخ الإنسانية. ولعل من يأتي من الأجيال القادمة أن ينبش عن هذا التاريخ الدموي والإجرامي الكبير. لقد جمع زبانيتُه من أهل الكنيسة والجنود تحت القوة والتهديد بالحرق والقتل، حوالي مليونَ مخطوط في مختلف الفنون والعلوم والصنائع. ثم جُمعت في

الساحة الرئيسة لغرناطة، وصعد الكاهن الخبيث منتشياً بهذا الانتصار إلى برج عال في قصر الحمراء الذي بنته يدٌ صَنَاعٌ لا مثيل لصنعتها وفنونها. وأمر الكاهن بإضرام النار في هذا التراث العلمي الإنساني الكبير، الذي جَهِدَتِ الإنسانية في بلوغه على هذه الأرض. وصعِدتْ ألسنة اللَّهب عالياً واستمرَّ الدخان لأيام حتى لم تعد الحياة ممكنة في غرناطة. وغطّتْ سحابة هائلة سماء المدينة لأسابيع حتى لكأن السماء تمطر غضباً وظلمة. وهي حقاً ظلمة الجهل والخِسَّة ودناءة النفس. أصيب كثير من أهل غرناطة بالذهول وتسمَّروا في بيوتهم خشية أن ينالهم مكروه أعظم مما ابْتُلُوا به.

وفي مطلع عام 1502، وفي أُتُونِ الظلمة المكتنفة لفجر أحد الأيام، خرج الركب المغادر مُتَخَفِّياً. ودَّع ابن معن أبناءه وأهله وتعانقوا عناقَ من يعلم أنها آخر مرّة سيتبادلون أنفاسَ قُبلات التّوديع والاحتِضان، ثم خرج الرَّكب من غرناطة باتجاه الجنوب. وبقي بعض آل معن ممن آثر المكوثَ مع الشيخ للجهاد ضد الظَّلامية الجديدة.

بعد أيام من خروجهم من غرناطة وصلت رسالة إلى ابن معن تخبره بوصول الرَّكْب إلى فاس بعدما عبروا بحر الزقاق على متن غُرابِ (سفينة) باتجاه العدوة الجنوبية. وبقيتِ الأندلسُ للرّعاع وخَسِرَ هُنالكَ الكَافرون.

اللواء الثاني

حمَّ الشتاء بكارثة قادمة، وكان ابن معن ينتظر متى ستحل بالأندلس وأهله مع المرسوم الجديد للملكة الكاثوليكية. وفعلا في 12 فبراير 1502، أصدرت إيزابيلا المرسوم اللعين الذي رجع بالإنسانية إلى الوراء قروناً عدة. وينص المرسوم على وجوب تنصير «أعداء الدين المسيحي»، وإن امتنعوا يُطرَدون ويُرحَّلون. ولا يُستَبقى إلا الأطفال لتنصيرهم. كما حظر على من بقي إخراج الذهب والفضة والمجوهرات. وعلى إثر هذا المرسوم نعَقَ الغُراب في كل مكان ورَحَل ما يقرب من مليون موريسكي باتجاه المغرب وشمال إفريقيا. وبعضهم رحل إلى جنوب فرنسا، وآخرون إلى الشام ومصر. لكن أغلبهم رحل إلى المغرب الذي كان دائماً العمق الحضاري لمسلمي الأندلس، ومنه نشأت إمبراطوريات عظمى حكمت العالم في وقت من الأوقات وبنت حضارة راقية.

لقد اشتكى النبلاء من هذه السياسة الخرقاء التي أفرغت البلاد من أفضل عناصر البلاد وعارضوها بشدة وأرسلوا يحتجون ويطلبون الإبقاء على المسلمين وتمكينهم من دينهم ولغتهم من دون جدوى.

وأخذ التنصير أبعاداً متطورة وقسرية فحُوِّلت جميع المساجد إلى كنائس وانقطع الأذان ورُفع الصليب في كل مكان وأريقت الخمور وعَجَّت الأسواق بأنواع المحرَّمات، وتبوَّأ الخنزير الصَّدارة بعدما كان محرَّماً تناوُله عند المسلمين. تظاهر الكثيرون بالتَّنصُّر وتردَّدوا على الكنائس والأديرة. لكن المقاومة كانت مستمرة بشكل مختلف. كان الناس يُظهرون المسيحية ويُخفون الإسلام. وفي أيام الآحاد كانوا يقفلون بيوتهم تظاهراً بانصرافهم لقُدَّاس ذلك اليوم. وتم تعميد أطفالهم ورشِّهم بماء المعمودية، لكنهم ما إن يعودوا إلى بيوتهم حتى يغسلوا أطفالهم مجدداً مزيلين أثر الصليب مِنْ على أجسادهم. كما كانوا أشد حفاظاً على صلاة الجمعة في بيوتهم. استمروا في أداء فرائضهم بشكل سري. أما بالنسبة للأنكحة، فكانوا يعقدونها بالتثنية، فأمام القشتاليين كانوا يتظاهرون بعقدها في الكنائس بحضور الكهنة والرهبان، ثم إذا خلوا إلى أنفسهم عقدوها على الطريقة الإسلامية.

لقد كانت حياة صعبة ومريرة، وأيُّ أسى وأيُّ حزن كان يعاني منه الناس في هذه الأوضاع البئيسة؟ كانوا سادة العالم، فلما انقلبت دورة الزمان، صار الرَّعاع يقودونهم والأجلاف يسوسونهم المهانة والذل والعذاب.

ومع كرور الأيام وتوالي المحن والخطوب، ضعفت ممارسة الشعائر الإسلامية وعزَّ من يُرشِد الناس إلى قضايا دينهم فيما يعرض لهم من شؤون. وبدل أن تكون الحياة الدينية متجددة وحيّة في نفوس الناس، أصبحت شيئاً موروثاً يتناقله الخلف عن السلف. لم يعد

الدين ديناً حيّاً بل صار عادات وطقوساً متوارثة لا يحيد عنها اللاحقون. وتحوّلت أوضاع فقهية جزئية إلى عقائد مقدسة، واكتسبت من القداسة بقدر ما كانت ممارسة شؤون العبادة أمراً مستحيلا في الفضاء العام. لقد تحول الإسلام إلى دين سرّي تختلط فيه التقاليد مع التشريعات. ولحسن الحظ أن مذهب أهل الأندلس كان مالكياً لأنه يعتبر ما جرى به العمل أصلا من أصول التشريع في هذا المذهب، مما لا نجده في غيره من المذاهب. وهذه الحركية مكّنت الأندلسيين من الثبات على دينهم.

ماتت الملكة إيزابيلا ثم لحق بها فردينان، وتولى الحكم حفيدها كارلوس (بالقشتالية) أو شارل الخامس (بالألمانية)، من أسرة الهابسبورغ. ضم كارلوس إلى حكم مملكته قشتالة وأرغون وصقلية وسردينيا والنمسا والبلاد المنخفضة وهنغاريا ومورافيا وغيرها من البلاد. لقد كانت إمبراطورية عظيمة. ولم يكن أمامها إلا فرنسا التي خرجت من حربها الطويلة مع إنجلترا التي دامت مائة سنة، أكثر شراسة ورغبة في التوسع. وتقاسمت الدولتان شِلْوَ القارة الأوروبية ومستعمراتهما وراء البحار. وأمام بزوغ هذه القوى المسيحية الكبرى تقلّص دور المغرب عما كان عليه سابقاً واحتلّت العديد من المدن الساحلية سواء على البحر المتوسط أو على جهة المحيط. وظهرت قوة ثالثة أعظم من السابقتين على مسرح الأحداث تمثّلت في الخلافة العثمانية التي أوقفت المد المسيحي في شرق البحر المتوسط.

ثم قامت حروب بين فرنسا وإسبانيا انتصرت فيها إسبانيا.

وواكبت هذه المتغيرات السياسية متغيرات دينية حيث ظهر ما يسمى بحركة الإصلاح الديني مع راهب يدعى مارتن لوثر، فأخذ الصراع منحى دينياً بين أتباع المذهب المسيحي الجديد وأنصار المذهب القديم.

في خضم هذه الأحداث كان الأندلسيون في غرناطة يقاومون في صمت وإخوانهم الآخرين الذين رفضوا ذلَّ المسيحية والتخلي عن دينهم وعاداتهم ولغتهم هربوا إلى جبال البُشَرَات يعيشون حياة الأحرار، يُغِيرُونَ بين الفينة والأخرى على جموع القشتاليين ويصيبون منهم مقتلا. فَتَنْشَبُ اتفاقياتُ هدنةٍ لكنها سرعان ما تُنْتَهَكُ فيعودُ الثوار إلى ثورتهم.

كان ابن معن مع غيره من الأندلسيين الذين فضّلوا البقاء في الأندلس ومجاهدة القشتاليين يتعرّضون لأسوء المعاملة. ورغم أن عهد كارلوس الخامس اتّسم بالتردد بين التنكيل والإغضاء إلا أن محاكم التفتيش كانت تَقُضُّ مضجع المرابطين والمجاهدين. لذا شكّل الموريسكيون مجلساً من ذوي الحل والعقد فيهم من بقي من الفقهاء للتفاوض مع القشتاليين وضمان حقوقهم. وكانوا يجتمعون في سرية تامة. وفي أحد أيام الجُمَعِ الشّاتِية قرّروا الاجتماع في بيت ابن معن. وكانت لهم علامة يعرفون بها مكان الاجتماع إذ كان يوضع علم أزرق على شُرْفَةِ بُرْطَالِ البيت في الطابق العلوي في صباح ذلك اليوم. وكان لهذا العلم وظيفتان، الأولى الإعلام بمكان الاجتماع، والثانية، الإخبار بصلاة الجمعة. وبعد أن يدخل وقت الصلاة يستبدل

العلم الأزرق بعلم أبيض. وحين يحين وقت الصلاة يُنزع العلم فيتناقل الناسُ من شُرَفِ بيوتهم الخبرَ بحلول وقت الصلاة فيصلُّون اقتداءً بالإمام وهم في بيوتهم. وقد توافقوا على أن تستغرق أوضاعُ الصلاة من قيام وركوع وسجود وتشهُّد أوقاتاً معلومة، حدَّدها فقهاؤهم قياساً على سورة الإخلاص. فخصصوا للقيام والتشهد قدر قراءة هذه السورة خمس مرات، وللركوع مرة واحدة ومثلها للسجود، قراءةٍ متوسطة لا بطيئة ولا سريعة. فكان الناس يأتَمُّون بالإمام من بيوتهم، فلا يفطِن إليهم القشتاليون. وكان الفقهاء قد اتَّفَقوا على تأخير وقت صلاة الجمعة إلى وقتِ خُلود القشتاليين إلى القيلولة والنوم. وهي فترة لها بالغ الأهمية لدى عامّة سكان أهل الأندلس، ولا يحب الناس فيها الإزعاج. فحتى الرقباء والجند لم يخطر ببالهم أن يقتحموا بيوت الموريسكيين أثناء وقت القيلولة ظناً منهم أولا أنهم يَقِيلُونَ كعادتهم التي نقلوها إلى من سواهم، وثانياً لعدم تفريط القشتاليين في وقت راحتهم.

دخل أعضاء المجلس واحداً تلو الآخر بعد أن تُرِكَ بابُ الدار مفتوحاً لدخولهم بسرية وهدوء. وكان بعض الشباب يقفون في رؤوس الأزقة المؤدية للدار لرصد حركات القشتاليين والإبلاغ بمقدمهم حتى ينفضَّ المجلس بأسرع وجه. ثم انضمَّ إلى أعضاء المجلس بعضُ أَوْجَهِ الموريسكيين وشجعانهم. ولما أخذوا أمكنتهم شرعوا في قراءة القرآن جماعةً بصوت خفيض. وهذه السُّنَّة الحميدة هي التي أبقت على القرآن في صدور الناس في هذا الصُّقْع، بل وفي

غيره، إذ هي روايةٌ بالأنفاس. وبعد مرور ساعة دخل الإمام الخطيب إلى قاعة المجلس بجلباب وكساء أبيضين. وبين يديه شاب يحمل عصا في يده. كان الشيخ من آل سيدبونة، وقد بقيت الإمامة والقضاء والزعامة الروحية فيهم منذ جدهم الأكبر أبي أحمد جعفر ابن سيدبونة، صاحب كتاب الشهاب، المتوفى في الربع الأول من القرن السابع الهجري. تقدم الشيخ حتى وصل إلى منبر صغير من ثلاث درجات وُضِعَ إلى يسار عَنَزَةٍ[1] من خشب تشبه محراباً، فارتقى على المنبر ثم جلس في الدرجة الثانية ووضع رجليه على الدرجة الأولى. ولما استوى في مكانه واعتدل في جلسته قام الشاب الذي كان يخطر بين يديه سارداً فبسمل وحمدل ثم ثنَّى بالصلاة والسلام على المصطفى خير الأنام وسرَد رواية الإمام مالك من حديث أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة «إذا قلتَ لصاحبكَ أَنْصِتْ والإمامُ يخطبُ يومَ الجمعةِ فقد لَغَوْتَ» ثم أتى بحديث ثان «ومَنْ لَغَا فلا جمعةَ له». ثم ختم بقوله «أنصِتوا رَحمَكُم الله، أنْصِتُوا رحمكم الله، أنْصِتوا يَغفِرْ لي ولَكمُ الله». وما إن ختم سارد الحديث حتى قام شاب آخر إلى صحن البيت فأذَّن بصوت مكتوم، لكن وَقْعَ تساقطِ حبَّات المطر على بَلاطِ صَحْنِ الدار كان كاتماً أفْضَلَ للصَّوت، فلم يَكَدْ يُسْمَعْ صوتُ الشاب. ثم قام شابٌ آخر فأذّن أذاناً ثانياً. وأخيراً قام الشاب

(1) العنَزة: قطعة من خشب على صورة محراب توضع عادة في امتداد الرواق الأوسط للمساجد إلى جهة الصحن خلال فصل الصيف، تجنبا للقيظ. ولازال هذا التقليد متبعاً في مساجد المغرب الكبرى.

السَّاردُ من داخل القاعة فأذَّن بين يدي الخطيب. ولما انتهى ناول العصا للإمام فقام خطيباً في مجلسه الذي ضمَّ حوالي أربعين شخصاً.

وبعد البسملة والحمدلة والصلاة والسلام على نبي الرحمة وكاشف الغمة وهادي الأمة، تناول ابنُ سيدبونةَ الحفيد كعادته في خطبته موضوعَ الابتلاء الذي يتعرَّض له الموريسكيون فقال:

إخوةَ الإيمان، الحمد لله الذي بقَدَرِهِ الحُزْنُ والفرح، والمَساءَةُ والسُّرور وبيده البَسْطُ والقَبْضُ، والرَّفع والخفض، والغِنى والفقر، والخَلْقُ والأمر، وإليه ترجع الأمور، وبقضائه المعَافَةُ والابتلاء، والسَّراء والضَّراء، وبمشيئته الشَّقاء والسَّعادة، والعِزَّة والذِّلَّة، وعن عِلْمه الإيمان والكفر، والتَّسليم والاعتراض، ومن موعوده النَّعيم والجحيم، والسَّلسبيل والحَميم. سبحانَه من حكيم عليم، حَكَمٍ عَدْلٍ لطيف خبير. حَكَمَ بأن أجرَ الصبر مُوفَّى بغير حساب، ولن يستوجب ذلك إلا الصَّبور. نحمدُه سبحانه وتعالى ونشكرُه، وشكرُه ذَخيرةٌ لا تَبيدُ وأمل لا يَخيبُ، ونستغيثُ به في كل كرْبٍ ألَمَّ وكُل خَطْب أَهَمّ. فمنه الإعانة وبه الاستغاثة، وإليه النُّشُور.

ونشهدُ أن محمداً عبده ورسوله، نبيُّ الشفاعة الماحية للذنوب، ووليُّ الهداية الجالبة لكل خير وسؤدد. صلى الله وسلم عليه وعلى آله الطيبين الكرام شُهُبِ الهداية وبُدور الكمال، وعلى أزواجه أمهات المؤمنين، وأصحابه لُيوثِ الشَّرَى، وعلى من تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد، عبادَ الله، فإن في حوادث الأيام لأولي الأفهام اعتباراً،

وفي طوارق الليالي لأرباب الهِمم العَوالي اختباراً، وفي مجاري الأقدار للذوات الشريفة الأقدار استظهاراً. فتعالى مالكُ الملك، ومُقدِّرُ النَّجاةِ والهُلْكِ، لا إلهَ إلا هو العزيزُ الحكيم، هدى وأضلَّ، وأعزَّ وأذلَّ، وأضحك وأبكى، وأمات وأحيى ﴿لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ ﴿ لَهُ الحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.

وإني وقفتُ بالحِنْكَةِ والتَّجربة من استحالة أحوال الدنيا وسرعة تقلُّبِها إلى الغاية القصوى، وشاهدتُ فيها أنواعاً من العِبَرِ وعاينتُ أشباهاً من الآيات الكُبَر. ثم إذا نظرنا جَاريَ عَادةِ اللهِ في خَلْقه، فالزمانُ في إدبار، والخيرُ في انتقاص، والشَّر في ازدياد، والصلاح في اضْمِحْلال، حسْبَما وعَد بذلك الصَّادقُ المصدوق، فما الذي يُطْلَبُ وَقَدْ تَبَاعَدَ بنا عن مَظانِّ رحمة اللهِ الوَطنُ الشَّاسِع.

اللهمَ كما صرفتَ عنَّا العقوبةَ التي كنا لها مستحِقّين وفي دعوى البراءة منها غير مُحِقِّين، فالْطُفْ بنا في مجاري أقدارك واجعلنا ممَّن وفَّقتَه إلى الهداية بأنوارك، وارزقنا التَّفويضَ لما قدَّرتَ وقضَيْتَ، والتَّسليمَ فيما حكمتَ وأمْضيتَ، بحولِكَ وكرَمِكَ.

وإنَّ مما يأتي به الليلُ والنهارُ مِنْ رِفْعَةٍ وضَعَةٍ، وضِيقَة وسَعَةٍ لآياتٍ بينات، وفُروضاً من الاعتبار على الفِكَر مُتَعَيِّنَات، وبراهين لا يستطيع أن يجحدها جاحد ﴿وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾.

عبادَ الله، لقد لاح بعد الاستقراء، للمُلاحظِ الحَصيف أن الابتلاءات المعهودة في هذه الدنيا لا يخلو أن تكون واقعةً في الحال أو مُتَوقَّعَةً في الاستقبال. وأيّا ما كانت، فلا يخلو أن تكون تلك

الابتلاءات في المقتنيات العزيزة على النفوس، كالمال والجاه وما أشبه ذلك؛ أو في النفوس وما لحق بها من أعضاءٍ وقُوى. ثم لا تخلو هذه الابتلاءات بنوعيها أن تكون مَأمولةَ الجَبْر، مَرْجُوَّةَ الارتفاع، أو غير مأمولة الجبر ولا مرجوّة الارتفاع. فهذه ستُّ صُورٍ من حيث الزمان والنوع والمآل، إذ لكل واحد منها صورة.

وتحت هذه الصور السّتّ من الابتلاءات والاختبارات جزئيات تعتاص على الحصر، ذُقْنَا منها ولا زلنا ألواناً، وأورثَتْ فينا الحَزَنَ والأَسَفَ والوَجْد والتّعب والكرَب والقلَق والهمَّ والنّكَد، وغيرها من التأثيرات النفسية التي تُذهِلُ العقلَ وتَشْغَلُ الفِكْرَ وتَغْمُر القلبَ وتُتعِبُ النَّفسَ ويَضيقُ عن حَمْلها الصَّدرُ وتُذهِبُ النَّوم وتُورثُ اليأسَ، وتَطرُدُ الأُنْسَ. فما هو العلاج يا تُرَى لكل هذه الأدواء؟

إن النعم المبثوثة في هذه الدار من صحّةِ جسم ورخاءِ عيشٍ وصلاحِ حالٍ، لها من حيث الاستجلابُ والاستدامةُ والاستكثارُ، أسبابٌ حافظةٌ مثلَ الشكرِ ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ﴾. ومن هذه الأسباب الحافظة زيادةُ الإيمان والتقوى ﴿ولوْ أنَّ أهْلَ القُرَى آمَنُوا واتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ﴾. ونحن كأهل هذه القرى المحاصَرة بجيوش أعدائنا. ومن الأسباب حسنُ التوكل والصلاة والأذكار المخصوصة. ففي سنن أبي داود والترمذي قال رسول الله ﷺ «مَا مِنْ عَبْدٍ يَقُولُ فِي صَبَاحِ كُلِّ يَوْمٍ، وَمَسَاءِ كُلِّ لَيْلَةٍ بِاسْمِ اللهِ الَّذِي لاَ يَضُرُّ مَعَ اسْمِهِ شَيْءٌ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاءِ وَهُوَ السَّمِيعُ العَلِيمُ، ثَلاَثَ مرَّات لَمْ يَضُرَّهُ شَيْءٌ». ومن الأسباب الحافظة

التَّوْسِعَةُ في عاشوراء الكفيلة بالتوسعة على المؤمن وأهله في سَنَتِهِ المقبلة. وكالصدقة وصِلَةِ الرَّحِم.

فما هي صورة الابتلاء المناسبة لحالنا والمترجمة على حقيقتنا في أرض الأندلس؟ لعلكم تعرفونها جميعاً، فليست خطبتي أمامكم إلا نوعاً من التنفيس وضرباً من التضامن، وبناء النفوس، ورفعاً للهمم، وأملا في المستقبل القريب، ورجاءً في الخلاص من ذلّ الاحتلال.

فهل الابتلاءات التي حلَّت بنا مأمولة الجبر، ومأمولة الزوال والارتفاع في الحال أو في الاستقبال، أم لا؟

إخوة الإيمان، لقد قال الله عز وجل في كتابه العزيز ﴿فإنَّ مَعَ العُسْرِ يُسْراً، إِنَّ مَعَ العُسْرِ يُسْراً﴾. ما حلَّ عُسْرٌ إلا وأحاط به يُسران. وما اجتمع عُسر مع يُسر إلا كانت الغلبة لليسر، مصداقاً لقوله تعالى في الحديث القدسي «سَبَقَتْ رحمتي غضبي». لقد حلَّ بنا ما حلَّ مما هو في علم الله، ونحن وإن كنا راضين بحكم الله، فإننا مصمِّمون عازمون على المقاومة واسترداد حقوقنا وأرضنا. لقد حلَّ بنا ما حلَّ لتفرُّقِ كلمتنا وذهاب رأينا فعَصَفَتْ بنا الأمم المسيحية قاطبة مجتمعة على حَبرهم الأعظم القابع في رومية. لقد حلّ بنا الوَهَنُ ونحن أكثر أموالا وحضارة وعِزَّة. وما الوَهَنُ إلا حبُّ الدنيا وكراهية الموت دون العِرْض والشَّرف والدين والمال والولد، وكل الحرمات التي تُبذل فيها النفوس وتُراق فيها الدماء الزكية الطاهرة. لقد اخترنا أن نبقى في بلدنا لأننا نكره الذل والاستعباد.

لقد كان بإمكاننا الهرب والسفر إلى بلاد الإسلام الفسيحة، لكننا أمة قائمة لله بالحجة في هذه الصقع الغريب.

عباد الله، نحن أيتام على مأدبة اللئام. فلا مُعوّل لنا إلا على خالقنا عزَّ وجلَّ، وعلى نفوسنا الأبيَّة. إخواني، تمسَّكوا بدينكم فهو عصمةُ أمرِكُم ولقِّنوه أبناءَكم وهم في حجوركم وفي صدور نسائكم يرضعونه لبناً خالصاً سائغاً للشاربين. فهذا سبيل الخلاص. لا ترفعوا أقدامَكم حتى تَعْلَمُوا حُكمَ الله في النَّوازل التي تحلُّ بكم. ومن لا يعرفْ يسألُ فقيهاً أو مُتفقِّهاً. ومَنِ اضطُرَّ إلى أَمْرٍ، فدينُنا واسعٌ ولله الحمدُ ﴿لا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْساً إلا وُسْعَهَا﴾. فالضرورات تُبيح المحظورات ﴿إلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ﴾. لا تَطْعَمُوا الخنزيرَ النَّجِس، فإني سمعتُ عن بعض قُرى الفلاحين من أبناء جِلدتنا يُعَلِّقون على أبواب بيوتهم لحومَ الخنازيز المقدَّدة لدفع تُهمة الدِّيانة. وقد صارت هذه العادة شِعاراً لهم حتى تخصَّصوا في بيع الخنازير للقشتاليين، نظراً لجودة لحومها كما سمعتُ ذلك يُحْكَى من كثيرين. فقد ألزموا الخنازير الرَّعيَ في غابات البُشَرَات تَرْعَى الحَشائشَ والأعشابَ الطيِّبةَ مثل الزَّعتر، ومنعوها من وُرود النَّجاسات، كما جُبِلَتْ عليه في أصل فِطرتها. رغم كل هذا، فإني لا ألوم إخواننا على ما فعلوه، إذ لم يكن فعلهم سوى حلا من الحلول للخروج من حُكم الضرورة. ولكن أن يتحوَّلوا إلى بيع لحوم الخنزير، فهذا خروج عن الضرورة إلى الرِّبح والانتفاع بالحرام. وعليكم بسُنَّة الخِتان لأولادكم. وحاذروا أن لا تقطعوا القُلْفَةَ مِنْ

أَصْلِها بل أَشِمُّوهَا مِنْ غَيْرِ إِنْهَاكٍ كما في عادة خِفَاضِ الإِنَاثِ في بلاد السُّودان، حتى إذا كشفَ قُسُوسُ المحاكم عن عَوْرة أبنائنا ليتأكدوا من براءتهم الأصلية، لم يَبِنْ لهم شيء، وحسبوا أبناءنا على مِلَّتهم. أما عن اللباس، فليس من باب الدين وإنما هو من المروءة والعادة، وقد كان لنبي الإسلام عليه الصلاة والسلام جُبَّةٌ رُومية. أما عن الأسماء فسَمُّوا أبناءكم بأسماء الأنبياء مما هو مشترك مع المِلل السابقة. وادْفِنُوا موتاكم في مقابر المسلمين وعلى الطريقة الإسلامية وغسّلوهم وأسرعوا في مُواراتهم التُّراب. وإن سئلتم عن سبب دفنهم في مقابر المسلمين فقولوا لأجل قرابة النَّسب مع الآباء والأجداد. وإن أُجبِرْتُمْ على دفنهم في مقابر القشتاليين، فتعاهدوهم بالقرآن وقراءة سورة يس أيام الخميس والجمعة خاصة. وأشدّ ما أُوصيكم به تعهُّد حفظِ القرآن وقراءته، فهو الحافظ لنا ولِألْسِنَتِنَا من العُجمة والرَّطانة والذُّوبان. فما دام القرآن بيننا مَتْلُوّاً نتعاهَدُهُ كل يوم وليلة في صلواتنا وأحزابنا الرَّاتِبة فلا خوف علينا. إن القشتاليين قد فهموا أن العربية هي حصنُنا المنيع، والطريق الأول والأخير إلى مصادر ديننا وهويتنا، ولهذا منعونا من الحديث بها ليسهل عليهم استمالةُ من شَطَّ به المَزارُ فلم يعدْ يتكلَّم لغةَ الجنَّة ولغةَ القرآن ولغة نبيِّنا عليه الصلاة والسلام. اعلموا إخوة الإيمان أن مجرَّد الحديث بالعربية عبادة مأجورة. وهذا من فَضْلِ الله علينا ودليل ساطع على عظمة هذا اللسان العربي المبين. القرآن والعربية لا يفترقان، فحافظوا عليهما رعاكم الله وسدَّد خطاكم وجنَّبَكُم كل مكروه وسوء. ولْيُعَلِّمْ كل فقيهٍ

حَافِظٍ عشرةً من الفتيان البالغين والشباب ثمناً من القرآن كل يوم. ومن تعلّم يُعَلِّم بِدَوْرِهِ النساءَ والأطفال في البيوت. أما الفلاحون، فعليهم بالقيام بأعمالهم بقراءة القرآن، وكذا كل مهنة لا يُخشى منها كشفُ سرِّ التَّحفيظ أمام العامَّة. ومتى ما حاول كهنةُ محاكمِ التفتيش البحثَ عن المصاحف في بيوتنا لم يجدوا شيئاً، ولم يفطِنوا أنه مَتْلُوٌّ بنا محفوظٌ في صدورنا. ولْنَتَّخِذْ طريقة في السلام والمصافحة نُشْعِرُ بها بعضُنا البعضَ الآخرَ أننا من أبناء الملَّة الخاتمة، وذلك بأن نَجُسَّ على منابض بعضنا بسبَّابة التَّشَهُّد. وَلْنَحْذَرِ العيونَ والجواسيسَ الذين قد يندسُّون فيما بيننا. فاحذوروا رحمكم الله أشدَّ الحذر ولا تُعطوا أنفسكُم لكل قادم يُظهر الإسلام، بل تلبَّثُوا وتربَّصوا وتيقَّنوا وتحقَّقوا ثم بعد ذلك، لكمُ الرأيُ، ولا تَسْعَوْا في الحديث عن إخوانكم. ومن ضُبِطَ، عليه بالكِتمان وأن لا يَسْحَبَ الجريرةَ والهوان على باقي أبناء ملتنا بالعِيان.

تنفَّس الإمام طويلا ثم دعا بدعاء مُختَصر وجلس مرة أخرى ليستريح ثم قام من جديد. وذكَّر في اقتضاب ببعض ما قال. ثم أوصى أبناء جلدته قائلا:

الْزَمُوا الطَّهارة ما حِيِيتُكم، فإن هؤلاء الأنجاس يكرهون الماء والطهارة، ويعتبرون الحمّام موطناً نَجِساً. سبحان الله، كيف زيّن لهم الشيطان القذارة التي يعيشون فيها والأوساخ والأدران والنَّجاسات حتى صنعوا لهم ديناً متوهَّماً يمجِّد القذارة ويعتبر الطهارة والماء جريمة تستحِقُّ الكفر والعذاب والتَّحريق. فعليكم بالطهارة ولو

عَوْماً في البحر. وإذا مُنعتم من الصلاة نهاراً فاقضوها بالليل. وعليكم بالتيمم ولو مسحاً بالأيدي على الحيطان. وإنْ أَكْرَهَكُمْ القساوسةُ على الصلاة أمام أصنامهم، فاخرِموا بالنيَّة وصَلُّوا صلاتكم المشروعة وأشيروا إلى ما يشيرون إليه من صنمٍ ومقصودُكُم الله. وإن أجبروكم على شرب الخمر فاشربوه لا بنية استعماله، وإن أكرهوكم على أكل لحم خنزير فكلوه ناكرين إياه بقلوبكم ومعتقدين تحريمَه. وكذا يكون الشأن في كل مُحرَّم أرغموكم عليه، فَأْتُوا به معتقدين تحريمه. وإن شدَّدوا عليكم في شتم محمد، فانطقوا واشتموا «ممد» ناوين أنه الشيطان. وإن قالوا قولوا «عيسى ابن الله» فقولوها إن أكرهوكم وروموا بنطق «ابن» لفظة «عبد» هكذا «عيسى عبد الله».

وعليكم بالجهاد، فإنه فريضة محتَّمة متى ما دعاكم أُولُوا الأمر إليه. وتفننوا في العلوم والصناعات وخاصة الحربية منها. كما لا تنسوا أن تُعلِّموا أبناءكم كيفيةَ بناء السفن وصناعة البارود والأسلحة وتربية الخيول الأصيلة، فإنها من أسباب المَنَعَة. وامتنعوا عن تعليم مهاراتكم للقشتاليين، بل احتفظوا بأسرار مِهَنِكُم بينكم، فمنها سِرُّ منَعَتِنا ومِفتاح عزَّتنا.

ثم دعا برفْع الغُمَّة وكَشْفِ الكُرُبَات وإبدال الحال بحالٍ أفْضلَ، وصلَّى على نبي هذه الأمة، ودعا المصلين للصلاة.

قام الشاب السَّارد وأخذ العصا من يد الخطيب وأوْدَعَها في مكان مخصوص ثم أقام للصلاة.

كان المطر ينزل على أرضية صحن الدار لما أُقيمت الصلاة،

وكأن هذا الماء طُهْرَةٌ من أَرْدَانِ الشِّرك والكفر، وأملٌ جديد.

خرج شاب من شُرفة البُرطال ونزع العلم الأبيض للدلالة على قيام الصلاة، فوصل الخبر إلى الشرفات الأخرى في سرعة مذهلة. وصلَّت المدينة خلف الإمام في غفلة عن الرقباء والجواسيس. كانت صلاة مليئة بالحزن والأسى، تضرَّع فيها النساء والأطفال والشيوخ والأرامل والعجزة والكهول والفقهاء والمجاهدون والمرابطون والثكالى والمرضى والمغتربون، وكل ذي حاجة إلا وصلَّى في خشوع رهيب وصمت ثقيل على النفوس تكاد القلوب تصل به إلى الحناجر. يا له من مشهد رهيب كمشاهد يوم الهول حين تصل القلوب للحناجر، ويصل نبض قلب الإنسان المُتْرَع بالحُزن إلى حنجرته ومَخْرج كلامه، لكنه يظل صامتاً بصمتٍ أبلغَ من كلمات الدنيا كلها، وأشَدَّ وقْعاً من كل العبارات. إنه كلام النَّفْس القائم بكل نَفْس. إنه كلام ينفعل عنه الوجود بأسره.

دامت الصلاة على وقع ساعة سورة الإخلاص التي تضبط هيئات الصلاة من قيام وركوع وسجود وتشهد.

وبعد الصلاة خرج المصلون وبقي في المجلس بعض ذوي الشأن للتحادث والتدبير. وبعد أن تناولوا الغداء قرروا أن يبعثوا برسالة إلى كارلوس ليذكروه بما قدموه له من مساعدات على إخماد الثورات التي اشتعلت في بلادهم حتى يكافئهم بالحرية الدينية...

كانت الأوضاع في الأندلس متباينة على عهد الإمبراطور كارلوس الذي ولد في الفلاندر، والذي لم يكن يحسن الحديث بالقشتالية،

بل كان يتحدث الفرنسية. لقد ورث عن جده وجدته فرديناند وإيزابيلا مملكتهما، كما ورث عن أبيه مملكة هولندا. وقد قامت ضده ثورات وحاول الموريسكيون في بلنسية أن يقفوا بجانبه ثلاث مرات حتى يبطل تنصيرهم الإجباري لمخالفته للقانون، لكنه بدلا من أن يعترف بالجميل الذي أسدوه له، فإنه أقرَّ الوضع على ما كان عليه، وقامت الكنيسة بمصادرة أراضيهم، بحيث صارت أكبر مالك للأراضي في إسبانيا.ونقل محاكم التفتيش من جَيَّان إلى غرناطة. وقرَّرت تلك المحاكم أنها تغفر للموريسكيين كل الشرور التي قاموا بها قبل سنة 1526 ضد الدين المسيحي، وتتوعدهم بإنزال أشد العقوبات إذا لم يرتدُّوا عن غيِّهم. ثم منعتهم نهائياً من استعمال اللغة العربية سواء في الكتابة أو التخاطب، وتعلم اللغة القشتالية وكتابة جميع العقود بها. وشمل المنعُ اللباسَ العربي الإسلامي وحظر استعمال الحمامات، ومنع الفن الأندلسي في الخياطة والصياغة، ومنعهم من اقتناء الخدم.

كان عهد كارلوس عهد حروب متتالية وصراعات في كل مكان ضد العثمانيين والفرنسيين والبروتستانت، لكنه لم يحرز نصراً على أي من خصومه، فقرر الاعتزال في أحد الأديرة وتنازل عن الملك لابنه فيليب الثاني. كان هذا الرجل مثل جدته إيزابيلا متعصباً، وقد عانى الموريسكيون عناء شديداً في عهده. لقد كانت ابتسامته قريبة من خنجره. رجل متنازع الأهواء، تغلب عليه المشاكسة والتردد رغم ذكائه ونشاطه. لقد كان مترهباً معادياً للإسلام والبروتستانت وفرنسا. وكان هدفه الأسمى اجتثاثهم لكنه لم ينجح في مهمته بل

إن تلك القوى ازدادت قوة في عهده. لقد انتعشت محاكم التفتيش في عهده وأُحرِق المهرطقون الإصلاحيون من البروتستانت الذين وصل صدى حركتهم إلى الأندلس. وكانت تلك ذريعة أخرى للنيل من الموريسكيين خاصة بعد أن استفحلت قوة العثمانيين وصاروا يملكون البحر الأبيض المتوسط، وازدهر الجهاد البحري في الشواطئ المغاربية بمساندة العثمانيين والسعديين في المغرب. كان الموريسكيون لقمة سائغة إذ كلما حلَّت كارثة أو هزيمة بالملك فيليب إلا وكان السبب في نظره استمرار الموريسكيين على إسلامهم رغم التنصير. وكانت الكنيسة في روما بقيادة البابا بيوس الخامس ترى اتباع سياسة حازمة ضد الموريسكيين والتخلي عن سياسة التسامح الذي تنتهجها الكنيسة القشتالية. كان هذا البابا متعصّباً متزمّتاً حتى مع المسيحيين. وكان ضد المذهب البروتستاني الجديد. وأقام محاكم للتفتيش في هولندا، أحرقت الآلاف من المهرطقين الإصلاحيين. كما كان يسعى إلى تكتيف جهود المسيحيين ضد الإسلام.

وعلى إثر حملة البابا، قام فيليب الثاني بإصدار مرسوم جديد عام 1567 لتنصير جميع الأندلسيين بأقصى ما يمكن. وكان هذا المرسوم قاسياً جداً مقارنةً بالمراسيم السابقة. فزيادة على منع العربية والوضوء كما في السابق، طال المنع دخول الموريسكيين إلى الحمّام الذي كان المسلمون يلجأون إليه للاستعاضة عن الوضوء. وطال المرسوم حتى الأموات وأكد على دفنهم في نعوش مغلقة حسب

طقوس قشتالة، وفرض حضور قابلة مسيحية في الولادة، ووجوب إبقاء الأبواب مفتوحة، ومنع استعمال الحِنّاء...

لكن الناس تجاهلوا المرسوم وكثرت المخالفات وحالات العصيان فصدر الأمر بتعيين بِدْرُو دِي دِيثَا رئيساً للمحكمة العليا في غرناطة. وتحوَّل الأمر إلى الإكراه القسري ومصادرة أراضي الغرناطيين حتى انحسرتْ بسفوح جبال البُشرات. وكَسَدَتِ التجارة مع الضرائب الفاحشة المضروبة على التجار.

لقد كانت حكومة هذا الملك الطاغية مخادعة وقاسية إلى أكبر درجة. فقد سعت بكل الوسائل إلى تجريد أمة بكاملها من ثقافتها وعاداتها ودينها وممتلكاتها. ولم يكن الهدف دينياً بالأساس بل اقتصادياً لأن البلاط والكنيسة اغتنوا بأموال الموريسكيين، ثم إن تسيير رحلات لاكتشاف العالم الجديد وراء البحار لم يكن ممكناً لولا هذه الأموال وسواعد الرجال المحكوم عليهم بالتجديف في المراكب الملكية.

جاءت الثورة في وقت كان فيليب الثاني مشغولا بانتفاضة الهولنديين وانتصارات العثمانيين البحرية، وثورة البروتستانت في قطالونيا. وانظم إلى الثورة التي كان يقودها الأمير ابن أمية وأخوه الغالب، عدد كبير من الموريسكيين وحققوا انتصارات على القوات القشتالية، وأخذوا بعض المدن واحتلوا عدة مواقع بين غرناطة والبُشرات وشنُّوا معارك بقرب أسوار غرناطة.

استمر الموريسكيون في الرحيل والهروب بشكل سرِّي إلى

المغرب رغم الأخطار التي كانت تتهدَّد الهاربين، إذ كان المصير الاسترقاق للهارب وأهله وأولاده ومصادرة جميع أمواله. ورغم هذه العقوبات الأليمة كان الموريسكيون يفرُّون بمساعدة إخوانهم الذي رحلوا من قبل أو من المغاربة عموماً. استمر التدفُّق على دول المغرب من دون انقطاع أمام هول التَّنصير والذُّل والتَّعذيب بأنواعه.

أما ابن معن فقد تقدَّم به السِّن وأصبح شيخاً هرماً ورزقه الله حفيداً صغيراً حرص على تربيته تربية أسلافه. وكان والد الحفيد قد اسْتُشهِد في إحدى الحملات التي كان يقوم بها الثُّوار الموريسكيون ضدَّ جيش القشتاليين. بعد وفاة والده، أخذ الرهبان الحفيد للتَّعميد وأطلقوا عليه اسم مورينو بلسان القشتاليين، وتحوَّل الاسم إلى معنينو لدى الموريسكيين.

كان الحفيد يذهب إلى الكنيسة فيتعلم اللغة القشتالية ويعلمونه دين النصارى. وكلما عاد إلى البيت أخذه ابن معن إلى مكان منعزل في البيت. كان يأخذ قلماً من القصب ولوحاً من شجر الجوز ومداداً أسود، ثم يسأل حفيده:

- ماذا درست اليوم في الكنيسة؟

- درسنا اليوم حروف اللغة القشتالية.

- هل يمكنك أن تذكرها لي.

ثم يبدأ الولد في استظهار تلك الحروف والشيخ يكتبها له بقلمه في اللوح. فإذا انتهى قال له:

- الآن سأكتب لك حروفنا العربية التي تقابلها.

ثم يكتب له بإزاء كل حرف قشتالي ما يقابله من الحروف العربية. وبعد أن علّمه تلك الحروف حتى استظهرها، قال له:

ـ هل تستطيع أن تكتم كل ما درست معي؟

ـ نعم،

ـ أريدك أن تعاهدني أن لا تخبر أحداً بهذا السر الذي يجب أن يبقى بيني وبينك مهما حصل. يجب أن لا تخبر حتى الأقارب والأصدقاء ممن في سنّك أو من ليسوا كذلك.

ـ أعاهِدك على ذلك.

ثم كان الشيخ يرسل لحفيده من يسأله عن الدروس التي يُلقّنها له، فيمتنع الصبي. وكانت تأتيه الخادمة المخلصة فتسأله:

ماذا كان يعلّمك سيّدي؟

ـ لاشيء.

ثم يأتيه أصدقاءُ والدِه المقرّبون من الشيوخ ويسألونه نفس السؤال فيردّد نفس الجواب. ثم يغرونه بجميع الإغراءات ويقولون له

ـ لا تخف يا محمد، نحن على علم بما يعلّمك جدك. فلا تخف، قل لنا وسنحتفظ بسرك ولا نخبر به جدك.

لكن ذلك لم ينفع مع الحفيد، فقد كان ثابتاً على عهده الذي قطعه لجده. استمر الأمر على هذا المنوال مدة من الزمن حتى أَمِنَ الشيخ على حفيده من الجواسيس والعيون وأسئلة القسوس. ثم انتقل إلى تعليمِه أصولَ دينه. فكان ينهج معه نفس النهج في الدرس اللغوي. فيبدأ أولا بسؤاله عن مضمون كل درس حتى إذا أخبره

الولد بذلك قام الجد يَنقُضُهُ عزوةً عُروةً بتعليمه أركان الإسلام وقواعد التوحيد. ثم كان ينصحه ويقول له:

ـ إذا دخلت الكنيسة ورأيت أصنامهم، فاقرأ قول الله تعالى ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الكَافِرُونَ لاَ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ وَلاَ أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ وَلاَ أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ وَلاَ أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ، لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينٌ﴾ فَيُحَفِّظُهُ السورة ولا يَنْفصِلُ عنه حتى يحفَظَها. ثم كان يحفّظه ما يقولُ عندَ رؤيةِ تمثالِ سيِّدنا عيسى علَى الصَّليب ﴿وقَوْلِهِمْ إنَّا قَتَلْنَا المَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ﴾ إلى قوله ﴿بَلْ رَفَعَهُ اللهُ إلَيْهِ وَكَانَ اللهُ عَزِيزاً حَكِيماً﴾. كان الحفيد لا يفهم سر هذه الأصنام الكثيرة التي كان يراها في كنيسة النصارى، لكنه كان معجباً ببعضها وخاصة منها تماثيل السيدة مريم العذراء مع ابنها عيسى عليه السلام. وكان يعجب بتعابير البراءة والمحبة على وجهيهما، فأخبر جده بما كان يشعر به فقال له الجد

ـ يا ولدي، نحن معاشر المسلمين نحب ونحترم ونؤمن بسيدنا عيسى وأمه سيدتنا مريم عليهما السلام، لكننا نعبد الله وحده. وهذه الأصنام التي رأيت في كنائس النصارى حُجُبٌ عن العبودية الحقيقية.

ـ وما مَردُّ غلبة الصُّور على أُمَّة النصارى يا سيدي؟

ـ لقد غلب على هذه الأُمَّة النصرانية التَّصْوِيرُ لأنَّ وجودَ عيسى لم يكن عن ذَكَرٍ بشري، وإنما عن تَمَثُّلِ رُوحِ جبريل لسيدتنا مريم في صورة بشر. وهذا هو السبب في غلبة الصُّورة عند هذه الأُمَّة خلافاً لنا ولليهود. إن أصل عيسى كان عن تَمَثُّلٍ لصورة المَلَك،

فَسَرَتْ هذه الحقيقة في أُمَّتِه. والآن اقرأ سورة الإخلاص.

لما تيقَّنَ الشيخُ بكتمان حفيده، أَمَرَهُ أن يتكلَّم عن هذه الأمور فقط مع الذين كانوا يسألونه سابقاً ويختبرون عهدَه وكتمانَه، خلال زياراتهم إلى بيت ابن معن.

وفي الحملات المتكررة والمباغتة التي كانت تقوم بها محاكم التفتيش نال ابن معن من العَنَتِ ما ناله جرَّاء ما فعله الرهبان والكهنة بحفيده. لذا عقد العزم على الرَّحيل به إلى المغرب خوفاً من أن يضيع منه نهائياً، ويصبح واحداً من رجال دينهم لأن أحد الكهنة ألزمه بالخدمة المستمرة في الكنيسة إلى جانب الأبِ الرّاعي. لقد تقدَّم السِّن بابن معن ولم يعد في وسعه الحركة والمناورة. كما أن حفيده لم يتلقَّ تربية عربية إسلامية موسّعة وكافية. وكان الشيخ يخشى أن يخبرَ حفيدُه في يوم من الأيام عن غير قصد منه، بما يجري في بيت جده. فكهنة محاكم التفتيش والجيران والعُيون كانوا يسألون الأطفال عن عوائدهم في بيوتهم أو يُقدِّمون لهم لحم الخنزير ليأكلوه، فإن امتنع الولد جَرَّ التُّهمة على أهل البيت بالكامل. لذا صار من عادة الموريسكيين أن لا يبدأوا في تعليم أبنائهم الدين الإسلامي أو العربية إلا عند البلوغ حيث يكون الغلام أو الفتاة قادرين على الكتمان.

مع دخول الحفيد في خدمة الكنيسة بصفة مستمرة، قرَّر ابن معن أن يهرب بابن ولده إلى بلاد الإسلام. وذات يوم سافر به إلى قرية كان لابن معن بها أرض زراعية قريبة من البحر. واتَّفق أن هاجم تلك

القرية آنئذٍ المجاهدون من مدينة سلا في المغرب على ساحل المحيط، فخاطبهم الشيخ في أن يأخذوه مع حفيده إلى بلادهم في المغرب. وبينما كان يجري الاتفاق بينهما، لاحت كتيبة من الفرسان القشتاليين فاعترضت طريق الفارّين قبل أن يصلوا إلى مركب المجاهدين. أمر ابن معن حفيده أن يجري بأقصى قوّته حتى يركبَ في السفينة. تردّد الصبيُ لحظات، لكن الجَدَّ انتهره ليهربَ وبقي هو في مكانه لا يملك نَضَارَة الشباب ليلحق ببقية الفارين. وأسْعفتِ الغلامَ فُتُوَّتُهُ فوصل إلى السفينة، وقد بدأتْ تغادرُ الشاطئ. دخل الغلامُ في الماء ولم يرهبِ الغرقَ رغم جهْلِهِ بكيفية العَوْم.

وفي هذه الأثناء نزل الريس لما رأى الغلام يُعاركُ ضَغْطَ الماءِ بساقيه الصغيرتين فَالْتَقَطهُ تحت إبطه ثم ناوله لِبحّارٍ في السفينة. وبقي الريس يساعد بعض الفّارين الذين وصلوا إلى برّ النجاة، ثم صعِد أخيراً لمّا لم يبق بينه وبين الفرسان المهاجمين سوى خطوات قليلة، بعدما حَدَجَهُمْ بنظرة الانتصار. تسلّق بسرعةٍ جدارَ سفينته ثم أمر بحّارته بنشر القِلاع على وجه السرعة، وعمِلَ المجدّفونَ على إبعاد مركبهم عن الشاطئ، فلم يتمكّنِ الفرسان من مطاردتهم، وظَلُّوا يَقْرَعُونَ أناملَ الغَيْظِ والحَسْرَةِ على هروب السفينة بمن فيها.

أخذ المجاهدون معهم الحفيد الذي لم يكنْ يُجاوِزُ ثمانِ سنوات. ابتعدتِ السفينةُ بسرعة كبيرة اعتماداً على أَذْرُعِ مُجَدّفيها، ومُواتاةِ الرياح. ووقف الفتى ينظر إلى الشاطئ يغيب عن عينيه وهو يُلَوّح لجدّه بيديه والدموعُ تنزلُ من عينيه في صمت. ثم أخذته شبه

رعدة وتشنُّج فانتفض من حزنه، ولمَعَ وميضُ الشرر في عينيه ثم صاح بأعلى صوته: ساعود، أُقسِمُ أنّي ساعود يوماً ما. وهنا احتضن الريس الفتى الشجاع وقال له: سأُعلِّمك القتال وركوب البحر حتى تستطيع أن تَبَرَّ بقسمِك وتَثأَر لأهلك. اعتبرني من الآن والداً لك يا بُنَي.

ثم رَبَتَ على كتِفه ومرَّر كفَّه الخشنة على رقبته بحنانٍ أبَويٍّ صادق.

أخذ الفرسان يسحبون الشيخ الذي لم يُزِلْ عَينيه عن السّفينة مُبارِكاً ذهابَها مُتضرِّعاً بأن تَبْلُغَ بَرَّ الأمانَ في أرض الإسلام، وغافلا عن حاله المُزري ومَصيره المأساوي المحتوم. لكنه سُرَّ لما رأى بَسالةَ حفيده وصنيعَ الرَّيِّسِ معه، فاطمأنَّ على مصيره.

* * *

استمرت الثورة بشراسة، واحتلَّ قائد قوات الموريسكيين الفارس الحبقي مدينة سيرون سنة 1570. وحصل تحوُّلٌ مفاجِئ في سياسة فيليب الثاني حيث أمر أخاه لأبيه كارلوس من علاقة زنى مع محظيَّة هولندية، الدون خوان النمساوي، بإنهاء الحرب فوراً وفتح المفاوضات مع الأندلسيين، نظراً للانتصارات الهائلة التي حققها العثمانيون في البحر الشامي أو البحر المتوسط. فقد اقتربوا من قبرص التي احتلها البنادقة مستغلين انشغال قوات فيليب الثاني بقمع ثورة الموريسكيين.

بدأت المفاوضات بين زعماء الأندلسيين يترأسهم الفارس الحبقي

والدون خوان. واشترطوا لوقف القتال إلغاء مرسوم الملك وإصدار عفو عام وتم الاتفاق على أن يأتي الوفد الأندلسي بموافقة أميرهم على جميع بنود الاتفاق. خرج الوفد الأندلسي ليعرض على الأمير ابن أمية بنود الاتفاق لكن الفارس الحبقي تخلّف بمفرده في معسكر الدون خوان وحضر معه مأدبة عشاء ضمّت أعيان القشتاليين ورئيس أساقفة قادس.

ولما علم ابن أمية بالأمر داخلته الشكوك في فعلة الحبقي، وخاصة لما أبلغه باقي الوفد بأن الاتفاق يتضمن بنداً ينص على إبعاد جميع سكان البُشرات عن مناطقهم على أن يتكفّل الملك برعايتهم في مناطق سكناهم الجديدة. ثارت ثائرة الأمير ابن أمية وأرسل إلى الدون خوان يُعلِمُه بعدم موافقته على الاتفاق الذي صادق عليه الحبقي متجاوزاً صلاحياته كقائد عسكري. ولما علم هذا الأخير بثائرةِ ابن أمية ورفضِه للاتفاق خرج من معسكر الدون خوان إلى محل سكناه في برشل. وبعث ابن أمية من يأتيه به إلى مقر إقامته في مسينه شرق برشل، وتم تنفيذ حكم الإعدام بحقه.

ولما علم الدون خوان بمقتل الحبقي بعث إلى ابن أمية يعرض الصلح فردَّ عليه هذا الأمير الأبي بخطاب قال فيه: «لا أمنع قومي من فعل ما يشاؤون لكن أبلغ سيدك أنني لن أسلك سبيلهم ما بقي عليّ كساءٌ يسترُ ظهري. وإن لم يصمدْ أحدٌ من البُشرات فأنا صامد وحدي مفضلا أن أعيش مسلماً وأموت مسلماً على أن أنعمَ بكل ما يمكن أن يُقدِّمه لي فيليب الثاني». وعلى إثر هذا الجواب أمر فيليب

الثاني ببدء حملة تصفية الثورة تحت شعار «لا رحمة ولا هوادة». فبعث أربعة جيوش، كل جيش على محور من محاور تمركز المقاومين قَصْدَ فكِّ الارتباط بين الثوار وإرباك التنسيق وخطوط الإمداد. وأحرق الجنود القشتاليون الزرعَ والأشجار وأتلفوا المحاصيل وقطعوا إمدادات المياه. انشغل الثوار بمقاومة الجيوش كلٌّ في قطاعه وانقطع بينهم التنسيق. ولجأ كثير منهم إلى قمم الجبال والكهوف والمغارات فتبعهم الجند يشعلون النار في النباتات والأشجار ويضعونها على فوهة تلك الكهوف لخنق المختبئين فيها. ولحق المقاومين جرّاء ذلك خسائر فادحة رغم بسالتهم ومقاومتهم الشُّجاعة والمستميتة. لكن اختلال التوازن بين الجيوش القشتالية المجهزة، وجماعات الثوار غير المنظمة وأغلبها من السكان والفلاحين الذين لا خبرة لهم بالحرب كان قد حسم المعركة. وعلى إثر هذه الهزائم دبَّ الخلاف بين زعماء الموريسكيين واعتبر بعضهم ابن أمية مسؤولا عما حصل فقتلوه وسلَّموا زمام الأمر إلى قائد آخر هو عبد الله بن أبيه، لكن لم يتح له الأمر بالقيام بتنظيم صفوف الثوار فهرب إلى أحد الكهوف مع سبعين من الرجال وحوصروا هناك وأضرم الجند النار فقُتلوا اختناقاً. وهرب ابن أبيه لكن زوجته وابنتيه مِتْنَ بالدخان. وتتبَّع الجيش القشتالي الثوار أينما كانوا وحُزَّتْ رؤوسهم وعُلِّقت على أبواب القرى والمدن. وأصدر الطاغية فيليب الثاني مرسوماً ملكياً يسمح لجنوده بالانتقام، ورَفَعَ رواتبهم جزاءً لهم على عمليات القتل والسَّبي والنَّهب والإحراق. ثم أصدر مرسوماً ثانياً

بترحيل جميع الأندلسيين من الجنوب إلى قشتالة ومصادرة جميع ممتلكاتهم. كما عيَّن دوق أركوش حاكماً عسكرياً في غرناطة، وغادر الدون خوان فاستقبله القشتاليون في مدريد استقبال الأبطال.

وعلى إثر هذه المذبحة العامة قُدِّم آلاف الأندلسيين إلى المحكمة العليا فأعدَمتْ جزءاً كبيراً منهم، وسَجنتْ آخرين، وحَرمتْ قسماً آخر من الحرية فصاروا عبيداً في قشتالة وانتقلت جماعات منهم إلى العالم الجديد. أما زعيم الثورة عبد الله بن أبيه فقد قتله أحد أتباعه. وأُحْضِرَ جثمانه موثوقاً إلى إطار خشبي على ظهر بغل فَطِيفَ به في المدينة ثم قطعوا رأسه. وقام القشتاليون على جُثَّتِه يَدْهَسُونَها بأرجلهم حتى مثَّلوا به شرَّ تَمْثِيل ثم أحرقوه، وحُزَّ رأسُه ثم وُضِعَ في قفص عُلِّقَ على باب البُشرات في مدينة غرناطة وكتب عليه «هذا رأس الخائن عبد الله ابن أبيه». وهدَّدوا من يُنزِل رأسَه بالإعدام. بقي رأس عبد الله معلقاً على باب البشرات ثلاثين سنة يُذَكِّر الأندلسيين بمغبَّة الثورة والمقاومة.

انتهت الثورة وكان معظم هذه الأمة الطريدة إما مغرَّبين أو معتقلين أو عبيداً أو أسرى، وبعضهم مقيَّد بالأكبال في مراكب الإسبان، يشتغل في التَّجديف ليل نهار في القواديس، أو يشتغل في المهن المحتقرة والمستقذرة. لقد كانت سنوات الثورة أياماً تشيب لها الوِلْدان وصُبِغَتْ بلون الدماء. لقد ذبح الجنود القشتاليون الرجال والنساء والأطفال بأمر الدون خوان وأمام عينيه، وتحوَّلت قُرى البُشرات إلى مشرحة بشرية في الهواء الطلق، وأُحرقت قرى بكاملها

وخُنق الناس بالدخان وعاث الجنود فساداً ودمَّروا كل شيء. وحتى الأسرى لم يسلموا من الثأر والقتل والذبح وأضحت غرناطة مسرحاً للإعدامات اليومية. فبعد أن تُصدِر محكمة دي ديثا حكمَها الفوري يُنفَّذ الحكم بالإعدام شنقاً أو بتقطيع جسد المحكوم عليهم بكمَّاشات حامية كالجمر. لقد سقت الدماء تلك الأرض بماء الشهداء. ونبتت في السنة الموالية شقائق النعمان على مرمى البصر زاهية بحمرتها القانية، تقول للجميع، لقد تحوَّلت دماء الشهداء ماء ينبت الأزهار والنباتات.

كانت حصيلة هذه الثورة الدموية رهيبة، فقد قُتِلَ وَاسْتُشْهِدَ أكثر من عشرين ألف من الموريسكيين رجالا ونساء، وجُرِحَ منهم ثلاثة أضعاف هذا العدد، فيما طالت الإعدامات والسَّبْيُ والاستعباد والاسترقاق في مراكب التجديف في أعالي البحار عشراتِ الألوف. لم يكن أحد قادراً على فهم أسباب هذه الوحشية المتناهية التي لحقت أُمَّةً بكاملها. لقد وصل الجنون إلى منتهاه في هذه المنطقة لتخريب ما بنته حضارة مُتنوِّرة خلال قرون عديدة من التعايش والاحترام بين جميع أبنائها، سواء كانوا مسلمين أو مسيحيين أو يهود.

وكان من نتائج هذه الثورة تنفيذ مرسوم سرّي مُوقَّع من فيليب الثاني، حيث أمر الدون خوان جميع الأندلسيين الغرناطيين الذين تتراوح أعمارهم بين العاشرة والستين الاتجاه فوراً إلى أقرب الكنائس إليهم. وحذَّر بإنزال أشد أنواع العذاب بالمتخلفين. عمَّ الخوف

البيازين، وهرع أعيان الغرناطيين إلى دون خوان للاستفسار عن سبب النداء وأعلنوا ولاءهم لفيليب الثاني فطمأنهم وذكر لهم أن الهدف هو إحصاء جميع الرجال. وطلب منهم أن يسهروا على ضمان امتثال أمره ففعلوا ما أشار به. وما أن اجتمع الرجال والفتيان في الكنائس حتى أغلق الجنود أبوابها ووقفوا على مداخلها يحرسونها، وبقيت الأمهات والنساء تبكي على أولادهن وأزواجهن وآبائهن وإخوانهن وقرابتهن. وفي اليوم الموالي أمضى الدون خوان في فرز الرجال فاختار منهم نحو ألفين من العلماء وأرباب الصناعات والمهرة في كل فن من الصُناع والمزارعين والبنائين، أبقاهم في غرناطة للخدمة. أما الباقي وكان عددهم في حدود الأربعين ألفاً فقد غُرِّبوا إلى مناطق مختلفة في قشتالة.

ثم انتزع جميع الأطفال دون العاشرة من أمهاتهم ووُزِّعوا على بيوت القشتاليين تحت إشراف الكنيسة الكاثوليكية لتربية هؤلاء الأطفال تربية مسيحية. ومن بين تلك الأسر الغرناطية الكبرى أسرة السيد مصطفى وزوجته حليمة فقد أخذ القساوسة منهما ابنتهما الوحيدة حياة رغم توسل الوالدين ودفعهما أموالا طائلة للحاكم وجنوده. لم يفد الأمر في ذلك. بقيت حليمة تبكي بنتها وأصيب مصطفى بالخرس من ساعة أخذت منهما البنت.

ثم توالى تغريبُ النساء بعد ذلك إلى مناطق مختلفة بعيداً عن أزواجهن وذوي قرابتهن وأطفالهن. كما توالى التغريب بعد ذلك وطال أعداداً كبيرة من الموريسكيين الذين استسلموا ونزلوا من

معاقلهم في الجبال، فَغُرِّبوا إلى مناطق مختلفة في قشتالة بنفس الطريقة الوحشية في فَصْلِ أُسَرٍ بكاملها وتشريدها وتشتيتها. وقد بلغ عددهم هذه المرة حوالي خمسين ألفاً.

لقد تم إفراغ مدن وقرى بالكامل من سكانها الأصليين، ولم يجد الحكام كيف يعمُرُونَها بالسكان القشتاليين.

أما الأندلسيون الموريسكيون الذين رَحَلُوا إلى المغرب فإنهم استمروا في الاتصال بإخوانهم المتبقين في أرض الرباط والجهاد. وقد عمل المهاجرون على مقاومة من نوع جديد، حيث استقرَّ كثير منهم في سلا وتطوان وتونس والجزائر، ومن هناك أنشأوا دوراً للصناعة البحرية وبناء السفن. وكان من نتائج هذا التحول أن ازدهر الجهاد البحري في موانئ دول المغرب ضد القوى المسيحية عموماً والإسبانية خصوصاً...

ضعف اللسان العربي بين أهل الأندلس وسَرَتْ إليهم عادات القشتاليين، وصار بعض ضعاف النفوس منهم يشرب الخمر ويأكل الخنزير، وضَعُفَتْ معارفهم الدينية، وخَرجت نساؤهم سافرات. لكنهم ضلُّوا متمسّكين بانتمائهم، واختلط الأمر عند بعضهم، فلم يفرّقوا بين هذه المظاهر الجديدة التي دخلت إليهم وأوضاع أجدادهم وأسلافهم فيما سبق. ولما كانت تقع حملات من إخوانهم لإنقاذهم وتغريبهم إلى برّ العُدوة الجنوبية، لم يجدوا التّرحاب الذي كانوا يُؤمّلونه لأن أهل الإسلام صُدِموا بعوائدهم المسيحية، فلم يستسيغوا شُربَ بعضهم الخمور وأكلَهم الخنزير وغير ذلك من المظاهر

المخالفة لدين المسلمين. فكان هذا البعض منهم يعود إلى الأندلس لعدم اندماجه في المهجر الجديد، وبعضهم الآخر يتعلّم حياة الإسلام في وسط مسلم. لقد كانت مأساة حقيقية عاشتها هذه الأمة الطَّريدة من أرضها. وفي رباط سلا، أطلق أهل المدينة على هؤلاء الوافدين الجدد بسبب عاداتهم لقباً قَدْحِيّاً باللغة العامية «مْسَلْمِينْ الرْبَاط»، يشيرون بذلك إلى اعتلال ديانتهم وضعفها. فهم في مِرْيَةٍ من أمرهم والحق بكل شيء محيط.

اللواء الثالث

حَمَّ عَينُ سِرِّ القَلْبِ لما قُبض على ابن معن بجانب البحر بعد فرار حفيده مع مجاهدي مدينة سلا، فرُحِّل الشيخ إلى غرناطة ونُكِّل به ثم أُودع السجنَ.

وللتَّحقُّق من تنصُّره حُوكِم ونُسبَتْ إليه تهمة الإلحاد والكفر. ورغم شَيْبَتِه فقد رُميَ في سجن مظلم برفقة بعض الموريسكيين والمُهرطقين المسيحيين. كانت تجربةُ السجن في ذلك القبو المظلم مجالا للتَّعرف على التناقضات التي كانت تهزُّ المسيحية.

كان السجن الذي وُضع فيه الشيخ سرّياً ويسمى بالبيت المقدس. وأيّ قداسة تفوح من مكان يَسْلُبُ القداسة والحرية عن الإنسان؟ ووجد فيه مجموعة من الموريسكيين والثوار، إلى جانب بعض اليهود والمهرطقين وشرذمة من أهل الدّعارة واللُّصوص وقُطّاع الطُّرق.

كان مع ابن معن في زنزانته رجل مسيحي من المهرطقين. لم يَجْرِ بين الرجلين في البداية إلا تحيّة فاتِرة، إذ كان كل واحد مُتوجّساً من الآخر. فعادة ما تلجأ محاكم التفتيش إلى ملء محاضر

المُتّهم بالتجسس على السجناء داخل زنازنهم. لكن الشيخ ابن معن لم يكن يأبه بهذا الأمر، إذ كان قد وَقَّر في سرِّه أن يَثْبُتَ على عقيدته جِهاراً. فكان يؤدي صلواته وأمورَ دينه غافلا عمّا قد يفعله زميلُه في الزنزانة. ثم ما لبث ذلك المهرطق أن اطمأن إلى الشيخ وصار هو الآخر يعبد الله وفق عبادته. وبدأت تجري بينهما محادثات دينية وفكرية رفيعة. وسأل كل واحد منهما الآخر عن السبب في احتجازه فأخبره ابن معن بقصته. ثم التفت إليه يطلب منه أن يخبره هو أيضاً عن سبب احتجازه فأجاب المهرطق

ـ أنا يا سيدي أندلسي موريسكي، اسمي كاسيودورو دو لارينا. أجدادي كانوا مسلمين لكنني لم أعرف الإسلام ولا تعلمت العربية. وُلدتُ في غرناطة وعُمِّدْتُ ورباني قَسٌّ قشتالي أحسن إليّ كثيراً وجعلني مثل ولده وعلمني المسيحية ثم جعلني راهباً كاثوليكياً. لكنني لما كَبِرْتُ التقيتُ ببعض أتباع الإصلاحيين المسيحيين فأقنعني بالمذهب الجديد وانشرح له صدري. وكانت أصولي الأندلسية تدفعني إلى مثل هذا. فسافرتُ إلى بازل في سويسرا لأدرس المذهب الجديد وتعرَّفت هناك عن كثب على أستاذي المصلح الكبير جان كالفين ولازمته لزوم الظل للشخص حيث كنت أقطن معه في نفس البيت. وقد قمت بإرسال الأناجيل اللوثرية التي أنشأها المصلح الكبير العالم اللاهوتي مارتن لوثر، إلى قشتالة في براميل النبيذ. وأمرني أستاذي كالفين بالعودة إلى بلدي لأنشر المذهب الجديد بين أبناء جلدتي من الأندلسيين الموريسكيين المضطهدين.

فلما عدت أخذت في نشر الدعوة الجديدة لكن عمال محاكم التفتيش قبضوا علي وأودعوني هذا السجن. ويعتبرونني أخطر رجل إصلاحي في قشتالة لأنني ترجمت الكتاب المقدس إلى القشتالية. هذه هي قصتي، فأنا رجل مسيحي أعبد الله على شاكلة المسيحية الأولى التي لم تكن بهذا التعقيد التي هي عليه اليوم. فمثلا أنا أرفض ما يسمى صكوك الغفران التي يمنحها الرهبان لأبناء الكنيسة مهما فعلوا من جرائم وشنائع.

ـ بالفعل، لقد سمعتُ عن مثل هذه الصكوك، ورابني تطويع الدين لقضايا الدنيا وتجميع المال، فهلا أخبرتني عنها بتفصيل أكبر حتى أفهم.

ـ طبعاً. أنا يا سيدي من أتباع رجل رفض هذه الصكوك وقام على الكنيسة يطالب بإلغائها ويعتبر أنها بدعة أساءت إلى نقاء ديننا وشوَّهته. وهذا الرجل اسمه مارتن لوثر. وأظنك سمعتَ باسمه من قبل لأن إخواننا سعوا في تبليغ رسالتنا إلى كل مكان حتى في قشتالة الكاثوليكية. لما انتقد هذا الرجل تلك الصكوك في ألمانيا في بداية هذا القرن، حظي بتأييد شعبي كبير هناك لأن الناس كانوا يعيشون في ضيق كبير والكنيسة كانت تلزمهم بأداء الصكوك عن ذنوبهم الصغيرة والكبيرة. بل لقد موَّلَتْ جميعَ الحملات الصليبية من مداخيل هذه الصكوك. كان لوثر عالماً كاثوليكياً كبيراً ولاحظ أن النسخة الشائعة للعهدين القديم والجديد التي أقرَّتها الكنيسة مكتوبة باللغة اللاتينية المترجمة عن اليونانية.

ـ اسمح لي أن أسألك عن هذا الأمر. ففي علمي أن السيد المسيح لم يكن يتكلم اللاتينية أو اليونانية. فكيف يَصِحُّ اعتماد هذه الكتب المترجمة عندكم على أنها مقدسة؟

ـ الواقع أن سيدنا عيسى كان يتكلم الآرامية. والتوراة كانت باللغة العبرية. ووضع اليهود ترجمة لها باللغة الآرامية لأنها كانت اللسانَ المنتشر بينهم. ولما مات الإسكندر جاء بعده خليفته بطليموس فجمع سبعين عالماً لاهوتياً عبرانياً لترجمة قسم من التواراة العبرية إلى اليونانية الدارجة آنذاك. ثم أُكمِلَتِ الترجمة فيما بعد ذلك. ومع انتشار المسيحية كانت الحاجة إلى وضع تراجم أخرى للكتاب المقدس مثل السريانية واللاتينية. وفي القرن الخامس الميلادي، أتم القديس جيروم ترجمة العهدين القديم والجديد إلى اللاتينية. واعتمدت الكنيسة البابوية هذه الترجمة وطَرحتْ غيرَها.

وعلى نفس المنوال قام مارتن لوثر بترجمة الإنجيل أو العهد الجديد إلى الألمانية فكان لهذا الحدث تأثير كبير داخل المسيحية في ألمانيا التي كانت على المذهب الكاثوليكي. استبشر الناس خيراً بهذه الترجمة وصار في متناولهم قراءة الكتاب المقدس لأول مرة، لأن من كان يتقن اللاتينية أو اليونانية قلة صغيرة جداً. وكانت هذه القلة تحتكر تأويل النصوص وتفسيرها. فلما قرأ الناس ترجمة لوثر بلغتهم التي يتكلمونها لم يجدوا في نص الكتاب المقدس تلك الطقوس الغريبة والمعقدة والعقائد الشائكة. عندها جَهَرَ لوثر بالكلام وبدأ ينتقد الكنيسة وصكوك الغفران التي ليس في نص الكتاب المقدس ما يُسوِّغها.

ـ اسمح لي، طبعاً جميل هذا التوضيح ومفيد، ولكن من أين جاءت الكنيسة بفكرة بيع الصكوك؟ لا أظن أنها اختلَقَتْها من العدم. ربما هناك نصوص يمكن الاعتماد عليها في تفسير جُنوح الكنيسة إلى إلزام الناس بقضية بيع الصكوك.

ـ نعم، كل ما هناك أن الكنيسة كانت في السابق تقضي على المذنبين الذين اعترفوا بذنوبهم ببعض الأعمال مثل زيارة الأرض المقدسة أو المساهمة في بناء كنيسة أو دَيْر، أو الصيام والتقشف في المأكل والملبس فترة من الزمن. ثم انتقلت الكنيسة بعد ذلك إلى تسويغ شراء صكوك عن الذنوب المقترفة. وتولَّتِ الكنيسة صَرْفَ تلك المبالغ المستلمة في المَصارف التي تراها مناسبة.

ـ إذن، فهذا يشبه نوعاً ما المعاملات التجارية بين الناس. فقديماً كان السائد هو مقايضة البضائع والمنتجات، بضاعة ببضاعة. ثم انتقلنا إلى مرحلة أخرى وهي شراء البضائع بوسيط متَّفقٍ على قيمته هو الذهب والفضة. ثم بعد هذه المرحلة، انتقلنا إلى نوع آخر من الوساطة هي إصدار صكوك بقيمة البضاعة المشتراة. وهذا مفهوم في المعاملات التجارية بين الناس لأن مقايضة البضائع ليس أمراً ميسوراً في كل وقت. فالمسافر مثلا لا يستطيع أن يحمل معه أرطالا وأثقالا من المنتجات لمقايضتها بما يحتاجه. فالتعامل بالنُّقود الذَّهبية والفضِّية أو الصُّكوك يسيرةٌ وعمليّةٌ مقارنةً بالمقايضة.

ـ صحيح إذا تناولنا القضية من هذه الزاوية، لكن الفرق يكمن في أن صكوك الغفران أصبحت مِشْجَباً تُعَلَّقُ عليه كل الأخطاء،

وتمادت الكنيسة في هذا الأمر حتى صارت تقوم بالدعاية لها ثم إنها حلَّلت الناس من كل ذنوبهم. وهذا جعل الكثيرين يرتكبون أفظع الجرائم ثم يشترون الصكوك للتَّكفير عما ارتكبوه. فهل تعلم أن إنهاء الحكم العربي الإسلامي والحرب على غرناطة كان مُمَوَّلا بصكوك الغفران؟ لقد طلبت إيزابيلا من البابا سيكستوس الرابع زيادة تسويق الصكوك لتمويل حربها على مملكة غرناطة، فأصدرت الكنيسة صكوكاً بقيمة مُتَدَنِّية جدّاً لاغتفار قائمة طويلة من الذنوب. وتسلَّم المساهمون وصولات تُثْبِتُ استحقاقهم للغفران عمَّا ارتكبوه من ذنوب وجرائم.

ـ إذن، فالحرب على مملكتنا في غرناطة كانت بأموال حرام؟

ـ لاشك أن كثيراً من تلك الأموال كانت كذلك. ثم إن الأمر لم ينته عند هذا الحد، بل أصبحت الكنيسة تبيع صكوكاً تضمن لشاريها مكاناً في الجنة. وأعظم من هذا أن البابا ليو العاشر أمر بتسويق صكوك للصرف على بناء كنيسة القديس بطرس في روما تعفي المذنبين من العقاب وتطلق الأرواح من النار.

ـ ألهذا الحد وصل استهتار الكنيسة برسالة المسيح؟ فالبابا القابع في أكبر كنيسة مزخرفة بحطام الدنيا متحايل يخدع الناس ويَسْتَلُّ منهم أموالهم باستغلال الدين ويبيع الجنة لمن يدفع أكثر من غيره.

ـ هذا هو ما نقوله نحن أيضاً، ولهذا قامت الحركة الإصلاحية اللوثرية ضد البابوية والكنيسة وأرادت إرجاع الدين إلى نقاوته الأصلية. وفي البداية حاول لوثر أن يصلح الكنيسة من الداخل فبعث

بانتقاداته إلى الكنيسة ورفض قضية صكوك الغفران. لكن الكنيسة لم تُلْقِ له بالا فاشتدَّت الحركة النقدية في ألمانيا. وانتقلت الانتقادات إلى مؤسسة الكنيسة ورئيسها. وكان رد فعل الكنيسة على هذه الحركة هو نعتُها بالهرطقة ومحاربتُها ورميُها بالحرمان الكنسي. ثم قام لوثر بخطوة أخرى لما اختصر أركان الطقوس الكاثوليكية من سبعة إلى اثنين فقط هما التعميد والمناولة. ولم تحتمل الكنيسة ولا البابا هذه الثورة عليها، فلعن ليو العاشر لوثر وأطلق في حقه الحرمان الكنسي. وتضافرت السلطة الدنيوية مع الكنيسة في عهد كارلوس الخامس الذي كان إمبراطوراً مقدساً على إسبانيا وهولندا وألمانيا وما وراء البحار على محاربة لوثر. وأحل الإمبراطور دم الرجل لكن شهرة لوثر كانت قد بلغت الآفاق، ولقي دعماً من أمير منطقة الساكس الألمانية، فريدريش الحكيم الذي لم يكن بوسعه أن ينفذ الحكم الصادر بحق لوثر خشية أن تقوم عليه ثورة شعبية تطيح به. واختار بدلا من ذلك مُسانَدَتَه عِوَضَ مُقاتلَتِه. وانتشر المذهب في سويسرا وفرنسا على يد أستاذي كالفين فأَخَذَتِ الثورةُ بُعداً إصلاحياً متزايداً وحصل شَرْخٌ ثان في المسيحية بعد الشَّرْخ الأول بين الكنيسة الشرقية والكنيسة الغربية.

- وكيف تعامل أستاذك مع تأويل نصوصكم المقدسة؟

- إن أشد ما حير مارتن لوثر في شبيبته هو مفهوم الدلالة السلبية. فمثلا لقد تساءل كيف يمكن للعدل الإلهي المقابل للرحمة الإلهية أن يكون وسيلة الخلاص؟

ـ إن هذا مشكل عويص جداً، فهذه الأسماء الإلهية المتقابلة تجد حلا لها في جمعية الأسماء، ولهذا أوتي نبينا جوامع الكلم خلافاً لنبي الله آدم الذي علم الأسماء الإلهية فقط. ولا شك أن الكَلِمَ أَوْعَبُ من الأسماء.

ـ فعلا، إن مارتن لوثر قد وجد حلا لهذا التناقض في مظاهر تجلي الألوهية. فالصراع بينها لا ينفك، لكن العدل الإلهي بمفهوم الدلالة السلبية هو أننا مخلوقون بالعدل. فلا يمكن فهم هذه الأسماء أو الصفات الإلهية إلا في علاقتها بالإنسان.

ـ لقد لخص علماء الإسلام القول في هذه القضية حين خلصوا إلى أن الرب يقتضي المربوب والإله يقتضي المألوه والعكس. فالأمر الإلهي الفِعْلِي يقابله الأمر الخَلْقي المَفْعُولي.

ـ إن هذا الفهم هو نفسه الذي فهمه لوثر، وجعل منه الشارح الأكبر للقديس بطرس

ـ دعنا الآن من هذا، وقل ما هي الطقوس الأخرى التي ترفضها حركتكم؟

ـ من بين الطقوس التي نعارضها التَّبتل وإكرام القديسين والقُدّاس وتعميد الأطفال.

ـ فأنتم إذن مُضطهَدون مثلنا تماماً في عقيدتكم. لكن هل تعتقدون أن الرب واحد أم أنه ثالث ثلاثة؟

ـ يا سيدي نحن نعتقد أن الرب واحد مثلَكم معاشر المسلمين، وأن المسيحَ ليس إلهاً، وأُمّهُ ليست أمّ الرب، والتماثيل التي تملأ

الكنائس مرفوضة عندنا لأنها استمرار للوثنية الرومانية القديمة. والعبادة والتوجه والصلاة هي لله وحده.

ـ لقد أوقفني الحديث معك على أشياء كثيرة تجمع بيننا.

ـ هل تعلم أن البابوية وجَّهت إلى زعيمنا لوثر اتهاماً بأنه يتبنى تعاليم دينِكُم وأنه يسعى مثل المسلمين إلى شق الكنيسة. وطبعاً هذه تهمة باطلة ورخيصة لأن لوثر لم يكن مسلماً بل كان يعارض الإسلام في بعض معتقداتكم كقضية صلب سيدنا المسيح.

* * *

تعلَّم ابن معن كثيراً من زميله عن الشُّروخ التي كانت تَعصِفُ بالمسيحية وأدرك سر الاضطهاد الذي تعرض له المسلمون لأنهم أدُّوا ثمناً غالياً حتى تُقنِعَ الكنيسة نفسَها أنها قوية في مواجهة الإسلام المطبوع بالوحدة والقوة.

وفي الأيام التالية، أتى عُمّال المحكمة في جُنْح الليل وأخذوا كاسيودورو من زنزانته. حاول أن يستغيث لكنهم وضعوا في فمه قطعة خشبية تشبه الإجّاصَة لها مفتاح ثم بدأ أحد الجلادين يدير ذلك المفتاح فكان حجمها يتعاظم ولا يستطيع الضحية أن يُطلق صوتاً لأن القطعة ملأت كل فمه الذي كاد أن ينفجر من شدة الضغط. كنتُ أنظر إلى المسكين يتلوَّى من دون أن يستطيع حتى أن يصرخ. كانت أوداجه منتفخة تكاد تنفجر، أما خدوده التي كانت متجعدة فقد صارت بفعل الشَّد ملساء من دون تجاعيد. لم أكن أملك أن أتدخَّل، وأحسست بالجبن والوضاعة بسكوتي وتظاهري بالنوم. ابتعد به

الجلادون، وَوَقْعُ أحذيتهم وصَوْتُ الأبواب الحديدية التي كانوا يغلقونها عند خروجهم تصل إلى سمعي فَتَطِنُّ طنيناً يفاقم من تأنيبي. نزلوا بالمتَّهم في سراديب مظلمة تحت قصر المحكمة. مَرَّت لحظات من الصمت ثم وصل إلى سمعي أنَّات متقطِّعة ثم صوت صراخ بعيد. كان الجلادون يمارسون هوايتهم المفضلة في التعذيب ونزع الاعترافات التي يرغبون في سماعها لتسويد محاضر الخزي.

* * *

لقد كان ابن معن مُصَمِّماً على أن يعترف بكل شيء من البداية حتى يجنب نفسه العذاب المرتقب. وفي كل ليلة كان ينتظر أن يأتي إليه الجلادون بآلات العذاب المختلفة التي تفننوا في تطويرها. لكن يظهر أنهم تركوه للأخير، قد كان همُّهم الأول أن يقضوا على مظاهر ثورة الإصلاحيين المسيحيين أولا.

* * *

وفي صباح الغد عند الفجر عادوا بزميلي إلى زنزانته محمولا بين جلاديه. طرحوه على فراشه ولم أكن أسمع حتى صوت نَفَسِه. اقتربتُ منه محاولا استجلاء الأمر فرأيتُ رجلا مختلفاً عن الذي كان يحدثني. لقد تغيرت ملامحه بشكل كبير. ماذا صنعوا به يا ترى حتى تغيَّرتْ سحْنَتُه؟ لقد زاد التعذيب في عمره فبدا هرِماً. وجه ممتقع، وخدود متدلية كأنها شكوة لبن مُهتَرِئة. صفرة قاتلة وحمرة خانقة وغُبرة داكنة. لم يعد للرجل لون مميَّز. تداخلت أدمته مع آثار العذاب. أخذتُ كوزاً من الماء لأرشّ به على وجهه وأسقيه منه.

نَضَحْتُ بضعَ قطرات على جبينِه ووجهِه فأحسستُ به ينتعِشُ بعدَ طولِ غياب. لكنه كان مغمضَ العينين غائر المِخْجَرَيْن، مُنْتَفِشَ الشَّعَر. لم أشأ أن أُزعجَه كثيراً لكني صببتُ له بعض الماء في فمه وعدتُ إلى موضعي.

ارتفع النهار والرجل ما زال في حالة غيبوبة. كنت أتفقَّده بين الفينة والأخرى مخافة أن يقضي وهو بين يدي. ومرّ يوم كامل وهو على حاله. وفي منتصف الليل عاد الجلادون إليه ليأخذوه لكنهم رأوا أنه كان غائباً عن وعيه فتركوه ورحلوا. لكني سمعتُ صوتَ زنزانة تُفْتَحُ، وصرخةً أُجهِضَتْ ثم وصلني صدى رَجْعِها من صَدْرِ مُتَّهَمٍ آخر، لعلهم وضعوا له تلك الإجّاصة اللعينة التي تمنع حتى مِنَ الصراخ. لم يعد الإنسان في هذا السجن إنساناً، بل لم يعد حتى صوتاً. لقد عَرّفَ الفلاسفةُ الإنسانَ بأنه حيوان ناطق، لكنه فقد هذه الصِّفة في هذا المكان اللعين. لم يعد ناطقاً، لقد جعلوا منه كائناً أخرساً.

قضيتُ تلك الليلة مُتوجِّساً مستعِدّاً لأَنْ أَلْقَى الله. كنت مُتيقّناً من أني لن أقوى على مثل هذا العذاب وسأقضي حتماً في أول جلسة يمارسون فيها عليّ جنونهم ووحشيتهم. لم أَطْعَمْ نوماً تلك الليلة. وفي صباح الغد الثاني سمعت حشرجة متقطعة وأنيناً آتياً من زميلي. قمتُ إليه وسقيتُه ماء ثم نضحتُ قطرات على وجهه فَدَبَّتْ فيه الحياة وسرى فيه الماء من جديد. فتح عينيه متطلعاً إليّ فلاحت منه ابتسامة مجهولة. ثم فتحهما مرة أخرى وبدا لي كأنه يسأل عمّا جرى. لم يكن المسكين يدري أين هو وماذا حصل له. كنت أترجم عن كلامه

النفسي من خلال قسمات وجهه وبريق عينيه. كنّا صُموتاً والأسى بيننا يتكلم. لقد أرادوا منا أن نَفْقِدَ خَصِيصَةً إنسانية هي النطق، فلنجعل من نطق النفوس خصيصة لا تصل إليها أَيْدٍ مُلَطَّخَةٌ بالآثام. أطعمتُ المسكين بجهد جهيد من طعام فَضَلَ لي، وأسندتُ رأسه إلى ركبتي. أَحسَّ كأنه عاد طفلا صغيراً يأوي إلى حِجْرِ أَبيه. ثم سالت من عينيه دمعة يتيمة أخبرت عن مدى قرب الإنسان من وطن الإنسان رغم تباعد المعتقد.

أمضيتُ أيّاماً أُعالج المسكين كل يوم وأُسرِّي عنه وأَستفهِم منه. لم يكن يَنْبِسُ بشيء، فكنت أسأل وأجيب. كنت أسأل من ذاتي وأجيب من ذاته. ثم كنت أسأل بسؤاله وأجيب بجوابي. لقد تبادلنا الأدوار عدة مرات. لكني كنتُ أنا النّاطق والشّاهد على هذه الإنسانية المضْمَحِلّة. كنت أقول في نفسي لا بد أن يبقى الإنسان ناطقاً. لا بد أن يُقاوم الصّمت المفروض من الجلادين. ثم كنت أدفعه للكلام وأنتظر الجواب فلا يأتيني جواب. ولما أعيتني الحيلة في إنطاقه، تركتُه ولم أَعُدْ أسأله عن أي شيء. بل أُقدِّم له شرابه وطعامه. لكني كنت أُحِسُّ بأنه متضايق من صمتي، وعيونُه جاسوسٌ يخبرني عن تَذَمُّرِهِ من هذا الصمت. وبعد أن يئس من محاولة إنطاقي مرّة أخرى وانقلبتِ الأدوار نطق أخيراً وقال:

ـ أما يكفيكَ أن أكونَ ميّتاً لوحدي؟

ـ لا يكفي، بل يجب أن نموتَ معاً عن الكلام حتى ننطِقَ معاً بالسَّلام.

ـ لقد أخبرني أحد الثُّوار المسلمين الأندلسيين أن نبيَّكم قال «موتوا قبل أن تموتوا». وذكر لي هذا القول في معرض تعريض نفسه للاستشهاد قبل أن يُقْتَلَ من قِبَلِ أعدائه ومحاكم التفتيش. فموتة الشهيد عنده تأتي قبل موتة المقتول. هناك شيء اختياري في هذا الفهم.

ـ نعم، قالها في موطن غير الموطن الذي نحن فيه، وهو مصيب في فهمه لأن موطن الشهادة حاكم عليه. فالمرء يموتُ دونَ دينِه وعِرْضِه ونفْسِه وماله وأَعزِّ ما لديه. لكن ما كنتُ أقصده أن يستقطعَ الإنسانُ من أمر حياتِهِ وُجُودَه ويرمي به في تجربة الموت عن الحسِّ وكلِّ الأغيار لتنفتحَ أمامه الحياة الحقيقية. كيف للمرء أن يدركَ الحياةَ إذا لم يدركْ طعمَ الموتِ عن كلِّ قابلٍ فِيهِ للموت؟ وأولُّ تلك القوابل نفسُه التي بين جنبيه.

ـ هل تدعوني بكلامك إلى قتل نفسي؟

ـ لعلك لم تفهم قصدي. كيف يَقْتُلُ المرءُ نفسَه وهي ليست مِلْكاً له؟ هذا نُسمِّيه غَصْباً لمِلْكٍ ليس له. بل ما أقصدُ، من تلك الحكمة البليغة أن يَعْلَمَ الإنسانُ أنه فَانٍ، وفي سرِّ إدراكِه لهذا الفناء يكون بقاؤه الأبدي. ولكن خبِّرني الآن عمَّا حصل لك في بيتهم المُقَدَّس؟

كأنَّ سؤالي أيقظ في الرجل شيئاً دفيناً لا أجد له تعريفاً، لكنه ما لبِثَ أن قال لي.

ـ الموتُ يا سيدي أفضلُ من ذلك العذاب. أَتعلمُ أنهم قرَّروا أن عمَّال محاكم التفتيش لا يحق لهم إراقةَ دَمِ المُحقَّقِ معهم. فاضطُرَّ

هؤلاء تنفيذاً لهذا المبدأ الصّارم إلى اختراع أدوات في غاية البشاعة والوحشية. لما اقتادني العُمَّال إلى البيت المقدس تحت قصر المحكمة أدخلوني إلى غرفة فسيحة تعجُّ بسجناء آخرين يتلقَّون ألواناً من العذاب. أَرَوْنِي أدوات التعذيب حتى أصابني رعبٌ كَيَوْمِ الفزع الأكبر. لكني ظَلَلْتُ رابط الجَأْشِ. ولما عاينوا صلابةَ موقفي مَسَكُونِي إلى إطار خشبي وربطوا أطرافي بحبال حولها بَكَرَاتٌ، ثم بدأوا في إدارَتِها حتى كادتْ روحي تَزْهَقُ، وصارت أطرافي تفارقني وتنخلِعُ عني. وكلما أداروا البكرات زاد العذاب فوق العذاب. أما فمي فكان مُكمَّماً بالإجَّاصة التي تمنع الصراخ وتُفَجِّرُ الفم. لقد كان في الصراخ شيئاً يَقُضُّ مضجَعَهم فلا يأتيهم النوم ليلا، لذا ابتكروا آلة الإِخْراس. استمرَّ الأمر طيلة الليلة حتى انخلَعَتْ أطرافي. وهذه الآلة اللعينة يسمونها **المِخْلَعَة** لأن أطراف المُعذَّب تنخَلِعُ عن مفاصِلِها.

وبينما كنت أَذْوِي كالغُصن الخَضِرِ الذي لَفَحَهُ اللهب، لم أجد مُنَفَّساً لحالي سوى إلقاء نظرة على ما يلقاه غيري من السجناء. تَصَوَّرْ، لقد صاح أحدهم صيحةً زَلْزَلَتْ أركانَ هذا القصر. وأَحْسَبُ أن رَجْعَها وَصَلَ إلى كلِّ لَبِنَةٍ فيه. لقد نزعوا عنه الإجاصة حتى يعترفَ لهم بما يرغبون في سماعه. تصوَّرْ أنهم ربطوا يديه إلى الخلف بحبل مُدَلّى من السقف يمرُّ حول بكرة كما هو الشأن في بكرات الآبار لجلب الماء. وأضافوا أثقالا إلى قدميه، ثم أخذ أحد هؤلاء الأبطال في شدِّ الحبل فارتفع المسكين عن الأرض وانجذبت يداه حتى انخلعت كتفه عن موضعها. ثم أنزلوه بسرعة فائقة إلى

الأرض ورفعوه مرة أخرى بِشَدِّ الحبل ثم أنزلوه. وفي كل مرة كان المسكين في حالة لا تطاق ولا توصف. ثم تركوه معلقاً في الهواء فغاب عن حسه. وأخيراً أنزلوه ورشُّوا عليه بعض الماء فأفاق وسأله المحقق أن يعترف بذنوبه فأجابهم إلى ما طلبوا. وأكاد أجزم أنه اعترف لهم بأشياء لم يرتكبها طمعاً في أن يُفْلِتَ من هذا العذاب. فالموت أفضل من أن يعود المرء إلى تلك الآلة الرهيبة التي يسمونها **المِرْفَعَة**.

ورأيت في غمرة عذابي سجيناً آخر ممدداً على سُلَّم خشبي، أحكموا رأسه عن الحركة بإطار حديدي ثم أوثقوا يديه ورجليه بقوة إلى جانبَيْ السلم ونَكَّسُوه فكان رأسه إلى أسفل وأطرافه إلى أعلى. ثم تقدم منه المحققون فَسَدَّ أحدُهم منخرية بكَمَّاشَة، لكن المسكينَ حاول التَّنفُّسَ ففتح فَاهُ فعالجه الثاني بسرعة متناهية وأدخل في فمه خِرقة طويلة ثم تقدَّم ثالثُ العِصابة المجرمة فصبَّ الماءَ على الخرقة من جَرَّة كان يحمِلها. شَرِقَ المسكينُ بالخرقة التي استقرَّت في جوفه وأراد الإفلات من هذا العذاب الذي لا يطاق بتحريك رأسه فازداد الضغط والألم على رأسه المثبت. ثم بدأ أحدهم في شد الخرقة فأخذ جوف المسكين يفيض فَيَقِيءُ الماءَ، لكنهم يعودون لصبِّ مزيد من الماء في حلقه مرة أخرى. واستمر الحال مدة من الزمن والعصابة تتلذذ بصنيعها وتقهقه من تَلَوِّي المسكين الذي لا يملك حولا ولا قوة أمام هذا الطغيان الشيطاني. غاب المسكين عن الشعور حيث جعلوا من جسده إسفنجة تمتص الماء. ثم أوعز أحدهم إلى عامل

يساعدهم في وظائفهم الخسيسة على فكّ جسد الإسفنجة عن السلم فمضى إلى ذلك فسقط الجسمُ ـ الإسفنجةُ واندلع الماء على الأرض، واندلعت كرامة الإنسان مع ذلك الماء. بقي المسكين مطروحاً هناك لمدة ساعة حتى عاد إلى وعيه بسبب صراخ السجناء الذين كانوا يلاقون أنواعاً من العذاب والمهانة.

كنتُ أستمعُ إلى زميلي الراهب وهو يَسرُدُ أهوالَ البيت المقدس وأنا غير مصدّق لما أسمع. إذ كيف يستطيع هؤلاء الوحوش أن يناموا ليلا ولا تَخِزُ ضمائرَهم صرخاتُ أولائك المساكين وتَلوِّيهم؟ لم أكن أستطيع أن أتصوَّرَ إنساناً يستطيع أن يفعل بغيره هذه الفنون الخسيسة ثم يبقى إنساناً كسائر الناس يأكل وينام ويصلي ويتحدث إلى سائر الخلق. كان هناك شيء يتجاوزني ويستعصي على عقلي ومداركي. كانت صورتي عن الإنسان شيئاً مختلفاً عن هذا الذي أسمعه. لكني كنت مصمِّماً على سماع المزيد من زميلي الراهب فسألته:

ـ وهل كان في قاعة التعذيب نساء يلقين أيضاً صنوف التعذيب؟

ـ أي نعم، لقد كان في القاعة بعض النساء نُزِعَتْ عنهن ثيابهن وعبثَتْ بأجسادهنَّ الطَّاهِرة البَضَّة أيدي المجرمين والسَّفلة والأَوْضَاع. لقد رأيتُ ما لا يُطيق أن يسمَعَهُ إنسان. وأحمد الله أن إنسانيتي ما زالت سليمة. لا يمكن أن يُحسَبَ هؤلاء على البشر، إنهم صنفٌ دون البشر. لعلَّهم في صورةِ البشر لكنَّ قلوبَهم مِنْ حَجَر. وإنَّ مِنَ الحجر لما يَشَّقَقُ من الماء فيجري بالحياة. وهؤلاء تَشَّقَقُ قلوبهم عن اللؤم والخِسَّة والضَّعَة والقَيْح والصَّديد والجبروت والطغيان. لقد

رأيتُهُمْ أخذوا امرأةً أندلسية، جميلةً أبيّةً مِنْ دِينِكُمْ فَعَبَثَ العمّال بجسدها ودنّسُوا طُهْرَهَا بِجَسِّ أَثْدَائِهَا وتَتَبُّعِ مَغَابِنِهَا. لقد رأيتُها صامدةً ثم صرختْ في وجههم تقول لهم: لعلّكم قد مَلَكْتُمْ جسدي تُدنِّسونَهُ بأيديكم القذرة لكنكم لم تُدَنِّسُوا روحي ولن تصلوا إلى تلويث كرامتي. أنا امرأة عربية مسلمة، وسأظل كذلك وسأموت شهيدة. لا إله إلا الله محمد رسول الله. خُذوا جسدي وشِلْوِي أيها اللُّوطية الفُسّاق، ها هو دُونَكُم. تَلَبَّثُوا في أَخْذِ أَوْطَارِكُمْ على امرأةٍ لا تملكُ أن تُدافعَ عن نفسِها. لكنكم لن تأخذوا مني إبايتي وكرامتي. أينَ الشرفاءُ الذي يتعفّفونَ من وَأْدِ طُهْرِ بَنات الصَّونِ ونساءِ الشَّرف؟ لكنكم من ذوي الوضاعة والخِسَّة، فكيف يستيقظُ فيكم ضميرُ الشَّرف والمروءة؟ اغتنموا أوقاتَ مسرّتكم على امرأةٍ عَزْلاءَ قبلَ أن تَحِينَ دُهورُ حَسْرَتِكُمْ. سنلتقي هناكَ في موطنِ السعادة للسعداء وموطن الشقاوة الأبدية لأمثالكم. ما جُعِلَتِ النَّارُ إلا لنظرائكم وأشباهكم. حينها لن تستطيعوا أن ترفعوا رؤوسكم من الخِزْيِ الذي حَلَّ بكم. يا جُرثومةَ الشياطين ونِخْلَةَ المنافقين.

ردَّ عليها واحد من العِصابة الباغية: تَمَنَّيْ علينا يا فاجرة، هل نأتيكِ من الدُّبُر أم نأتيكِ من القُبُل قبلَ أنْ نُذيقَكِ من بأسِ عذابِ كنيستنا المقدّسة.

ـ إِخْسَأْ أيها اللعين الفاجر، ولتتحطمْ على براءتي وطهري أحجار كنيسَتِك المدنَّسة. أما تستحيي من ربِّك، ومتاعُك مُتَدَلٍّ كأنه خُرطومُ فِيلٍ عَجُوز؟ لكمْ أُشْفِقُ على نَذَالَتِكَ وجهالتك. أيّ امرأة تقبلُ أن

يأتيها خَسيسٌ وضيعٌ مِنْ جِنْسِكَ، حتى ولو وَضَعَ لها الدنيا بأسرها في يدها؟

لكن الوضيع القَذِر مدَّ كَفَّه إلى فمه وملأه بُصاقاً ثم أدخل يده تحت عباءته القذرة وراح يلهثُ في افتعال شهوته. وبعد أن قضى أَرَبَهُ أخذ المسكينةَ وهي ترتعد من التَّقَزُّزِ ثم أجلَسَها على كرسي وأوثقَ يَدَيْها ورجليها إلى ذِراعَي الكرسي. ثم أتى ثالثُ الأنجاس وضغطَ على خدَّيْها بقوة ففتحَتْ فمَها فدلَّى فيهِ الإجاصةَ الملعونةَ وأدار مفتاحها حتى تمكَّنتْ من موضِعِها وسدَّت فيه كل خَلَّةٍ وفراغ. وحان موعدُ البدءِ في التَّعذيب بدون سماعِ صُراخِ المرأةِ الذي تندَكُّ له الجبال لو بَلَغَهَا بَعْضُ وَجِيبِهَا. ثم بعد ذلك أخرج الإجاصة الكاتمة للبؤس الإنساني بعدما كادت تَشْرَقُ نَفْسُ المرأة الأبيَّة. وبينما هي تجاهد نفسَها للبقاء على قيد الحياة وعيناها مغمضتان رفَعَ الخسيسُ ما تبقَّى من أسمالها الممزَّقة ودسَّ في فرْجِها الإجَّاصة اللَّعينة وأدار مفتاحها بقوة حتى كاد فَرْجُ المرأة أن ينفجر. ولم يتورَّع السَّخيف أن يُمرِّر أصابعَه الآثمةَ على شَفْرَي فرج المرأة. لم تملكِ المسكينة التي كانت تُنازِعُ الموتَ والعارَ إلا أن استجمعتْ حُشاشةَ روحِها فلفَظَتْها بُصاقاً في وجهِ الخبيث. لكن العِربيد وَجَدَ لذَّة عظمى في مَاءِ المرأة فمسحَ به على وجهه ثم ابتلعَ ما فَضَلَ منه في كفِّه النَّجسة. أخرج القَذِرُ الإجَّاصة من جديد ولَعَقَهَا، فتنفَّست المرأة نفَساً عميقاً وأخذتها شبه غيبوبة ثم دسَّها من جديد في فمها. لم تكن المسكينة تملك هذه المرة حولا ولا قوة فانهارت تماماً وفاضت روحها.

ـ لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. لم أستطع أن أقول شيئاً آخر. لقد عشتُ طويلا وسمعتُ عن قُطّاع الطرق واللصوص والمجرمين والأوباش وأهل الدَّعارة والفسوق، لكني لم أسمع عن هؤلاء الأَوَابِدِ الأَوْزَاع الذين يأتون الفاحشةَ جِهاراً نَهاراً أمام نُظرائِهم في حقّ امرأةٍ بريئةٍ طاهرة أبيّةٍ لا تملكُ حولا ولا قوة. فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. مَنِ استعْصَمَ بحبل الله هانتِ الدنيا في عينيه.

كنتُ مستعداً في هذه اللحظات أن ألقى الموت راضياً محتسِباً، فلستُ دون هذه المرأة الأبية ولا أفضلَ منها. بل لعلي لو خُيِّرتُ لَرَضِيتُ أن أموتَ دونَها وأفديها بروحي. لكنَّ صاحبي قاطعَ مُناجاتي قائلا:

ـ هُناك ألوان أخرى يا سيدي من العذاب التي كنت أشهدُها وأنا على تلك المِخلَعة الرَّهيبة. أشفقتُ على نفسي وأَنّبني ضميري الحيّ بأن ما ألقاهُ دون ما يَلقاهُ غيري. هل لأنهم قد ادَّخَرُوا أفضل ما لديهم للأخير. لعلَّه كذلك، فهذا أول يوم بدأوا فيه حِصَصَ تعذيبي. والآتي أَعْظمُ بلا شَكٍّ، وأسألُ اللهَ أن أَهْلِكَ قبل أن ينالوا من كرامتي. يا سيدي لقد رأيتُ آلةً أخرى رهيبة تفنَّنتْ يدٌ صَنَّاعٌ مجرمة في ابتكارها. لقد رأيتُ سجناءَ عُلِّقتْ على رؤوسهم أحمالٌ من الأثقال حتى ضاق تنفُّسهم وانكسرَتْ أعناقُهم. ورأيتُ مُتَّهماً مسلماً

أُجلِسَ على كرسي وقام أحدُ الأنذال فَأَحْكَمَ رَبْطَ يديه وشدَّ رجليه بحيث لا يستطيع الحركة. وتقدَّم واحدٌ من العصابة يحملُ دُهنَ خنزيرٍ طَلَى به قَدمَيْ المسكينِ من أخمَصِهما، وأشبَعَهُمَا دُهناً ثم أوقد ثالث ناراً تحت قدميه. فَلَكَ أن تُحَدِّثَ عن البَشاعة والوحشيَّة ولا حَرَجَ. فأيُّ صراخٍ هذا، وأيّ عويل، وأيُّ أنينٍ، وأيُّ أيٍّ؟ كَلَّ لساني عن وصف حال المسكين. لقد قُلِيَتْ رجلاه ونزلَ شَحْمُهُما مُذاباً مختلطاً مع دهن الخنزير.

ـ لقد نَصَبَ هؤلاء أنفسَهُم على كرسيِّ الألوهية وحكموا على الناس الأبرياء بالنار. ولا يحكمُ بذلك إلا الواحدُ القهّار بالعدل والاستِظهار.

ـ نعم، ثم رأيتُ لوناً آخرَ من ألوان التعذيب. أيْ نَعَمْ. رجلٌ وُضِعَ في تابوت سُمِّرَتْ في مُحيطه مساميرٌ تمنعُ مِنَ الحركة وتَخِزُ الجِلدَ بألم شديد. ثم رأيتُ أيضاً رجلا عُلِّقَتْ بخِصْيَتَيْهِ أَثْقَافٌ ثقيلة حتى لكأنها رؤوسَ الشياطين. ورأيت آخرين يُقْتَطَعُ لحمُهُمْ بكمَّاشات حامية تمنع الدَّم من السَّيلان تحت تأثير كَيِّ النَّار الملتهبة من الكمَّاشات ثم يُصَبُّ الرَّصاصُ على موضع القَطْعِ من الجِلد لمنع نزيف الدم. وهذه كلها فنون ابتدعوها لمراعاة مبدأ عدم إراقة الدم كما ذكرتُ لك.

ـ يكفي أيها الراهب لقد أفزعتني وأرعبتني بهذا الحديث الرَّهيب. يكفي، يكفي، أرجوك لا تُضِفْ شيئاً على ما قلتَ. لم أَعُدْ أُطيقُ أن أسمع المزيد.

ـ فماذا لو رأيتَ كما رأيتُ؟ ماذا كنتَ ستقولُ؟ بل ماذا كنتَ ستحكي؟ هل ستبقى مُصِراً على قولك أنَّ النُّطقَ خَصيصةٌ إنسانية، وأن الإنسان كائن ناطق؟

ـ نعم، لسبب واحد، وهو أن يُبَلِّغَ الشاهدُ الغائبَ. يجب أن نحكي ما جرى. يجب أن نبلِّغ عمَّا رأينا وسمعنا حتى لا ننسى وحتى لا ينسى من يأتي بعدَنا. الذاكرة هي التِّرياقُ الأعظمُ لكلِّ هذه الشرُّور الكبرى. فلو سَكتْنَا للأبد لَتكرَّرَ أمرُ هذه المآسي في مناطق أخرى وأزمنة آتية. يجب أيها الراهب أن نأتي بالشهادة على وجهها. فاحرصْ على أن تُبَلِّغْ. إحْكِ ما رأيتَ وما سمعتَ وما جرى لك ولهؤلاء المساكين إلى أبناء جلدتك من المسيحيين الذين يجهلون هذه الأقباءَ الجهنمية اللعينة. لا تَأنَفْ من ذلك مهما كلَّفك هذا الأمر من عذاب نفسي. أنا أعرف أن إعادةَ استحضارِ تلك اللَّوحات المُخزية ولو لِلَحَظَاتٍ أَمرٌ مُرعِبٌ ومُرهِقٌ. لكن لابُدَّ من ذلك. ليس من أجلنا نحن، بل من أجل من يأتي بعدنا. لقد أُمِرْنَا بالشَّهادة، فَلْنُؤَدِّهَا على وجهها. إنها سلاحُنا الأخير أمام الوحشية والشَّرّ.

ـ صدقتَ يا سيدي، بل دعني أناديك بِأَخِي. فنحن إخوان في الإنسانية منذ هذا اليوم.

ـ نعم، أنا أعترف لك بأننا إِخْوَةٌ في الإنسانية، بل إخوة في الإيمان. لا يجب أن نتركَ الناس تعتقدُ أن دين المسيح عليه السلام هو هذا الذي يمارسه هؤلاء الأشقياء. إنني أعتقد أنهم حُرِمُوا من الرحمة في حياتهم فاستيقظتْ فيهم نَوازِعُ الشَّرِّ الكامِنة في الإنسان.

لقد جَيَّشَهُمْ إبليس في حزب الشر والخطيئة العظمى. في هذا السجن وأمثاله يموت إنسان ويحيى إنسان. هذا هو قدَرُنا، وهذا هو سِرُّ التَّكليف الذي منحه الله للإنسان. وبموجب هذه القُدرة الفذَّة حَظِيَ الإنسان بشرف الإمامة والخلافة على سائر المخلوقات. خُلِقَ الإنسانُ من ظلمة ونور. والشَّقي من ترك ظلمَتَهُ تُغَطِّي نورَ فطرتِه. والسَّعيد من رَوَّضَ ظُلمَتَهُ فَاسْتَرَقَّهَا لأنوار حقيقتِه وفطرتِه. هذا هو سرُّ الاستخلاف يا أخي. وبهذا كان الإنسان هو المختصَرُ الشَّريفُ والمثَلُ الأعلى لهذا الكون وهذا الوجود. في هذا السجن حكاية طويلة عن **الحاء والميم، حاء الحياة، وميم الموت**. إنها القصة الأولى والأخيرة في تاريخ الإنسانية. إنها قصة حم **والحواميم**.

ـ نعم يا أخي، أَمْلأُ بها فمي وأَشْعُرُ بلذَّة عظيمةٍ أَنْسَتْنِي قُبْحَ هذه الشُّرور. في عِزِّ الظُّلمة تبدو بارقةُ الرَّحمة والأمل والإيمان. لقد وجدتُكَ يا أخي من آل مَعَنٍ، مُعيناً لي على إنسانيتي. لعلَّنا نختلفُ في صور إيماننا لكننا نتَّفق في أصل حقيقتنا. وهذا هو الدين القيم الحق.

ـ نعم يا أخي بمِلْءِ فَمِي أيضاً أُرَدِّدُ سِرَّ هذه الأخوَّة في البأساء لتحُلَّ بنا في الدار الآخرة تلك النَّعماءُ. هذا هو الدين القَيِّم. ﴿فطرةَ الله التي فَطَرَ الناسَ عليها لا تبديلَ لخلقِ الله﴾. نحن بقيَّةُ الإيمان وبقيَّةُ الرحمة والحُشاشةُ الأخيرة من **الحياة**، والشَّهادةُ على ما يجري تحت هذا القصر الذي لا يعلمُ أغلبُ رُوَّادِه أنَّ في قَعْرِه تَرْبُضُ نيرانُ **الموت**، وتلتهبُ نيرانُ الوحشيّة والشَّر. وهكذا هي جميع الأمور. هل

يملكُ كلُّ واحد أن يَنفُذَ من ظاهر الأشياء إلى باطنها ليعاينَ حقيقةَ كلِّ شيء؟ فلا بد من الشهادة، وتلك هي المزيَّة يا أخي. ولقد حان دوري لألقى العذاب من هؤلاء وَلْيُمَحِّصْني اللهُ لوجودي. إن خضوعَنا لهذا العذاب لدليلٌ على أن الحياةَ تستحِقُّ أن تُعاشَ بكلِّ لحظاتها وجُزئياتها وكلياتها. إنها جائزةٌ كبرى. ومِنْ دُونِها تُراقُ الدِّماء وتُزْهَقُ الأَنفُسُ للشَّهادة على أن اللهَ خَيرٌ مَحْضٌ. فلا بأسَ إن هَلَكْنَا دونَ أداءِ هذا الحَقّ الوُجودي.

* * *

توالتْ حصص العذاب على المهرطق المسيحي كاسيودورو دو لارينا. وفي آخر حصة بقي غائباً عن الوعي ثلاثة أيام وجسمُه ملتهب بالخُروق التي أحدثَتْها الأسْياخُ الملتهبة التي كان الجلادون يَشْوونَ بها ضحاياهم ويَنتَشونَ بِغَرْزِها وإخراجها بسرعة فائقة ثم إعادة غرزها مرة أخرى كما لو أن جسم ضحاياهم وسادة من قطن يعبثون بها. كان هذا النوع من التعذيب يدلُّ على حقارة هؤلاء وتدنِّيهم لرتبة دون الحيوان. ولما أفاق كاسيودورو من غيبوبته وجد ابن معن يضمِّد جراحَه بزيت الزيتون الذي كان يَحْصُلُ عليه خِلسَةً من حُرَّاسه المرتشين.

ـ لقد جرَّبوا عليّ يا صديقي كل أنواع العذاب ولم يبق لهم إلا أن يشنقوني ويحرقوني.

ـ ألا تظن أنهم ما يزالون يطمعون في أن تَدُلَّهم على جميع أتباع المعلم اللاهوتي مارتن لوثر في قشتالة؟

ـ إنها مسألة ثانوية الآن. لقد أوقفوا عربة كانت محمَّلة ببراميل النبيذ موجهة إلى أصحابنا، وفتَّشوها فوجدوا في قلب البراميل نسخاً من الإنجيل الذي ترجمتُهُ إلى القشتالية، بدل النبيذ. هدَّدوا سائق العربة وأمروه أن يسوقها إلى الحانة والفندق الذي تقصده. وكان أصحابنا هناك. فلما دخلت العربة خرجوا لإفراغ البراميل فقُبض عليهم جميعاً وزُجَّ بهم في أقبية السجن للتحقيق معهم. لقد حُسِمَ مصيري يا أخي.

ـ ثِقْ بالله يا كاسيودورو، فمهما حصل فقد أدَّيتَ رسالتك، فإن قتلوك فأنت أحد شهداء المسيحية. وهذه قضية يموت دونها الشرفاء.

ـ لم أعد أحتمل هذا العذاب يا أخي، وأُفضِّل أن أُحرقَ أو أُشنقَ أو غير ذلك بدل أن أتعرَّض لسوط النار والحديد، وبَغْضَاءِ الجلادين وقهرهم.

مرت أيام ثم أتى الجلادون إلى الزنزانة في وقت الضحى وأخذوا كاسيودورو الذي نظر إليَّ نظرةً أخيرة بحنان كبير ثم سالت من عينيه دمعة يائسة. بادلته النَّظر وسرى من سرِّي إلى سرِّه ما ينبغي أن يكون في مثل هذه اللحظات.

وبعد أيام وصل إلى علمي أنهم أخذوه إلى ساحة عمومية وتُلِيَتْ أمام الغوغاء عريضةٌ بالتُّهم الموجَّهة إليه وأكبرُها الخروجُ عن ملة المسيح وشقُّ عصا طاعة الكنيسة والبابا. كان الضجيج يملأ الساحةَ الكبرى، والجندُ في كلِّ مكان يراقبون حركةَ الحاضرين وفي أيديهم الحديد والنار. ولما بدأ القاضي يقرأ البيانات كانت العامّة الجَهْلاء

تقاطعه وتصرخ في وجه المتهم وتبصق في ناحيته وبعضهم يقذفه بما في يده. ثم أُضرِمتْ نار عظيمة وأُلقِيَ المسكينُ فيها حيّاً.

حزنتُ على فَقْدِ زميلي في الزنزانة وترحّمت عليه. لقد كنا نمثل جِذْوَةَ الحياة في قصر الموت. لم يكن يهمُّني متى سيحين دوري. فعادة ما يمضي القضاة وقتاً طويلا حتى يُحصوا جميع ممتلكات السجناء قبل أن يصدروا الحكم النهائي. **ألا إلى الله تصير الأمور.**

اللواء الرابع

حمَّ الأجلُ وحانَ الكتاب المبين. كان ابن معن غيرَ آبِهٍ بما ينتظره، فقد أدّى ما عليه وكانت ثِقتُه بالله كبيرةٌ. ولم تغادر الابتسامة فَاهُ رغم الشّدائد التي مرَّ منها والأهوال التي لحقت به وبأهل الأندلس. لكن هذه الابتسامة كانت حزينة للغاية، إنها أشبه بضَحْكة ممزوجة بالتّمرد والحَسْرة والحُزن والأمل واليأس، والمقاومة والإيمان. لم يستسلمْ لِقَدَره الحزين بل نظّم حياته داخل السجن وبقي مُواظباً على صلواته لا يُفَرِّطُ فيها. وكان بعض أهل الفساد يهزأون منه وهو مُصِرٌّ على تأدية واجبه، غارقٌ في التّسبيح والمناجاة، غير آبِهٍ بما يقولون. لم يكن تَقرعُ أذنيه هذه الأصوات النَّاتئة النَّقِمَة، بل كان يسمع صوتاً قريباً من داخله. كانت صلاته تطول لأنه كان يجد فيها لذّةً تُخرِجُه عن وحشة السِّجن ونَكَدِهِ.

تعلَّمَ السجناءُ مع الوقت أن يحترموا غُربةَ هذا الشيخ الهرِم صاحبِ الشَّيْبة المباركة، وإصرارَه على عبادته وسَط هذا اليأس القاتل، وانتقلت إليهم خيْرِيَّتُهُ شيئاً فشيئاً فصاروا يخدُمونَه ويُقدِّمونه ويستمعون إليه. وكان فيهم ولد الزِّنَى واليتيم وكل نماذج الإخفاق

الإنساني التي تتحوّل إلى شرٍّ قاتل إن لم تجدْ مَنْ يَأْخُذُ بها. قد تنشأ من الأرض العقيمة نبتة الحياة والأمل. من رأس ميم **الموت** ينفتح رَحِمُ حاء **الحياة**.

كان الشيخ عندما يخرج من صلواته ويعود إلى سجنه ورفاقه، يَجِدُهُمْ متطلّعين إليه مُستوهِبينَ منه الرَّحمةَ التي عدِمُوها في حياتهم، والنورَ الذي لم يَنْعَمُوا به في أيّامَ غفلتهم. لم يكن ابن معن يَبْخَلُ عليهم بتوجيهاته ونصائحه. وفاتَحَه كثيرون منهم ليُحدِّثهم عن دينه، فكان يفعل في يُسرٍ وسماحةٍ رأفةً بهم وإشفاقاً عليهم. كان هذا التَّحوُّل في حياة الشيخ أملا جديداً ورسالةً أخيرةً يودُّ أن يَبُثَّها في هؤلاء القوم. فَمِنَ الأرض النَّتِنَةِ المتعفِّنة تخرجُ نبتةٌ طاهرة وَوَرْدةٌ نَدِيَّة. هذه هي الرسالة الأخيرة لابن معن، سيعمل على تعليم هؤلاء السجناء مِمَّنْ عَدِمَ المحبة والمعرفةَ والإيمان والخير، الأملَ في الحياة.

كانت حياةُ السجن رتيبةً لا تَغَيُّر فيها سوى ما كان من هذه العلائق الإنسانية الرفيعة التي تتفجَّر من عمق الفساد وتخرج من أرض الشَّر والجريمة واليأس. كما كان يحدِّثُ الموريسكيين من أبناء جلدته عن تاريخهم المجيد في هذه الأرض ويعلِّمُهُمْ شيئاً من العربية التي مُنِعوا من التَّحدُّث بها حتى تلاشت من ألسنتهم ولَحِقَتْهُم العُجمة والرَّطانة. ولما كان يخاطبهم ببعض كلمات منها أو يقرأ عليهم الفاتحة أو بعض السُّور القصيرة كُنتَ ترى عُيونَهم تجري في صمت. هذه هي لغةُ الجنّة التي أراد المتعصِّبون اجْتِثَاثَهَا. ما أعجبَ

شأنَ هذه اللغة؟ إنَّ لكلماتها وقْعاً في النَّفْس والروح. إن الحديثَ بها عبادةٌ وتسبيحة من دون عبادة ولا تسبيح. هناك شيء من رائحة الجنة في هذه الأصوات. كان السجناء في ضراعة آسِرَةٍ حين تَفْتَرُ شفتا الشيخ ابن معن عن حديث أو حكمة أو غير ذلك. كيف حصل النسيان للسان؟ كيف نسي الناس لسان الجنة ولسان الوحي؟ لماذا تَبَلْبَلَتِ الألسن مرة أخرى؟ هل كُتِبَ لحادثةِ بابل أن تتكرر دائماً؟ لماذا يحاولون محو لسان السعادة؟ حرف واحد، كلمة واحدة من العربية تحمل من المعاني ما لا تحمله نصوص بكاملها في لغة هؤلاء. لقد أدركوا الفرق في الشحنة النورانية التي تصحب كل لفظة تقرع قلوبَهم قبل طَبْلاتِ آذانهم. كيف حصل كل هذا؟ إنها جريمة ضد المعاني قبل أن تكون ضد حاملي المباني. إن المدخلَ لقتل الروح العربية الإسلامية هي في فكّ الارتباط مع اللغة العربية. هذه هي الحيلة التي يلجأ إليها الضعفاء والظَّلمة. هذا هو السلاح الخطير الذي ابتكرته قشتالة. كيف كانت الأندلس مسلمةً ثم جاءتِ هذه النَّكسةُ بعد أكثر من ثمانية قرون من العطاء في كل نواحي الحياة؟ أسئلة كبيرة، كان الشيخ يجيب عليها مُتمسِّكاً بالرِّضا بما حكَمَ الله. لم يكن غاضباً مما قدَّره الله على عباده، لكنه في نفس الوقت كان يُنَبِّهُ مُخاطَبيه إلى أن العِبْرة تكمُن في الوعي بهذه التحولات وضرورة أن يختار الإنسان في لحظة من لحظات حياته أين يكون وإلى أي جِهة يريد أن ينتسب؟ وليس هناك نِسبةٌ أعظم ولا أسمى من النسبة إلى الإيمان وإلى الرحمة والحب والمعرفة. هذه هي النِّسبة الحقيقية

للإنسان، وما دونها فأوهام وانتماءات ضيِّقة وأغلال تُكبِّل الإنسان وتجعلُه دابّةً من الدّواب ووحشاً ضارياً يَفْتِكُ بإخوانه وبمن أُمِرَ أن يعيش بينهم ويُناصِحَهُمْ في الخير ويَدْفَعَ عنهمُ البأسَ والبلاءَ.

تعلَّم السُّجناء أن يتحدَّثوا في الحياة، كان هذا هو أعظم درس تعلَّموه، لم يكونوا يتكلَّمون من قبلُ إلا في نقيض الحياة، أي في الموت والقتل والشر. لكنهم اليوم تعلَّموا أن يصبحوا أُناساً بمسؤوليات حقيقية. وذلك هو الانتصار على الوحشية والخِسَّة والوضاعة التي تُرهِب المؤمنَ في محرابه والصبيَّ في لَعِبه والمرأةَ في بيتها، والحيوانَ والشجر في أرض الله الواسعة.

أصبحت الصلاة تُقام جماعةً في السجن بعد أن كان الشيخ يقوم بها بمفرده. وكان حرّاس السجن يتغاضون عن ذلك نظير ما يتلقونه من نقود من بعض أعيان الموريسكيين في الخارج ممن كانت له علاقات طيبة مع زعماء القشتاليين. كانوا مُستعدين للبيع والشراء في كل شيء. وتعلَّمَ الكثيرُ منهم الفاتحةَ وسوراً قصيرةً مثل الإخلاص والمعوذتين. لم يكن هذا الانتصار لدين على دين أو لملة على مِلَّة، بل كان انتصاراً للدين القيِّم الجامع، وانتصاراً للجميع على نوازع الشَّر في كل إنسان. كان اليهودي يصلي بصلاته للواحد الأحد، والمسيحي يصلي صلاتَه لذات الواحد، والمسلم يتوجَّه مُوحِّداً لله الواحد الأحد. تكلَّم ابن معن عن الأنبياء جميعاً بحُرمة بالغة. وتحدّث لهم عن نبي الله موسى، وقبْلَه عن نبي الله إبراهيم أب الأنبياء. وتكلّم عن السيد المسيح وأمّه مريم العذراء، التي كان

الموريسكيون يطلقون اسمها على كل بَناتهم تجنُّباً للمضايقة. كانت هذه السيدة ملاذاً لهم من وحشية محاكم التفتيش. كانت السيدة العذراء سيدةَ الجميع. واكتشف السجناء النصارى ما يُكِنُّه المسلمون لهذه السيدة وابنِها من المحبة والحُرمة وتقديس الجناب. أما السجناء اليهود فكانوا على علم بسماحة المسلمين بحكم مخالطتهم واندماجهم التام في الحضارة العربية الإسلامية.

أحد هؤلاء اليهود كان غرناطياً من عائلة ابن دنّان الغرناطي التي هاجر أفرادُها في غالبيتهم إلى فاس في المغرب. وكان يشتكي لابن معن وحدته دون عائلته، فكان الشيخ يُواسيه ويذكر له حالته هو أيضاً بعيداً عن أهله الذين رحلوا إلى فاس، وحفيده الذي أخذه المجاهدون السلاويون إلى مدينتهم.

* * *

بعد أن استوفت المحكمة تهييء محضر الاتهام ضد السجناء، أخذوا يرسلون في طلبهم واحداً تلو الآخر للتحقيق معهم في الجرائم التي نُسبت إليهم.

سِيقَ ابن معن إلى المحكمة وعُقدت له جلسة أولى يسمونها حلقة تحذير، الغرض منها انتزاع الاعتراف بما يسمونه الحقيقة، ويَعِدُونَهُ بالرأفة والخلاص إن هو اعترف بذنوبه وإلحاده.

كان الشيخ يعرف هذه المحاكم مما سمعه من تجارب زميله المهرطق وإخوانه الذين مرّوا من هذه التجربة وفرُّوا من مراكب التجديف التي كان يحكم على بعضهم أن يعمل فيها بدون مقابل

لمدة طويلة. فلما دخل وجد ثلاثة قساوسة يلبسون نفس اللباس، اثنان منهما نائبان والثالث عالم لاهوت. ثم هناك ممثل الادعاء وقاض يتولى تقييم العقارات والثروات المصادرة. كما كان لأعضاء المحكمة الخمسة مساعدون، من بينهم كاتب المحكمة الذي يسجل الاعترافات التي يدلي بها المتهم بعد التعذيب. وإضافة إلى أعضاء المحكمة، هناك لجان في كل قرية أو مدينة تتولى تنفيذ أوامر محكمة التفتيش وإلقاء القبض على المشتبهين.

وفي كل يوم كان المتهم يساق إلى المحكمة، ودامت تلك الجلسات ثلاثة أيام. وخلال الجلسة كان يُستقصى عن المتهم بمختلف الأسئلة عن اسمه ونسبه وقرابته وعمّا إذا كانت المحكمة قد قامت سابقاً بالتحقيق مع أحد من أفراد عائلته. وخلال هذه الجلسات يُرغمون المتهمين على قراءة وترتيل الصلاة الربانية والسلام على مريم أو صلاة الإيمان المسيحي.

كان ابن معن يرفض رفضاً قاطعاً أن يردِّد كل تلك الصلوات بل كان يختار منها بحسب نقاء عقيدتها من الشرك، فإن كانت تمجيداً للرب ردَّد خلفَ الكاهن بيُسر ودون تلعثم، وإن كان غيرَ ذلك مما قد يفصح صراحة عن عقائد الحلول والاتحاد والتثليث وما شابه ذلك، فإنه يتلعثم ويسعُل ويتظاهر بالتعب الشديد والعيّ والحَصَر. وقد كان بعض الفقهاء قد أفتوا للموريسكيين بمثل التقيّة الشيعية، وإظهار عكس ما يؤمنون به حفاظاً على حياتهم. وفي ختام الجلسة، يأمرونه برسم علامة الصليب، فكان يمسح على جبهته ويمرِّر كفّه

على قلبه وهو يتعوَّذ من ذلك، مُصانعاً لهم فيما يتوهّمون، مُدارياً لهم عما يعتقدُ في قرارة قلبه من الإيمان الراسخ الذي لا يزلزله شيء، ولا حتى هذه الشَّكليات التي كان مُستعِدّاً لأن يقوم بها ما دام أنه لا يحملها على نفس مَحامِلها عند جَلّادِيهِ. كان الشيخ على جانب من العلم بالله بحيث لم يكن يخشى على نفسِه الكفرَ بمسايرة هؤلاء في صُوَرِ عبادتهم. كان يقول لنفسه في هذه اللحظات، «الجسدُ في الحانوتِ والقلبُ في الملكوت». لم يكن يُكدِّر صَفْوَ إيمانه إشارةٌ هنا وكلمة هناك. الإيمان عقيدة راسخة كالجبال لا تَنْدَكُّ بحشرجة بعض الكهنة في إرغامه على ترديد ما يقولون. ومما كان يزيد في حَنَقِ ابن معن جهلُ جلاديه وضِيقُهم بكل ما يجهلون، لكنه لا يلبث أن يعود إلى رزانته. لم يكن لهم من العلم شيء، وبهم من الفضاضة والغلظة ما يُنَفِّر الماءَ الرَّاكدَ لِسِنينَ عن موضعه. لقد فتح الله له طريقاً من التَّعرف من خلال جهل هؤلاء بشؤون الألوهية.

بعد جلسات التَّحذير الثلاث، قام الادعاء بصياغة الدعوى ضد ابن معن. وَوُجِّهت إليه التُّهم التالية التي تلاها المُدَّعي أمام المحكمة:

المَدْعُوُّ فلان بن فلان ينتمي لجنس المسلمين، وبسبب حبه لأمة محمد الضَّارّة والملعونة، شارك مع المسلمين الثوار بمملكة غرناطة، ومع من قدِموا من البرابر في الحرب ضد المسيحيين. ولم يكتف بالتحريض بل كان يقودهم ويُؤَلِّبهم على أُمّة المسيح. وضُبِطَ المتهم وهو يجتهد في إقناع الكثير من القُرى الموريسكية كي تثور معه ومع

الآخرين. كما أسدى المتهم صنيعاً للمساعدة في أسر كثير من النصارى ورجال الدين المسيحي وسلَّمهم إلى المسلمين القراصنة من بَرِّ العُدوة. وبذلك أسهم في محاولة إبطال ديانتهم وتحويلهم عنها حيث تحوَّلوا إلى دين المسلمين.

كما شوهد المتهم يتفوَّه باعتقادات خاصة بملة محمد المذكورة ومارسها، وصار واحداً من علمائهم فيها. وضُبِطت في حوزته كتب بالعربية، تتضمن الكتاب المسمى عندهم بالقرآن.

كما أن المتهم كان يعتقد في مِلَّته الملعونة الخاطئة. وقد توضَّأ مراراً وصنع له حمَّاماً خاصاً في بيته وصلى على طريقة المسلمين وصام الصيام الذي يقولون عنه صيام رمضان، ممتنعاً عن الطعام والشراب حتى دخول الليل وطلوع النجوم، وأنه صلى بصلواتهم وقام بشعائر أخرى للملة المذكورة.

كما كان المتهم يحمل معه سرّاً عملة فضية عليها حروف ورموز باللغة العربية تقول: لا إله إلا الله، كما يقولها المسلمون مُنكرين أن يكون الله واحداً في الأصل وثلاثة في الأشخاص. ولقد جلب هٰذه العملة لأنه مسلم، وعادة لأن المسلمين يحملون أشياء مشبوهة كهذه. وكان مساعداً على الشر ومُتستِّراً على المرتدِّين لأنه لم يبلِّغ محكمة التفتيش عن الأشخاص المرتدين، وأنه حَنثَ مراراً عديدة في يمينه لأنه عندما كان يُسْأَلُ بعد القَسَم كان يقول: إنه لا يعرف. وكان يخفي الحقيقة. ويُعْتَقَدُ ويُتَوَقَّعُ أنه ارتكب الكثير من جرائم الإلحاد والرِّدة الأخرى.

وبناء على ما تقدم من الفظائع التي ارتكبها المتهم، يَطْلُبُ ممثّل الادعاء من المحكمة حكماً بالإعدام ومُصادرة جميع ممتلكاته.

رفع رئيس المحكمة الجلسة للتداول وحُدِّدَ موعدٌ آخر للدفاع. كان ابن معن يبتسم من هذه المهزلة التي يلعب أدوارَها أناسٌ نذروا في الأصل حياتَهم لعبادة الله، ثم تحوَّلوا إلى جلادين يدفعون بالناس إلى حِياض الموت، ويُضَيِّقون عليهم في عقائدهم.

أُودِع المتهم في سجنه مرة ثانية وجلس يفكّر في هذا الذي يحدث وكيف يحدث؟ لم يكن مثل هذا قبل قرون خلت في هذه البلاد. لم يَسْعَ ملوك المسلمين ولا وُلاتهم أن يُرغِموا النصارى أو اليهود على استبدال دينهم. قد تكونُ حصلتْ بعضُ المناوشات هنا وهناك مما هو من طبيعة العُمران في الأرض وسُنَّة التَّدافع التي تحدث بين الخلق، لكن لم يحدثْ أن سلَكت الدولة سياسةَ أسلمةِ النَّصارى أو اليهود قسراً أو تعذيبِهم على ذلك. لقد بقي هؤلاء وأولئك على دينهم، وكنائسُهُم تقرَعُ أجراسَها، ومحاكمِهُم تؤدي وظائفَها في أَنْحِكَتِهِمْ وأمور دينهم ودنياهم. وقد سلك المسلمون نفس السيرة في كل مكان حكموه. لكن لماذا بُدِّلتِ الأرضُ غيرَ الأرضِ وحَلَّ أُناسٌ محلَّ أُناسٍ؟ لماذا حلَّتِ النِّقمةُ بدلَ النِّعمةِ؟ لماذا استساغ الجاهل أن ينقِمَ على العالِم وأن يقهقهَ في وجهه بسخرية وقِحَة؟

كانت الأجوبة عن هذه الأسئلة الوجودية صعبةً، إذ سرعان ما يُصابُ الإنسانُ باليأس من الإنسان، وتتحرَّكُ فيه دواعي الشَّر

والانتقام. إن القرآن يخبرنا هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ إِلاَّ الإِحْسَانُفأين هو الإحسان في صنيع هؤلاء الجلاّدين والملوك والأمراء ورجال الدين؟ لقد كانت الأندلس تعيش في غَيابات الجهل والتّخلف كسائر نَظيراتها من الأمم المسيحية. وجاء المسلمون فنشروا العلم والأدب والحضارة. أناروا الطرقات ليلا ورصّصُوا الشوارع والأزقة واستحدثوا بريداً عصرياً، ونظّموا جميع مرافق الحياة ووصلتْ شبكةُ الماء المُعجزة إلى كل زُقاق وبيت. وأنشأوا المطاحن والحمّامات، حتى صار لكل حي مسجده وحمّامُه وفرنُه. النظافة في كل مكان، والبيوت مطلية بالجير الأبيض، المتناغم مع لون الطين على القصور والقلاع والأسوار. وزرعوا الأرض بشتى الفواكه والأطايب والأفاويه. كانت الحياة تضجُّ في كل مكان بالخير والحرية والسماحة والتّرف. فأين كل هذا؟

لم تكن هذه الأسئلة من ابن معن نفسه تبرُماً من هذا القَدَر بِقَدْر ما كانت فضولا لفهم حِكمة الله في الخلق والكون. لماذا هذا التبدُّل؟ وسرعان ما يقول الشيخ لنفسه كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍالحياة لا تتقدم إلا لتتأخر، ولا تتأخر إلا لتتقدم. إنها محكومة بهذا الجَزْرِ والمدِّ كحركة البحر، لا يمكن أن تنفكّ عن ذلك. المدينة الفاضلة لا توجد إلا في عقول الفلاسفة وقلوبهم. هي الأمل في التغيير، هي الشّرارة والسّراج، والضمير الحي اليَقِظُ الذي يُنيرُ الدّربَ للوصول، إن كان ثمّة وصول. هذه الدار دار تكليف، وهي لذلك مطبوعة بسِرّه، والتكليف يقتضي الفعلَ أو الترك، والفعلُ إما على مقتضى

الأمر أو بخلافه. وهذا وذاك يستوجب الوعد والوعيد، ويتبع كل ذلك الجزاء أو العقاب. هذه هي سُنَّة الحياة. فلماذا الثورة ولماذا الغضب ولماذا التساؤل؟

لم يكن ابن معن غاضباً على جلاديه، بل كان يعذُرُهُمْ لجهلهم بقانون الكون وقانون الحياة وقانون الدين. لم يكن الدينُ عند الجلادين سوى صورة للدين. وكان الشيخ يعرف أن الصورة تعني وجود صور أخرى مكمِّلة أو مناقضة أو مُبطِلة. ومن كل الصور تتأسس اعتقادات الناس حول الدين. ولو لم يكن كذلك لما عُرِفَتِ الألوهية. فالله مطلق عن جميع الصور والعقائد كيفما كانت. طبعاً يجب التمييز بين صورة قريبة وصورة بعيدة. أو لنقل بين صورة معتقد صحيحة وأخرى فاسدة. لكن الخير والإحساس بالدين والتدين شيء واحد، والله يحاسب على مثل هذا أساساً لأن موطن النيَّة هو في هذا الاعتقاد الباطني الخير. لقد قال نبي الإسلام «اللهم إيماناً كإيمان العجائز» يشير بذلك إلى قرب الألوهية من قلوبهن وكمال عبوديتهن وافتقارهن. وهذا هو الإيمان وليس كما يعتقد علماء الكلام بتقسيماتهم العقلية، على ضرورتها. فإذا لم تُنْتِجْ لهم تحوُّلا وزيادةً في الإيمان فلا جدوى منها. والعجوز على جهلها بتلك التقسيمات، للحقِّ في قلبها من الحب والهيبة ما ليس عند كبار العقلاء.

ولحسن الحظ أن الإيمان لا يتفاضل فيه الناس بحسب حِذْقِهِمْ للتقسيمات العقلية بل من حيث درجة الإخلاص. كان ابن معن يعذُرُ

القساوسة والكهنة الذين كانوا يحاكمونه. ويرى أن صَلَفَهُمْ وغِلظتهم هي من اعتقادهم الفاسد في أن الدين يأمرهم بنسخ صورة اعتقادهم في جميع القلوب. إنهم يؤمنون بصورة واحدة للمعتقد. ولو علموا لحظة واحدة أن الحقائقَ هي بِعَدَدِ أَنْفَاسِ الخلائق لَضَجُوا من نمطِيَّة العقيدة التي لا تفسح لغيرها مجالا. فالدافع عندهم شُحنَةٌ إيمانية موجَّهة في غير مَصارِفِهَا الحقَّة. هَلَّا شَقُّوا على قلوب كل الناس حتى يتبيَّنوا الصحيح من الفاسد؟ ومن أعطاهم هذا الحق؟ أليس الحق قائماً بكل الخلق؟ فمتى ما تم التسليم بهذه الحقيقة ﴿وَهُوَ القَائِمُ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ عُدِمَ الإنكار. لماذا يُنْكِرُ البعضُ على الآخر قيامَ صورةٍ للحقِّ ليست من جنس الصورة القائمة بذلك المُنْكِرِ؟ من هنا منشأ الخطأ والغلط والفساد. إذِ الله يقبَلُ مِنْ عباده ما يستطيعون بشرط الإخلاص والتَّوَجُّه بالقصد إليه. وقد أرسل الرسلَ للإخبار عن طريق النجاة. لعل من أكبر الفروق بين القوانين الإلهية والقوانين الإنسانية، أن الإنسان أمام هذه الأخيرة غيرُ معذور بجهلها، لكنه في القوانين الإلهية معذور، ومقبولٌ منه أن يقولَ بأنه لم يَصِلْهُ الخبرُ ولم يطَّلِعْ عليه والشُّهُودُ على ذلك منه، إذ جوارحه تشهد له أو عليه. وفي هذا المَائِزِ تتجلَّى الفروقُ بين الرحمة الإلهية والغطرسة الإنسانية. لا يستطيع الناس في مجتمعاتهم أن يفرضوا قوانينهم إلا بحد العنف حتى في حال جهلها وعدم العِلم بها، بينما الأمر بخلاف ذلك في المملكة الإلهية، إذ المرء معذور حتى في اقترافه للذنوب والكبائر والجرائم، وقد يُغفَر له إذا تاب منها وأقلع

عنها. هناك دائماً أمل في الحياة والمغفرة والرحمة.

مرّت شهور وابن معن في سجنه، وكانت العادة في محاكم التفتيش أن تطول بلا نهاية حتى استخلاص جميع الممتلكات التي تُصادَر إلى الملك والكنيسة. لقد اغتنى الملوك والكهنة ورجال الدين من هذه المحاكمات بشكل فاحش. لم يكن الوازعُ الأول إقامةَ الحجة وطلبَ الخلاص للموريسكيين كما كانوا يزعمون، بل الغرض الأساس هو مصادرة جميع الممتلكات. وغالباً ما كان المتهمون ينكرون وجود ممتلكات لهم مخافة أن لا يبقى في يدهم أو لعوائلهم ميراث.

وخلال تلك الجلسات كانت تثور بعض السجالات حول الدين المسيحي والإسلامي. ومرة استدعي ابن معن وقد حشدوا له خيرة كهنتهم ليجادلوه في دينه وليردُّوه إلى الصواب كما كانوا يزعمون. فقال له أحدهم: سمعنا أنكم معاشر المسلمين لا تشربون الخمر، فلماذا منع نبيكم من ذلك؟

ـ منعه الله تعالى في كتابه العزيز ومنعه نبيه نقلا عن ربه لسبب وجيه. هل تقرون معي أن أفضل ما تكرّم به الله على بني آدم هو العقل؟

ـ بلى.

ـ هل تُقِرّون بأن الخمر يذهب بالعقل؟

ـ بلى، وهو كذلك عندنا معاشر أتباع المسيح. فنحن لا نُقِرُّ أن يشرب منه المرء حتى يسكر.

ـ يظهر لي أنه ممنوع عندكم أيضاً كما ورد في الإنجيل، لكنكم لم تتنبّهوا لنصّ المنع.

ـ في أي موضع رأيتَ هذا المنع، ونحن أعرفُ بكتابنا منك؟

ـ إنه في الدعاء الذي أمركم به سيدنا عيسى عليه السلام أن تدعوا به، وأوله: وإذ قال الحواريون للمسيح، علّمنا صلاةً ترضي ربَّ العالمين. قال فارفعوا إلى العلياء قلوبكم ولا ترددوا كلامكم كالمنافقين...: **أبانا** الذي في السماء ليتقدَّسْ اسمُك لِيَأْتِ ملكوتُك، لتكنْ مشيئتك إلى أبد الآبدين. كما في السماء كذلك على الأرض في كل مكان وفي كل حين.. واغفر لنا ذنوبنا يا أرحم الراحمين، كما نغفرُ نحن لمن كانوا بحقّنا مخطئين. ربنا ولا تدعنا نقع عند فتنة النفس، إنّا بك نستعين».

ونحن معاشر المسلمين نعتقد أنكم استبدلتم لفظةَ **أبانا** بسبب الترجمة المتكررة عن النص الأول، والأصل ربنا. وهذا من تأثير الرومان واليونان عليكم، إذ إنهم يعتبرون أنفسهم أبناء للآلهة. وقد نشأ دينكم في الأمبراطورية الرومانية وترجمت كتبكم المقدسة إلى تلك اللغات فَسَرَتْ تلك الدلالات إليكم. وقد روي أن نبينا ﷺ كان يُعلّم أصحابه فيقول: «من اشتكى منكم أو اشتكى أخ له فليقل: **ربنا** الله الذي في السماء تقدّس اسمك، أمرك في السماء والأرض، كما رَحْمَتُكَ في السماء، إِغْفِرْ لنا حَوْبَنَا وخطايانا، أنت ربُّ الطيبين، أنزلْ رحمةً وشفاءً من شفائك على هذا الوجع، فيبرأ».

ثم أضاف ابن معن قائلا: هل يجوزُ أن تأخذَ الفتنةَ بيدكَ وتطلبَ

من ربّك أن لا يدْعكَ تقعُ عندها؟ فأنت إذا زدتَ من الخمر قليلا عن العادة يذهبُ العقل، وإذا ذهبَ وقعتَ في الفتن مع طلبكَ اللهَ أن لا يدعكَ تقعُ فيها.

ـ نحن نتحفظُ في شربنا حتى لا يذهبَ بالعقل.

ـ إذا كنتم من أهل الإنصاف، هل تُقرُّون أنه لم يسبق لكم أن زدتم على القَدْرِ الذي يذهبُ بالعقل؟

تكلَّم الكهنة فيما بينهم وتضاحكوا لأنهم علِموا أنهم كثيراً ما عربدوا واغتال السكرُ عقولَهم ووقعوا في الفِتن العظيمة فاستحلُّوا الفُروجَ واغتصبوا الصَّبايا ولاَطُوا بالفتيان. وعلِموا الحقَّ من نفوسهم لكنهم لم يُقِرُّوا به أمام ابن معن.

ثم التفتَ إلى ابن معن كاهنٌ آخر، وقال له: قل لي، كيف أباح لكم نبيكم أن تنكحوا أربع نساء، ومنعكم من الخمر؟

ـ المفهوم من سؤالك يا غبطةَ الكاهن أنك تريد أن تقول أن الخمر يزيد في شهوة الجماع ونبيُّنا نهانا عنه مع أنه أمرنا باتخاذ أربع نساء، ففي هذا تناقض صارخ. فأقول، أما عن الخمر فليس مُقوّياً على الجِماع، بل إنه مُفَتِّرٌ له كما أكَّد ذلك أطباء المسلمين. وكثير من الناس يخطئ في هذا، لأنه يخلط بين الجَرَاءَةِ على طلب الجِماع الذي يدفع إليه السكر، والقدرة الفعلية عليه. وهما أمران متباينان. فالخمر ترفعُ لثامَ الحياء عن شاربها فيطلبُ المرأة، لكن ما أن يختلي بها لقضاء الوَطَرِ حتى يفشلَ ويأخذَه النومُ فيغطُّ غَطيطاً. أما عن الحكمة في الزواج بأربع نساء فَلَهُ شروط لمن رغب في ذلك وكانت

له الاستطاعة وراعى حقوقَ زوجاته. وشرحُ بيانه يطول، لكنه موجود عندكم أيضاً. فقد قرأتُ في الإنجيل «أن مَلَكاً جاء مرسلا إلى نبي الله زكريا عليه السلام، وقال له: قد قبِلَ الله دعاءَك، وامرأتُك إليزابيث تلد لك ابناً يدعى باسمه يوحنّا، ويكون لك فرح عظيم وتهليل كثير، وتفرحون بمولده. ويكون عظيماً أمام الرب ولا يشرب خمراً ولا مسكراً.» فهل تُقِرُّونَ بوجود هذا النص في الإنجيل؟

- نعم، هكذا هو.

- وهذا الذي أخبر به الملَك من عند الله، أنه لا يشرب خمراً ولا مسكراً، هل هو كمال في حق الولد أم نقصان؟

- إنما ذلك كمال فيه.

- كذلك هو كمال في ديننا فلا نشرب خمراً ولامسكراً.

ثم قام أحدهم مرة أخرى وقال:

- كيف أباح لكم نبيكم أن تنكحوا أربع نساء، والله سبحانه وتعالى لم يعط لأبينا آدم عليه السلام إلا امرأة واحدة، هي سيدتنا حواء؟

- لقد ظهر في أمنا حواء بركة أكثر مما يظهر في أربع نساء من زماننا. وهذه البركة هي السر في أن الله رزقها ذرية كبيرة جداً مما لا تستطيعه نساء زماننا. ناهيك أن بعضهن قد تكون مريضة أو عقيمة.

- لكن سيدنا عيسى عليه السلام أمر أن لا نتزوج إلا امرأة واحدة؟

- هذا شرعكم ولكم الحق فيه ولا تُلزِمونا به، ولنا شرعنا ولا

نلزمكم به. ثم أقول لكم: ما قولكم في أنبياء الله إبراهيم ويعقوب عليهما السلام؟

ـ هم مَرْضِيُّون عندنا.

ـ فكيف تُجَوِّزون أنهم كانوا متزوجين من عدة نساء. ناهيك عن سيدنا سليمان، فقد كان له نساء كثيرات كما ورد في التوراة.

ـ كان ذلك مباحاً في ذلك الزمان لتكثير النسل وعمارة الأرض. أما اليوم فلا حاجة لذلك بعد أن عمرت الأرض.

ـ قد تعود الأرض إلى الخراب بفعل الأوبئة والأمراض والحروب. كما أنني قرأت في كتب التواريخ من التوارة أن الملوك والسلاطين في تلك العهود كانوا يحرِّكون جيوشاً بثمانمائة ألف رجل، فأينِ في الدنيا مَلِك يجمع مثل هذا الجيش اليوم. وهذا دليل على أن الأرض كانت عامرة. وحتى السلطان العثماني اليوم لا يستطيع ذلك، وهو أكبر سلطان على وجه الأرض. ثم أجيبوني لماذا منعتم أنفسكم من الزواج واتخاذ الصاحبة، وجعلتم للرب ابنا وصاحبة؟

ـ لستَ أنت من يسأل، فنحن لم نكمل بعدُ معَكَ.

ثم انتقلوا بي إلى سؤال آخر.

ـ ولحم الخنزير، لماذا هو ممنوع في دينكم؟ الذين كانوا يحاكمونه. بة ما ليس عند كبار العلماء. وجميع أغراضهن. د الباطني. الماء إلى كل زقاق وبي

ـ لأنه نجس ولا يأكل إلا النجاسات، وهو ممنوع عندكم كما ورد في الإنجيل.

ـ ليس بممنوع، وأين المنع في الإنجيل، فنحن لم نجد آية على ذلك؟

ـ ألم تسمعوا بقصة يسوع مع مَجْنُونَيْ المقابر اللَّذَيْن كانا يمنعان الناس من عبور المقبرة. وأمرهما المسيح بمغادرتها فطلبا منه أن يخرجا إلى قطيع خنازير، فَأَذِنَ لهما. فلما دخلا في القطيع وثب الخنازير على جُرْفٍ ووقعوا في البحر وماتوا جميعاً. وكانوا في نحو الألفين. فهل ترضون أن يكون سيدنا عيسى سبباً في خسارة كل هذا العدد من الخنازير إن كان فيها نفع؟

ـ سيدنا المسيح أرأفُ من أن يفعلَ ذلك. أما عن كونهم ألفين، فلا نعتقد ذلك

ـ إذا لم يكن حاله كما تقولون، وهو كذلك، فلأنه كان يعلم أن الخنازير حرام. ولو كانت من المواشي المباح أكلها لما سمح للمجنونَين بالدخول في ذلك القطيع وإتلافه. وأما عن العدد فانظروا في الفصل الخامس من إنجيل مرقس.

ثم إنهم نظروا في الموضع المخصوص فوجدوا العدد كما ذكرتُ. كان قد مضى وقت طويل في هذا الجدال، فلما أعيتهم الحيلة، وغُلِبُوا على أمرهم صرفوني إلى سجني وقاموا من مجلسهم.

عاد ابن معن إلى زنزانته السرية وشبَّك يديه مفكراً في حاله وحال أهل بلده. لقد رحل جميع أقاربه إلى فاس، وبقي معه واحد من أبنائه متزوج من قشتالية مسلمة رزق منها بولد. ثم استعرض كيف قتل ولده في الثورة وأُجبرت زوجتُه على الرجوع إلى المسيحية

لكنها لم تحتمل فراق زوجها فماتت بعده بقليل. ثم كيف هرب مع حفيده بعد موت ولده وخوفه عليه من التنصير.

ومن مباهجه الكبرى في السجن ما بلغه من أحد الموريسكيين الأثرياء المتنفذين الذي كان يقدم رشاوي لحراس السجن حتى يوصل ما يشاء من معلومات إلى السجناء. فقد أوصل رسالة بعث بها أحد أولاده الذي يتزعم أسرة ابن معن الذين هاجروا إلى فاس. أخذ الشيخ الرسالة وطالع ما فيها عن أحوال البلاد والعباد والأهل والأولاد. وكلها أخبار سارة، فقد رَاشَ حالُ الأسرة في فاس. كما رزق ابنه محمد كاتب الرسالة بولد سماه محمداً في هذه السنة. وقد حدثت عند ولادته علامات وبشارات. أدخلت هذه الرسالة المقتضبة سروراً عظيماً على الشيخ ابن معن. ثم أغمض عينيه وأخذ يستدعي ذكرياته وهو يركض في منتزهات غرناطة وجبل شِلِير. كانت الحياة جميلة هادئة، يقضيها بين اللعب ودراسة العلم والتجارة فيما بعد ذلك، إلى أن كان ما كان مما يُحيله العقل والبرهان. اضطرب صدره وأخذته حشرجة وجاش بأحاسيس فياضة فزفر زفرات عميقة حارة لهذا القهر الذي لقيه من نصارى الإسبان. ثم فتح فمه واستنشق هواء بارداً آتياً من تلك السراديب المظلمة، لكنه تخيَّل أنه نسيمٌ من تلك الربى التي كان يرتع فيها في صغره بين الماء والأشجار. إنه نسيم الحرية، وتذكَّر غِناءَ زوجته له في تلك الرُّبى أيام الصِّبَى والغَزَل. ثم تذكَّر قبل ذلك تهليلَ أمه له وهو مَحْمُوم جرَّاء لَفْحَةِ شمسٍ تعرَّض لها، وتذكَّر والدَه وهو يُقرِئه العلم ويعلِّمه أصولَ التجارة والعناية بالأرض.

رفع يده ثم مسح عَبْرَةً مُستَرْسِلَةً خطَّت طريقَها على خدِّه المتجعِّد. يمكن أن يكون أيّ واحدٍ ممَّن معه يتجسس عليه وينقل أخبارَه إلى جلاديه. وسيستجوبونه ثم سيعذبونه لانتزاع معلومات يريدون سماعها. وليكن كل ذلك، فما قيمة الحياة بدون حرية. وليكن، فقد اطمأن الآن على أسرته. ثم قال يخاطب نفسه، إن أرادوا صلبي، فَلأُقدِّمْ لهم شِلْوِي قُرباناً يُهمهِمونَ عليه بعض هَمْهماتِ الكُهَّان ويزدادون قسوةً على قسوةٍ. ﴿آاللهُ أَمَرَكُمْ بهذا أَمْ عَلَى اللهِ تَفْتَرُونَ﴾. لقد خسرَ كلَّ شيء، وصادروا ماضيه وحاضره. وها هو غريب بين الغرباء مع قوم غرباء في أرض غريبة. لعلَّه من أرض أخرى، بل لم يعد يدري، هل هو من مكان ما. اختلَطتْ حواسُّه ومداركه. كل ما بقي له هو الذكريات، بل لم يعد متأكداً حتى أنها ذكريات حَصَلَتْ. لقد سرقوا منه حقَّ الذكرى. لقد شكَّكوا في وجوده ووجودِ شعبه كأناس عاشوا هنا منذ تسعمائة سنة. بل إنهم دائماً كانوا يعيشون على هذه الأرض. لم يكن عدد العرب والبربر الذين جاؤوا من المغرب كثيراً. إنما اختلطوا بأهل البلاد من القشتاليين الذين أسلموا عن طواعية وكانوا يؤدون الجزية عن أنفسهم، والخراج عن غَلاّت أرضهم. وكل ذلك بحسب يَسَار كل واحد. فالأغنياء يدفعون ثمانية وأربعين درهماً للفرد. ومَنْ دُونَهُم نصفُ هذا المبلغ. ومن دونهم نصف هذا النصف. ومن ليس له مورد معفي من الأداء. أما غلات الأرض فكانت تقدَّر بالثُّلث أو الرُّبع حسب السنوات والخِصب والنَّماء. فإن لم يكن كذلك وأجدبت

الأرض أُسقِط الدَّفع. لم تكن هذه سياسة جائرةً لأن المسلمين كانوا يدفعون هم أيضاً الحقوقَ المترتِّبة عليهم. عاش الجميع في سلم وأمان وحرية وذكاء، ونهضت حضارة من أعرق حضارت الدنيا، إلى أن جاء الأوباش ونَقِموا على من كان يعيش على هذه الأرض أَوْجُهَ عيشهم وطريقةَ حياتهم.

لن يستطيع هؤلاء القساوسة المحققون أن ينتزعوا منه هذه الذكريات حتى وهي تتفلَّت منه اليوم. ولن يسكتَ فخواطرُه تحاصره وتدعوه إلى التَّمرُّد. لقد قرَّرَ أن يبقى وترك أُسرَتَهُ ترحل إلى المغرب ليبقى وفِيّاً لآبائه وأجداده ووصيَّةِ جدِّه يعقوب المنصور الموحدي. إنه منصورُ عصره وموحِّدُ زمانه. لقد رأى ما حلَّ بأهل بلده من تقتيل وترويع ووحشية. وليكن، سيشنقوه خنقاً أو يحرقوه كالحطب للتكفير عن خطاياهم ولتنقية الأرض من أرجاس هذا الدين كما يزعمون. فليهنأوا بدينهم الذي يدعوهم إلى مثل هذا. لعله كذلك، ثم لا يلبث أن يعود إلى حكمته. لقد ظن هؤلاء البُلْه أن الألوهية لهم وحدهم، وتنحصر في أفهامهم. أليس التنوع دليلا على عظمة الحق؟ إنهم جعلوا من المسيحية هذا الدين الوحشي القاتل. أهكذا كان يعامل السيد المسيح خصومه؟ شتّان بين حياة المسيح وحياة هؤلاء. لقد كان زاهداً فقيراً مؤثراً رحيماً عطوفاً، وهؤلاء أثرياء أغنياء غلاظ شداد سلَبوا الفقراء أموالهم ووضعوها في كنائسهم. أهذا هو بيت الله الذي يعبد فيه؟ معاذ الله أن يتحوَّل بيت من بيوت الله إلى موضع لكنز الثروات. ثم انظر إليهم، يستحلُّون فروج النساء اللواتي يأتين

للاعتراف بذنوبهن، فيتظاهرون بمنحهن الخلاص، ويضاجعونهن مُدَّعين أنهن حصلن على رضى الرب والسيد المسيح. أما الأطفال فكانوا ضحايا شبق القساوسة الذين حوّلوا كثيراً من الكنائس إلى أوكار للواط والدعارة.

كانت نبرة الغضب والانتقام تجاور نبرة الرضا والتسليم في خواطر ابن معن المتشاكسة. لكنه كان مصمّماً على المقاومة انتصاراً لدينه الذي لم يَدْعُهُ يوماً أن يُرغِمَ الناسَ على تغيير دينهم وتحويل قبلة وجوههم عن معبودهم كيفما كان ذلك المعبود. لقد استمرَّت الثورة الأخيرة ثلاث سنوات كانت من أشقى وأتعس أيام الرب على وجه الأرض. ولعل تعاسات وشناعات أخرى ارْتُكِبتْ في بلاد أخرى، لكن وقوعَها في هذه البلاد كان شيئاً آخر لا يقاس عليه في الوحشية. إن الأندلس هي أرض الميعاد باللقاء. هي أرض البشارة والأنموذج الأعلى في تعايش الإنسان مهما اختلفت مشاربه وعقائده وأعراقه وألسنته. لم يكن الحكام الجدد لهذه البلاد يستحقون الاحترام لأنهم خانوا العهود بعدما أعطوا أماناً على أمان. لقد كانوا ينقضون عهودَهم نقضاً، واحداً تلو الآخر. لقد عجزتْ إيزابيلا من قبل أن تدخل غرناطة بحدِّ السيف فدخلتها بالمكر والكذب والغدر. لقد أعطت الأمان، ولعلها كانت في باطنها تعطي الأمان لمن هو على دينها رغم ما التزمتْ به.

حُدِّدتِ المحاكمة واقْتِيدَ ابن معن أمام المحكمة التي ضمَّت مجموعة أخرى من المتهمين. فبدأ القساوسة بصلواتهم ودعوا

المتهمين إلى الإنشاد لكن أيا منهم لم ينشد بل التزموا الصمت ومنهم من كان يهمهم بشفتيه مردِّداً بضع آيات كان يحفظها.

بعد الصلوات، نادى المدعي على أحد المتهمين وقرأ عليه محضر الاتهام والحكم النافذ في حقه.

باسم المسيحية:

قمنا نحن قضاة محكمة التفتيش عن جرائم الإلحاد الضار والردة في مدن وأبرشيات وأسقفية غرناطة وضواحيها، وبتخويل من السلطة البابوية المقدسة، بالنظر في الدعوى المرفوعة والقضية الجنائية المتعلقة أمامنا بطرفين. يمثل الطرف الأول فيها عالم اللاهوت دْيِيغُو كَاسْتِيُّو، النائب العمومي بمحكمة التفتيش هذه وممثل الادعاء. ويمثل الطرف الآخر المتهم المدافع خوان الموريسكي، من سكان ومواليد أبرشية وادي آش التابعة لأسقفية غرناطة، الماثل أمامنا بعد أن سيق من سجنه السري التابع لمحكمة التفتيش هذه. المتهم مُعَمَّدٌ تامّ التَّعميد ومتمتِّع بكافة الحقوق التي يتمتع بها المسيحيون الكاثوليك. وعلى الرغم من نشأته بينهم وتربيته على عقيدتنا الكاثوليكية المقدسة إلا أنه استخفَّ بديننا وارتدَّ عن عقيدتنا، وألحق بنفسه وسرِّه أعظمَ الضرر. ويُعَدُّ مثالا سيئاً لإخوانه من قطيع المسيحيين. لقد ارتدَّ وتحوَّل إلى مِلَّة محمد الملعونة التي عليها أمثاله من المسلمين وظل عليها لأكثر من ثلاثين سنة وما زال عليها حتى الآن معتقداً أنها الأصلح لخلاصه. وبعد أن بلغ اثني عشر سنة علَّمه أقاربه كيفية الصلاة والصوم كما يمارسها أتباع هذا الدين

الملعون. كما كان يتصل بالمسلمين ويساعدهم ويمتنع عن أكل الخنزير وشرب الخمور ولم يفعل ذلك أبداً. وقد بلَّغ عنه أحد جيرانه الكاثوليك أنه استدعاه يوماً لبيته وناوله بيضاً مقلياً. ولما انتهيا من الأكل أخبره الجار بأن امرأته صنعت لهما هذا الطعام من زيت الخنزير، فتغيَّر لونُه وقام مسرعاً إلى الخلاء ووضع أصبعيه في فمه فَقَاءَ ما أكلَ حتى كادت تخرجُ أمعاؤه. أخذ الجار يتعجَّب من فعله لكنه أدرك بعد مدة أنه مسلم. وأكَّد جزَّارُ البلدة أنه لم يشتر منه لحماً قطُّ لأنهم لا يأكلون إلا اللحوم المذبوحة على وفق دينهم مُصَفَّاةً من دمها. وكان عادة ما يشتري الدجاج الحيَّ ويذبحه بنفسه خُفْيَةً في بيته.

ثم أخبرت زوجة الجار عن زوجة المتهم أنها رأتها مرَّة تصعد سُلَّماً فَانكسرت إحدى أدراجه وكادت أن تسقط فصرخت المرأة ونادت باسم: محمد. كما أنها كانت تستعمل زيت الزيتون على خلاف عادة القشتاليين في استعمال زيت الخنزير لطهو مأكولاتهم.

وقد دُوِّنَتْ أقوال الشهود في المحضر. كما كان يأكل اللحم يوم الجمعة ويوم أربعاء الرَّماد من أعياد المسيحيين. كما اعترف المتهم بأنه تزوج على طريقة المسلمين. وكان يتوضأ قبل معاشرته لزوجته. وأنهما بناء على هذا كانا يعيشان علاقة جنسية محرَّمة تتنافى مع الوصية السادسة، بل هي كفر وإلحاد. ولما رزقه الله بولد أتى به إلى الكنيسة للتعميد، لكنه لما عاد به مع زوجته إلى بيته دخلت عليها جارتهما بغتة فوجدت الأم تضع دقيقاً على رأس الولد لإزالة الزيت

المقدس وتغسله بالماء الساخن. ثم إنها حلقت شعره بعد ذلك لإذهاب كل أثر للتعميد. وشوهد الطفل تلك الأيام مُزيّناً عنقُه بالعنبر والمرجان على عادة الموريسكيين في الاحتفال بعقيقة أبنائهم، ووضعوا خواتم من فضة في يده.

كما كان المتهم ينطق بكلمة غريبة كلما عَطِسَ تتضمَّن اسم الإله عندهم كما سُمِعَ ذلك مراراً منه. ووُجِدَتْ لدى المتهم كتبٌ ألَّفها علماء مسيحيون لإبطال دين محمد الملعون. وهي حيلة كان يلجأ إليها الموريسكيون لتعلُّم أصول دينهم من خلال هذه الكتب نظراً للمنع المضروب على كتبهم. فكانوا يطلعون على أسس دينهم بشكل واضح من قبل علماء اللاهوت، ويغفلون نقض عُراها واحدةً تلو الأخرى بسطوة دين المسيح العظيم.

وبناء على التهم الثابتة في حق المتهم، فإننا نحكم ونُقِرُّ ونعلن، طبقاً للمواد القضائية، وبناء على محضر الإثبات الذي قام به النائب العام سواء من خلال الشهود أو باعتراف المتهم، بأن خوان الموريسكي ملحد ومرتد إلى الإسلام ومساعد على الشر ومتستر على الملحدين وأنه تحول إلى ملة محمد لاعتقاده بنجاته فيها. وعليه فقد جلب على نفسه حكماً بإسقاط الانتماء إلى الكنيسة المقدسة وسقط تحت طائلة كل العقوبات وفقد أهليته، التي يسقط فيها الملحدون، مع مصادرة جميع ممتلكاته التي ستخصص لخزانة وبيت مال جلالة الملك وإلى من ينوب عنه من أبناء الكنيسة المباركة في هذه المحكمة، وذلك منذ اليوم الذي بدأ فيه بارتكاب هذه الجرائم.

لكن نظراً إلى أن المدعو أظهر لنا في الاعترافات علامات ندم وتوبة راجياً الغفران من الرب عن هذه الخطايا، فإننا ندعو خوان الموريسكي أن يتحول إلى عقيدتنا المسيحية الكاثوليكية المقدسة بقلب صاف وإيمان صادق مخلص. وأن يعترف بالحقيقة كاملة، فإن وافق قَبِلْنَا مصالحته مع محكمة التفتيش الراعية الرحيمة بأبنائها من أغنامها الضائعة. ونأمر عقاباً له على ما فعل أن يخرج ابتداء من اليوم إلى الكنيسة الكبرى في غرناطة مع باقي المحكوم عليهم عاري الجسد بلا إزار ولا عمامة سوى ما كان عليه من زي السجن الأصفر الحامل للصَّلِيبَيْنِ. ثم يحمل في يده شمعة ويُقرَأُ عليه حكمُنا هذا هناك أمام جموع المؤمنين. ويعترف بجميع ذنوبه التي اعترفَ بها أمامنا تحت طائلة التعذيب المكفر عن الذنوب. فإن فعل أمرنا بتبرئة المتهم خوان الموريسكي من أي حكم يتعلق بإسقاط الانتماء إلى الكنيسة، ونضمّه مجدداً إلى أبناء الكنيسة المقدسة. كما نسمح له بتناول القربان المقدس الذي يقوم به أبناء المسيحية الأوفياء. وحكمنا عليه بالسجن وارتداء زي ثابت مدى الحياة. كما حكمنا عليه بالتجديف في مراكب سفن جلالة الملك بدون أجر مدة ثلاث سنوات. وعندما يُسلَّم إلى المراكب يُنزع عنه زي العقوبة على سطح الماء ويُرسَلُ لسماع القُدّاس الأكبر. ولا يُهان إلا من قِبَلِ الرهبان القديسين حتى يتناول القربان المقدس. وبعد انتهاء القداس يُسلِّمُ الشمعةَ إلى القسّيس علامةً على دخوله مجدّداً في الكنيسة الأم. وعليه أن يذهب مع باقي المحكوم عليهم كل أيام الآحاد والأعياد

الدينية لسماع القداس الأكبر والخطب الدينية التي تُلقى في الكنائس. كما عليه أن يذهب أيام السبت إلى كنيسة السيدة العذراء حيث يصلي خمس مرات راكعاً الصلاة الربانية والصلاة على مريم وصلاة الإيمان. وأن يعترف خلال أيام عيد الفصح بذنوبه بقية حياته. كما نعلن أن خوان الموريسكي فاقد الأهلية مدى الحياة فلا يتولى مناصب عالية أو وظائف في الكنيسة أو في الحياة العامة. ولا يرتدي ثياباً رفيعة ولا يلبس ذهباً أو فضة ولا يركب الخيل ولا يحمل السلاح. ولا يمارس أي محظور نصَّتْ عليه محاكم التفتيش في هذه الإيالة السعيدة وعلى أرض هذه الأسقفية المباركة. وهذا هو حكمنا النهائي الذي حكمنا به، وهو الذي نطقنا به وأمرنا بكتابته وتدوينه.

لما أنهى النائب العام النطق بالحكم تَلفَّتَ إلى المتَّهم وسأله:

هل تعترفُ بهذه الذُّنوب التي نُسِبَتْ إليك؟

ـ نعم، أعترف بها.

ـ هل أنت مُستعِدٌ للتَّكفير عنها وامتثال أوامر المحكمة المقدَّسة؟

ـ نعم، مستعِدٌ لذلك.

ـ هل تريد أن تعود إلى دين المسيحية بصفة نهائية؟

ـ نعم، أريد ذلك.

ثم الْتَفَتَ النائب العام إلى المحكمة وأمر الكاتب بتدوين قرار المتهم.

ثم تلاه متَّهمون آخرون منهم من رفض التخلي عن دينه فَحُكِمَ عليه بالحرق ومنهم من حكم عليه بالشنق ومصادرة جميع

الممتلكات. وآخرون تُهَمُهُمْ أَهْوَنُ من غيرهم، حُكِمَ عليهم بالتَّجديف في مراكب الملك التي تجوب المحيط إلى العالم الجديد.

وجاء دور ابن معن، وبدأ النائب العام في إلقاء محضر التهمة قائلا: المتهم المدعو فلان بن فلان بن معن، من جنس سلالة المسلمين وبسبب حبه لأمة محمد الضارة والملعونة، شارك مع المسلمين الثوار بمملكة غرناطة ومع من قدِموا إليها، وحرَّضهم على الحرب ضد المسيحيين كقائد لبعض الناس من أُمَّته. وكان مُعظَّماً في قومه مسموعَ الكلمة، وله معارف عميقة في تلك المِلَّة الضَّارة. وضُبِطَ أيضاً وهو يجتهد في إقناع الكثير من سكان غرناطة كي تثور مع ثوار البُشرات. واستطاع استمالتهم إلى رأيه. وأيضاً، إن المتهم بثباته على العقيدة المذكورة، أسدى معروفاً في أسر العديد من رجال الدين المسيحي وأبناء المسيح. ثم إنه قُبِضَ عليه فاراً وساعد في تسليم غلام قاصر من أبناء الكنيسة الذين كانوا يخدمون الأب الراعي إلى لصوص المسلمين الذين يأتون من البحر. وأيضاً باعتبار المذكور فقيهاً من فقهاء المِلَّة الملعونة كان يُعلِّم أبناء الكنيسة المقدَّسة طقوساً وشعائر تخرجهم عن النسبة إليها. كما أنه كان يعلِّمهم لسان العربية النَّجِس كي يصبحوا مسلمين مثله. ورغم تعميده فقد استمرَّ على عقيدته الفاسدة حتى وهو في داخل السجن. وأراد تغيير دين السجناء والحراس بتصنُّعه للصَّلاح والزُّهد.

وبناء على التُّهم المقدَّمة يطلب ممثل الادعاء من المحكمة حُكماً بالإعدام ومصادرة جميع ممتلكات المتَّهم.

لما انتهى النائب العام من قراءة المحضر، الْتَفَتَ إلى ابن معن سائلا:

ـ هل تُقِرُّ بهذه التهم الموجَّهة إليك؟

ـ نعم، أُقِرُّ بها.

ـ هل تنوي أن تتوبَ عن ملة محمد الملعونة وتدخلَ في الدين الصحيح؟

ـ نعم أريد أن أتوب منكم، وأطلبُ من العلي القدير أن تتوب جميع كائنات الأرض من أفعالكم وظلمكم. أنا عربي، أنا مسلم. وسأظل عربياً مسلماً. سَأُدَوِّي بها حتى تبقى تقرع آذانكم وتصكّ أصماخكم وتزلزل قلوبكم. لقد جعلتم الله للمسيحيين الكاثوليك فقط. فأي ضيق وأي سجن وضعتم فيه أنفسكم. إن الألوهية لا تحصرها عقيدةٌ دونَ عقيدةٍ وإن تفاوتَتْ في الصِّحَّةِ والفساد. وهو أعلم بما في القلوب، إنه واسع عليم، أوسع من أن يضيق بما يعتقده عباده، لكنه أرسل الرسل لهدايتهم إليه من حيث أراد منهم كيف يخبرون عنه لا من حيث أرادوا منه. إنني لا أخشى من وحشيتكم وألوان عذابكم. لقد استدبرتُ من أمري ما تَرَوْنَ ولم يبق أمامي إلا أن أموتَ مِيتَةَ الشهداء. حرّقوني إن شئتم، حُزُّوا رأسي إن أردتم، فَرِّقوا عظمي عن لحمي إن أحببتم بآلات تعذيبكم، اتركوني أَتصفَّى من دمي حتى آخر نقطة في جسدي، اغرسوا الأسياخ الحامية في كل مَسَامٍ جسدي فلن أعدو عن قولي لكم أنا عربي أنا مسلم. ولن تسمعوا مني غير أني عربي مسلم. أقولها لكم لا إله إلا الله

محمد رسول الله. عليها عشتُ وعليها أموتُ. ولن أرضى بزمزماتكم وتعاويذكم الدَّنيئة بدلا عن ديني النَّاصع الذي ورثتُهُ عن أجدادي الذين صنعوا مجد هذه البلاد. سنلتقي غداً أو بعد غد أمام ربّ العباد وسيسألكم ﴿آاللهُ أَمَرَكُمْ بهذا أَمْ عَلَى اللهِ تَفْتَرُونَ﴾. عبادي، مَنْ أَوْكَلَكُمْ بالحديث نيابة عني؟ من خوَّلكم تعذيبَ خلقي من دون إذني؟ من سمح لكم أن تَدْلُفُوا إلى شُغافِ قلب عبادي لِتَفْحَصُوهُ، وتطابقوه مع ما تظنُّون أنه ديني؟ مَنْ ومن؟ سيسألكم أسئلة طويلة عريضة، لن تجدوا لها سؤالا. لقد غيَّرتم دينَ المسيح عليه السلام. لقد جاء رحمة للعباد، فجعلتموه نقمة عليهم. لقد بدَّلتم وغيَّرتم وحرَّفتم وخَلَدْتُمْ للفانية ونسيتم الباقية. ما أتعسكم وما أشقاكم. كيف تَلْقَوْنَ ربَّكم وذنوبُكم تملأ ما بين السماء والأرض؟ فَصَلْتُم الزوج عن زوجته، ونزعتم الرَّضيعَ من أمه. وجعلتم منه وحشاً ضارياً بعد أن كان حَمَلا وديعاً يرضع لبن أمه. اسْتَعْدَيْتُم الأبناء على الأمهات والآباء. بِئسَ الصنيعُ ما صنعتم. أيّ دين هذا الذي خوَّلكم أن تُفرّقوا بين الرجل وزوجه، والأم وابنها، والأخ عن أخيه؟ لا شك أنه دين غواية الذَّهب والفضة، دين العِجْل. إنه دين الطُّغاة والجبابرة. أُنظروا إلى أماكن عبادتكم بِعُمدانها المتطاولة في السماء. لا يفعل هذا إلا مَنْ أَخْلَدَ إلى الأرض ونسي أنها محكومة بالفناء. جعلتم تحت قصوركم وكنائسكم سجوناً أودعتم فيها أبناء أمتنا وغرَّبتموهم إلى كل مكان في قشتالة، بعيداً عن أرضهم وأقربائهم. إنهم أبناء هذه الأرض قبلكم. إنهم أبناء قشتالة ومن نفس عِرقكم. لكنكم لم تُراعوا

فيهم حُرمة ولا قُربة، ولا ذِمّة ولا مُروءة. نزعتم عنكم لثامَ الحَياء وطلبتم الدنيا تجمعون متاعها القليل. تركتم الآخرة ونسيتم خيرها العميم. أيّ شقاوةٍ جئتم منها؟ وأيّ غِلظة تقلَّبتم في جنباتها؟ أهذه هي كنيستكم الأم التي ترعى أبناءها. ليت أمي لم تلدني حتى أرى وجوهكم التعيسة. ليت أمي لم تلدني حتى أرى هَامَاتِكُم البئيسة. ثَكِلَتْني أُمّي إن قَبِلْتُ بالارتداد عن موطن سعادتي، وأصل غبطتي، وشارة نعيمي، ومزيّة خلاصي. أنا عربي وابن عربي إلى آخر عربي، أنا مسلم وابن مسلم إلى آخر مسلم. وسيرجع قومي إلى هنا يوماً ما. بل سيخرج من أصلابكم من يُوَحِّدُ الله ويتعوَّذُ من قبيح أفعالكم. هلا كنتم تركتم هذه المحاكم لأهل الدنيا حتى لا تَجُرُّوا التُّهمة على دين المسيح؟ لكنكم لم تفعلوا ولن تفعلوا. بل كل ذلك كان من إغرائكم وتدبيركم وتحريضكم. جعلتم لله ابنا يحمل خطاياكم، فسمحتم لأنفسكم بارتكاب جميع الخطايا والمحرمات، وقلتم للبسطاء، إن المسيح عيسى سيحمل عنا كل ذلك. لقد أعطيتموهم صَكّاً بارتكاب جميع المعاصي والشرور. ثم بعد ذلك قلتم لهم ليس بكم من بأس، فنحن نشتري منكم ذنوبكم بالذهب والفضة، والرب يقبل شفاعتنا فيكم. أيّ دين هذا؟ وأيّ كذب اختلقتم؟ ﴿إنما المسيحُ عِيسى رَسُولُ الله وكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إلى مريم﴾.

ـ لقد زدتَ إصراراً على جرائمك البشعة بحق الكنيسة المقدسة، وهَزَأْتَ أبناءَها المخلصين الساهرين على حرمتها من أساقفة وعلماء اللاهوت والكهنة والقضاة القانونيين والقساوسة وخدام الكنيسة

وحاملي الصولجان. وقد تركناك تتكلم لتفرغ ما في جعبتك حتى نقيم عليك الحق والعدل.

ـ عن أي حق وأي عدل تتكلم؟ إن أمر هذه المحاكم مشكلة أخلاقية وإنسانية وليست فقط مشكلة قانونية. فمحاكمكم لا تُقِرُّ بالعدل الطبيعي الذي أراده الله من الاجتماع الإنساني. فمهما اختلف الناس في عقائدهم فإنهم يُقِرُّون ويعترفون بهذا المبدأ السامي المبثوث في أصل فطرة الإنسان. وما هو الأساس الذي بنيتم عليه هذه المحاكمات اللاأخلاقية؟ هل باستطاعتكم أن تدَّعوا أنه الحقُّ والعدل؟ لقد مسكتم بهؤلاء المساكين الأبرياء بوسائل الخِسَّة والدناءة. أيمكنكم أن تنكروا أن الإدانة التي توجهونها للمتهمين لم تكن إلا عن طريق الشبهة أو بوشاية الواشين؟ هل هذا هو الحق والعدل؟ هيهات هيهات. كيف لهؤلاء أن يدافعوا عن أنفسهم وقد استقرَّ عندكم أنهم متَّهمون بالأصالة؟ هل شهِدَ شاهد واحد على براءة أحدهم؟ ثم كيف تقولون إنهم اعترفوا بالتُّهمِ الموجَّهة إليهم، وجرائمُ التعذيب التي اقترفتموها بحقهم تجعل كل من تعرَّض لها يعترف لكم بما تريدون حتى تَكفُّوا عنه ألوان العذاب؟ لكمُ الله، وبيننا رب العباد يحكم بيننا وبينكم يوم القيامة.

ـ لقد سمعتم يا غبطة المحققين عن تطاول هذا المتهم على أصل عملنا وشكِّك في نزاهتنا فأضاف ذلك إلى سِجِلِّ جرائمه المتعددة. وأنا أدعوكم إلى تعجيل تنفيذ حكم الإعدام بحقه قبل أن يُفسد مزيداً من أبناء الكنيسة المقدسة المحقق معهم في البيت المقدس.

ـ مرحى مرحى بهذا الحكم الذي سيُصفّي روحي من عذاب رؤية وجوهكم البَشِعَة وسماع قاذوراتكم النَّجِسة. لقد هَرِمْتُ ولم يعدْ بمقدور هذه الشَّيبة المباركة أن تتحمَّل أكثر مما تحمَّلَتْ. اقتلوني يا عُداتي، إن في قتلي حياتي.

ـ أقولها لك للمرة الأخيرة لكي تُنقِذَ نفسَك وروحَك من العذاب الأليم. هل تتوبُ من رِدَّتك وإلحادك؟

ـ في عين رِدَّتي يظهر سِرُّ دُرَّتي. سأردِّد على أسماعكم نصَّ إلحادي وشهادةَ رِدَّتي. ألا فاسمعوا ولَيَسْمَعْ كلُّ واحدٍ منكم بل فليسمع الثَّقَلان. أنا فلان بن فلان أشهدُ أن الله تعالى إلهٌ واحد، لا ثاني في ألوهيَّته، مُنزَّهٌ عن الصَّاحبة والولد. كما أَشهَدُ على نفسي بالإيمان بمن اصطفاه واختارَهُ واجتباه، سيِّدِنا محمَّد ﷺ الذي أرسله إلى جميع الناس كافَّةً بشيراً ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنه وسِراجاً منيراً. وإني مؤمن بكل ما جاء به ممَّا علِمتُ ومَالَمْ أعلَم. فهذه شهادتي على نفسي أمانة عندكم وعندَ كلِّ من وصلَتْ إليه أن يؤدِّيها إذا سُئِلَهَا حيثما كان.

ـ لقد حكمتَ على نفسك بنفسك، وستلتهم النار المقدسة هذه الشيبة الملعونة وهذا الجسد الآثم وذاك القلب النجس. لقد أبيتَ إلا أن تبقى على ردتك وإلحادك وبَرِئتَ من الكنيسة المقدسة وأعلنتَ كفرك الصُّراح بها. وما فَتِئتَ تردِّدُ عقائدَ أهل الزَّيغ والفساد. فَلْتَلْتَهِمِ النارُ جسداً شبَّ على الإلحاد ولْتُطَهِّرْ هذه الأرضُ من هذه المِلَّةِ الملعونة.

التفتَ كبيرُهم الذي علمَّهُمُ البُهتانَ إلى أحد القضاة وقال له:

ـ أيها القاضي، اخرجْ مع الجند واتْلُ أمام العامَّة نص الحكم. أما أنا فلا حاجة لي أن أسمع صوت الإلحاد مرة أخرى من هذه الشَّيبة العاصية. وسأمضي يومي أمام تمثال السيدة العذراء أستغفر الرَّبَّ مما سمعتُ من الكُفرِيَّات.

ثم خاطب رئيسَ الجند وقال له:

ـ خذوا هذا الشَّقي فاشنقوه في الساحة العامة في حي البيازين ثم أضرموا النار في هذا الإهاب المُهترِئِ حتى يكونَ عبرةً للآخرين.

خرج الجند بالشيخ ابن معن والطبولُ تُقْرَعُ أمامَهم. وتحلَّق الناسُ حول الموكب وكَثُرَ اللَّغَط والهرج. وبدأ بعض الأولاد الأشقياء يرمون الشيخ بالحصى. أصابت إحداها جبهته فَشَجَّتْه وسال الدم الطاهر يَخُطُّ طريقاً من عينيه إلى خدِّه كأنه يبكي دماً. كان الشيخ ينظر إلى من حوله من العامة لعله يلمحُ أحداً يعرِفُه، لكن الدَّمَ السائل من جبهته حَجَبَ عن عينيه كلَّ التفاصيل. فلم يعد يرى ما يحيط به. أصبحتِ الدنيا أمام ناظريه حمراءَ قانيةً كلون الدَّمِ تماماً. تساءل مع نفسه، إنه زمانٌ دمويٌّ بلا شكّ. كان يجاهدُ لكي يمسحَ عينيه بِكَتِفَيْهِ. عبثاً كان المسكينُ يحاولُ وزادتْ محاولَتُهُ من اِلتِهَابِ عينيه فأمسك عن كلِّ فِعْلٍ وأسلمَ العينين للظلمة السَّاخِنة. هناك أبصر هوْلَ القيامة وأبصر القلوب ترتفع إلى الحناجر من شدّة يوم الفزع الأكبر. ما أهونَ ما يلقاه اليومَ نظيرَ ما سيلقاه هؤلاء ذلك اليوم؟ إنه يوم العَدْلُ الأعظم. وبينما هو غارق في تفكيره اشتدَّ الزِّحام من

حوله وتدافع الناس حتى سقط الشيخ على الأرض. ساعتَها تركت حليمة زوجها مصطفى ينتظرها وتسلَّلت حتى اقتربتْ من الشيخ ابن معن. اِنْتَهَزَتِ البلبلةَ التي حدثَتْ فَسَقَتِ الشيخ ماءً ومسحتْ عن عينيه وقالت له:

ـ لا زلنا على العهد يا سيدي. فلا تبتئسْ بما يصنعون. لقد أخذوا مني ابنتي الوحيدة حياة لكنني أناضل من أجل الحياة الحقيقية، ونضالك من أجل الحرية يشحنني بحياة أقوى. ستحمِلُ بطون نسائنا الأطهارَ والشُّرفاءَ الذي سيجاهدون هذا الضَّلال والظلم والشَّرّ.

رفع ابن معن عينيه في حليمة المرأة الشجاعة ولاحت منه ابتسامة النصر. لا زالت أمَّتُنا بخير. لم تَمُتْ جَذوةُ الأمل في النُّفوس. لم تُقْفِرْ هذه الأرض من الإيمان والخير. سيأتي غدٌ أفضلُ وسنعيد بناءَ هذه المدينة الفاضلة في أرض الأندلس من جديد.

دفع أحد الجنود حليمة بعنف فتسلَّلت حتى رجعت لزوجها مصطفى مخافة أن يفتك بها جند المحكمة. أما الجندي الذي دفعها فقد جرَّ الشيخَ إلى السَّاحة العمومية. كانت الجلبةُ على أَشُدِّها والناس في هرج ومرج. وأشقياء الأولاد يصرخون في وجه الشيخ ويتوعَّدونه بكل الشُّرور. وفي جهات مختلفة وقف آخرون في صمت. إنهم من أبناء الأندلسيين الذين ما زالوا يصارعون الطغيانَ والجبروت. لم يكن صمتهم إلا لفظياً. لقد أحسَّ الشيخ بصلواتهم الهامسة تصل إليه. سمع شهاداتهم وسَمِعَ وَقْعَ قلوبهم تودِّعُه إلى مثواه الأخير.

صَعِدَ الجنودُ بالشيخ إلى المنصَّة. ثم بدأ القاضي يقرأ مَحضرَ الاعترافِ ونَصَّ الحُكمِ. فكنتَ تسمعُ صفيراً وهديراً وزعيقاً يقطعُ جُمَلَ ذلك النَّصِّ. ولما أنهى القاضي القراءةَ، أمرَ رئيسَ الجند بتنفيذ الحُكم. قام أحد الجنود فوضع كيساً على رأس الشيخ لكنه انْتَفَضَ قائلا:

- أطلب أن تنزعَ عن رأسي هذا الكيس. إنني أفضّلُ أن أرى بعيني هذه الجموعَ الغفيرةَ قبل أن ألحقَ بدار الآخرة.

- لك ذلك. ثم نزعَ الكيسَ عن وجه الشيخ. أخذ ابن معن يُجِيلُ نَظرَه في الحاضرين. رأى وجوهاً يعرفُها، ووجوهاً أخرى غريبة احتلَّتْ مدينتَه وبلدَه وأرضَه. ثم رأى وجوهاً يعرفها بالرَّحمة، ووجوهاً يُنْكِرُها بالرَّهبة. فكان بعضهم ينظر إليه شَزْراً ويَسبُّه بأقْذَعِ السِّباب. وبعضُهُم كان ينظر إليهم بعطفٍ وانْتِحَابٍ، وآخرونَ في عيونِهِمْ نظرةُ عِتاب. إذ لَرُبَّمَا كانوا يَتمنَّون أن يعترفَ الشيخ بالتُّهم الموجَّهة إليه ظاهرياً ويعْقِدَ قلبَه على إيمانه الخالص.

وضعَ الجنديُّ حبْلَ المشنقة على رأس ابن معن ثم أمره أن يقف على كرسي. امتثل الشيخ في هدوء وصَعِدَ على مِرْقَاةٍ حتى وقف على الكرسي المرتفع. رفع عينيه إلى السماء مُبتهلا مُردِّداً دعاءَ الشِّدَّة الذي دعا به رسول الإسلام لما لقي العَنَتَ من قومه:

- «اللهم إليك أشكو ضُعفَ قوَّتي وقِلَّة حيلتي وهواني على الناس. يا أرحمَ الراحمين أنت ربُّ المستضعفين وأنتَ ربي إلى من تَكِلُنِي إلى بعيد يتجهَّمُني، أو إلى عدوٍّ مَلَّكْتَهُ أمري. إن لم يكن بك

غضبٌ عليَّ فلا أُبَالي غيرَ أنَّ عافيتَك هي أوسعُ لي. أعوذُ بنور وجهكَ الذي أشرقَتْ له الظُّلماتُ وصَلُحَ عليه أمرُ الدنيا والآخرة أن يحُلَّ عليَّ غَضبُك أو أن ينزلَ بي سَخَطُكَ. لك العُتْبَى حتى تَرضى ولا حول ولا قوة إلا بك».

ثم تلا شهادتَهُ فارتفعتِ الأصواتُ ما بين مُنكِرٍ ومؤيِّد. فلا أحدَ يدري من يؤيِّد مَنْ، ومن ينكرُ على مَنْ. وبهذا يُعْرَفُ الله. هلا شقَّ الجلادون على قلوب الناس حتى يعرِفوا من بقيَ على الإيمان الذي يعرفون ممن ارتدَّ عنه إلى إيمان آخر يجهلونه. أليس الإيمانُ واحداً وإن اختلفتْ صوره؟ أليس في وُسْعِ البعضِ أن يحمِلَ عن البعض؟ أليس في وُسعِ الجميعِ أن يتقبَّل الجميعَ؟ ﴿أليسَ الله بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾. أليس في وسع البشرِ أن يتعلَّموا الوُسعَ الإلهي؟ ألمْ يَصِفِ الحَقُّ نفسَهُ بأنه واسعٌ عليم؟ فهلا كان الإنسان على صورة هذا الوُسع وذاك العلم. لو قُدِّرَ هذا لكان الناسُ غيرَ النَّاس، ولكان هذا العالمُ شأناً آخر من شؤون الوجود. اِلْتَفَتَ ابن معن إلى الجلادين وقال لهم:

ـ مرحى بالموت، مرحى بالقتل، خُذوا جسدي لكنكم لن تأخذوا روحي، بل لن تأخذوا شعرةً واحدةً مني، تملأ الأرضَ تسبيحاً بجلال ربي. ثم أنشد بالعربية هذه الأبيات:

اقـتُـلـونـي يـا «عُـداتـي»
إنَّ فـي قَـتْـلـي حَـيـاتـي
ومـمـاتـي فـي حـيـاتـي
وحـيـاتـي فـي مـمـاتـي

سَــئِــمَــتْ رُوحــي حــيــاتــي

فــي الــرُّســومِ الــبــالــيــاتِ

فــاقــتــلــونــي واحــرِقــونــي

بــعــظــامــي الــفــانــيــاتِ

ثُــمَّ مُــرُّوا بِــرُفــاتــي

فــي الــقُــبــور الــدَّارســاتِ

تَــجِــدُوا سِــرَّ حــبــيــبــي

فــي طَــوَايــا الــبَــاقِــيــاتِ

إنَّــنــي شَــيــخٌ كَــبــيــرٌ

فــي عُــلُــو الــدَّارِجَــاتِ

لم يدرك الجلادون المعاني ولا المباني التي فاه بها ابن معن، لكنَّ سَحَنَاتِهِمْ كانت تُفْصِحُ عن اسْتِهْجَانِهِمْ لسماع هذا اللسان النَّجِس كما يقولون. كان في تلك الجموع بعض الموريسكيين ممن يفهم العربية فبكى في صمتٍ ودعا في ضَراعَة وتَوجُّهٍ وخشوع. لم يكن يحرّكُهم غضبٌ أو انتقام، ولكنْ كان الشعورُ بالعجز بادياً في تلك النَّظرات الشَّاحبة الغائبة. كانت حليمة تبكي وزوجُها مصطفى يتحسَّر، ووقف شاب قويٌّ مع بعض أترابه مُزَمْجِراً غاضباً في صمت.

ردَّدَ الشيخ كلمةَ الشهادةِ ونظر في جموع الأندلسيين مُستنهضاً لعزيمة المقاومة. ثم نظر نظرة أخرى إلى القشتاليين متحدياً. وفي لحظة من لحظات السُّمُوِّ الإنساني اختلطتِ النظرةُ الأولى بالنظرة

الثانية، ولم يعد بينهما برزخ جامع أو مانع. ثم رفع نظرَه إلى السماء وعانق في لحظاته الأخيرة ذلك الموطنَ كأنه يستدعيه بأقصى سرعة. لم يَعُدْ بَصرُه مُعْتِماً بحُمرةِ الجُثَّةِ التي أسالتْ دمَهُ على عينيه، بل تَصَفَّى تماماً كأنه حِجابٌ ارتفعَ فجأةً. ورأى نوراً غامِراً يَكْتَسِحُ الفَضاءَ. ضرب السَّفَّاحُ الكُرسيَّ الذي كان يقف عليه الشيخ برِجلِه بقوَّة ناقمةٍ فتدلَّتْ الجُثَّةُ هامدة بلا حِراك. وعمَّ صمت رهيب لبضع لحظات ثم دَوَّتِ الطُّبولُ وتَصَايَحَ الأوباشُ فرحاً بموت الإنسان. لقد زاد هذا من يقينهم وإيمانهم كما يعتقدون. أي إيمان يزيد بالتَّشَفِّي من موت إنسان؟ لكن بعض القشتاليين المسيحيين خفض بصره إلى الأرض وصلَّى من أجل الشيخ العجوز صلاةَ رحمةٍ وخلاص. ثم أضرم جنديٌّ النارَ في جثة الشيخ فارتفعت النيران تأكلُ الجسدَ المتدلي. تفحَّمتِ الجثّة وسال شحمها ليزيد من توهُّج لهب النار. بقي الجميع ينظر إلى محلِّ وقوف الشيخ كأنه يتذكَّر شيئاً كان ثم لم يعد.

لقي كثير من السجناء الذين كانوا برفقة ابن معن نفس المصير، فقد حكم على بعضهم بالإحراق وتقطيع الأوصال بكمَّاشات حامية. كان يوماً رهيباً سالت فيه الدماء وتقطَّعتْ فيه الأوصالُ وارتفعتْ ألسنة اللَّهب تأكل الأجسادَ كما لو كانت حطباً. ولم يسلَمْ حتى من كان مسيحياً لكونه ارتكب مخالفةً بغير قصد جرّاءَ تأثُّرِه بثقافته السابقة أو تحدُّثه بالعربية، فكانت تنزل بهم أقسى العقوبات. لقد سعت محاكم التفتيش إلى اجتثات واستئصال كل ما هو عربي وإسلامي. كانت التُّهم تافهةً والعقوباتُ فادحةً.

فالتَّفوه بكلمة عربية يعاقب عليه بالسجن مع التكبيل مدة ثلاثين يوماً، وتُضاعف العقوبة في حال تكرار المخالفة، مع الخدمة في القواديس، وهي مراكب التَّجديف الوحشية، مع مائة جلدة في حال المخالفة ثالث مرة. أما ضبط ورقة واحدة مكتوبة باللغة العربية في حوزة أحدهم فكانت العقوبة عليها الجلد مائة جلدة والخدمة أربع سنوات في المراكب المعروفة بالقواديس. أما من كتب وثيقة بالعربية فيجلد مائتي جلدة مع الخدمة والسخرة ست سنوات في تلك السفن. أما مغادرة مكان السكنى فيعاقب عليها بالخدمة في القواديس مدى الحياة، وإذا لم يكن يصلح للخدمة يعدم. ومن لم يُبلِّغ عن هارب أو فار يجلد ويسجن لمدة شهر.

* * *

مرَّت ثمانُ سنوات على نهاية الثورة الأندلسية في الجنوب، وفي صيف سنة 1578، لم يكن للموريسكيين الذين بقوا في بلادهم، حديث إلا عن الانتصار العظيم الذي حقَّقه الأشراف السعديون على الدون سباستيان وقوته الضاربة المؤلفة من ستمائة سفينة ومئات المدافع وآلاف الفرسان. لكن الهزيمة لحقتهم ومات ملك البرتغال الدون سباستيان غريقاً. وكان متعصّباً سعى إلى تنصير جميع المسلمين. ولما كان المغرب هو الشوكة التي تقف في حلق أوروبا المسيحية للتوسع في إفريقيا وامتلاك البحرين المتوسط والمحيط، فإن الحملات كانت متكررة لاحتلال بعض المرافئ. فلما تمَّ لهم ذلك وأمَّنوا وصولهم إلى أصيلة وتوغَّلوا في البلاد لقيهم جيش

السعديين قرب مدينة القصر الكبير، يقوده السلطان عبد الملك وأخوه أحمد فكانت الغلبة لهما والنّكاية في أعتى قوة أوروبية بحرية آنذاك. وانتقل بعد موت الدون سباستيان مُلْكُ البرتغال إلى عمّه فيليب الثاني ملك إسبانيا. وتوسّعت إمبراطورية فيليب الثاني لتشمل أيضاً ممالك سيباستيان في البرازيل والهند وإفريقية. كانت صدمة كبيرة للبرتغاليين وأوروبا المسيحية وزاد من نقمتهم على المغرب والإسلام. ولم يكن أمامهم إلا أن ينتقموا ممن يذكرهم بتلك الهزيمة من الموريسكيين فأدوا ثمن الهزيمة ليشعر أعداؤهم بوَهْمِ الراحة النفسية. أما في المغرب وبلاد الإسلام فكان الوضع مختلفاً، إذ كان هذا الانتصار ثأراً كبيراً منذ معركة العِقاب في بداية القرن السابع الهجري ضد الموحدين، والتي كانت نقطة البداية لخروج المسلمين من الأندلس.

ثم كان الخبر المفرح الآخر الذي احتفل به كل الموريسكيين في السر والعلانية، هو موت الطاغية، الدون خوان النمساوي في نفس السنة التي انتصر فيها المسلمون في معركة وادي المخازن وفكّكوا أكبر قوة بحرية مسيحية آنذاك سعت لتطويق البلاد الإسلامية بحراً والاتجار مع الشرق الأقصى. لقد كان الدون خوان قاسياً وشريراً ووحشياً للغاية مع الأندلسيين. ولهذا كانوا كثيراً ما يتعوّذون من عاقّ الوالدين وولَدِ الزنى، لأن الغالب من أفعالهم كان مطبوعاً بميسم النَّبتة القذِرة التي نشأوا فيها. ولقد كان الدون سباستيان ولد زنى.

أقفرت غرناطة وجنوب الأندلس من الأندلسيين الذين هُجّروا

بأعداد كبيرة إلى قشتالة. وكان لهذا التَّغريب أثر كبير في كساد كل شيء وشَحَّتْ موارد الدولة فعادت عن قرارها بعد مرور عشر سنوات عن التغريب وأرجعت الأندلسيين لإعمار الأندلس، بل لإعمار خزائنها. لكن الموريسكيين تعلموا مما حصل لهم فجمعوا أموالهم ولم يصرفوها في شراء الأراضي مخافة أن تُسْلَبَ منهم من جديد.

قامت تنظيمات سرية مصغرة في صفوف الموريسكيين وعمِلَ الفقهاء على بثِّ روح المقاومة والتَّشبُّت بالتعاليم الإسلامية واللغة العربية. وعمل البغّالون في تمرير الرسائل بين المدن والقرى وتجمعات الأندلسيين، رجاءَ **سلام فسوف يعلمون.**

اللواء الخامس

حمَّ الليل بليلة القدر وذات صباح قدمت سفينة قرصانية فَرَسَتْ في خليج صغير على ساحل البحر المتوسط قريباً من طريف. نزل المجاهدون بسرعة يحملون سيوفهم وأغاروا على قرية قشتالية. وكان من بين المهاجمين شاب قوي البنية في العقد الثاني من عمره يرتدي عمامة أنيقة وسروالا فضفاضاً ثم قميصاً أبيضاً وسلهاماً قصيراً. تقدم الشاب داخل القرية وحارب بعض من اعترضه من الفلاحين وتغلب عليهم بسرعة كبيرة. وكان ريس المركب يتقدم من جهته داخل القرية ويعطي الأوامر لرجاله بالحذر. وبينما هم منهمكون في جمع غنائمهم طلعت عليهم كتيبة من الفرسان الصليبيين. ثبت الرجال يحاربون في شجاعة متناهية ضد الفرسان المدججين بالحديد والأسلحة. سقط بعض الرجال وفر آخرون نحو المركب وبقي الشاب يحارب مع جملة من رفاقه هذه الكتيبة القوية بعددها وعُدَّتها. كانت سيوف المجاهدين قصيرة مائلة وخفيفة على عكس سيوف الفرسان التي كانت طويلة مستقيمة ثقيلة. لم يكن بالإمكان المبارزة المباشرة أمام اختلاف تقنية الفريقين. أخذ الشاب يطوف بالفارس الذي يقاتله

ويسدد له ضربات من الخلف. أما الفارس الذي كانت حركته ثقيلة جراء الحديد الذي يلبسه فكان يسعى للمواجهة المباشرة مع الشاب الجريء. حاول الفارس أن يهجم على خصمه ورفع رمحاً ليستعين به على تسديد ضربة قاضية للشاب، لكن هذا الأخير تفادى الرمية واستغل رفع الفارس ليده اليمنى وانكشاف إبطه الأيسر فسدد ضربة قاضية للفارس سقط على إثرها إلى الأرض مُضرَّجاً بدمائه الفائرة. كانت المعركة قد حُسمت لصالح الفرسان الذين أحاطوا بالمجاهدين القلائل. وفجأة صاح زعيم الفرسان وأمر المحاربين أن يضعوا أسلحتهم أرضاً وإلا قتلوا عن آخرهم. لم يبق مع الشاب سوى خمسة رجال آخرين. أما الريس والآخرون فقد هربوا إلى السفينة من جديد وأقلعوا. التفت الشاب إلى أصدقائه واتفقوا على الاستسلام.

وضعوا أسلحتهم الخفيفة على الأرض واستسلموا للكتيبة. نزل بعض الجند عن خيلهم وشَدُّوا وِثَاقَ المهاجمين من خلف واقتادوهم إلى قلعة محصَّنة ثم أدخلوهم السجن.

جاء زعيم الفرسان ومعه ثلاثة من المرافقين إلى زنزانة الشاب وسألوه عن اسمه فقال لهم:

ـ اسمي معنينو.

ـ ومن أي بلد أتيتم؟

ـ من مدينة سلا.

ـ وما الذي أتى بكم؟

ـ أتينا لنحرر إخواننا من الموريسكيين.

ـ هل تعرف أنك اقترفت عدة جرائم ضد إسبانيا والكنيسة الكاثوليكية.

ـ إن ما نقوم به هو دفاع عن النفس، فأنتم أخرجتمونا من هذه البلاد وسلبتمونا أموالنا وممتلكاتنا وحرقتم وقتلتم وشردتم الأطفال والنساء والرجال واستعبدتم أمتنا وأنزلتم بها كل ضروب الهوان مما لم يُسمَعْ بمثله في أي عصر أو زمان. فكيف تريد أن نعاملكم؟

ـ هل أنت موريسكي الأصل؟

ـ نعم، أنا من سكان هذه الأرض المباركة التي لوَّثتموها بجرائمكم الفظيعة. قتلتم أهلي فهربتُ من بطشكم إلى بلاد الحرية وبلاد الإسلام الفسيحة التي لم تعاملكم قط بمثل ما عاملتمونا به. لقد استوطن أجدادنا هذه البلاد تسعة قرون. بل إن كثيراً من سكان قشتالة والأندلس دخلوا في الإسلام عن طواعية. ولما تمكَّنْتُم وتَنَفَّذْتُم قضيتم على كل شيء. وأخرجتم أبناء جلدتكم الذين أسلموا من أرضهم واستعبدتموهم وأنزلتم بهم أنواعاً من الشرور والعذاب.

ـ أين كنت تقطن قبل أن تهرب إلى بلاد المغرب؟

ـ كنت أقطن غرناطة التي حوَّلتموها إلى جحيم لا يُطاق. كانت أسرتي من أكبر الأسر في غرناطة، ولكني اليوم يتيم لا أعرف أحداً من أهلي. كان لي جد طاعن في السن، لكنكم قبضتم عليه حين كنا بصدد الفرار. ولا أدري ما فعل الله به، وإن كنتُ أظنُّ أنكم قتلتموه. فلم يكن المسكين ليقوى على العذاب أو الهوان في سجونكم. ثم استطعتُ بعد أن قبضتم عليه أن ألحقَ بسفينة قرصانية جهادية أخذتني

إلى مدينة سلا في المغرب. تربَّيت هناك على يد أحد رؤساء البحر. علمني الملاحة وفنون الحرب البحرية والبرية. طلبتُ منه بكل إلحاح أن يأخذني معه في جولاته البحرية فتعلَّمتُ عدة أشياء ونهبنا عدة مراكب نصرانية وزرعنا الرعب في قلوب بحارتكم انتقاماً مما فعلتم بنا. لقد كنتُ أعلم أنكم ستقبضون عليَّ يوماً ما وأعلم المصير الذي ينتظرني. لكنني راض بما قَسَمَ الله لي.

ـ أنت شاب متحمس جداً ولا أظنك تعلم المصير الذي ينتظرك جراء هذه الوقاحة.

ـ وليكن ما يكون، فلحظة من الحرية تَعدِلُ دهراً من الهوان.

ـ لن أُسلِّمك أنت ورفاقك إلى المحقق العام لمحاكم التفتيش غاسبار دي غيروغا، ولكنك ستشتغل في السُّخرة والتجديف على مراكب جلالة الملك.

ـ أهلا بالسخرة، ولتعلم أني سأعمل ما في وسعي لكي أعود إلى الحرية من جديد. كما أن الريس الذي رباني سيفتديني بالمال أو ببعض أسراكم.

ـ ستكون مُكبَّلا بالحديد في تلك المراكب، فاقْطعِ الأمل أيها الشاب الجَسور من الهرب. وإذا استطعنا أن نفتدي بك بعض خرفان الكنيسة المحتجزين في بلادكم فسيكون ذلك من دواعي سروري.

ثم خرج الفارس وبقيتُ أياماً في ذلك الدَّير مع رفاقي. ثم حوَّلونا كما ذكر إلى أحد القواديس التي تمارس القرصنة ضدَّ غيرها من السفن في المتوسط. كنا نخرج ابتداء من شهر أبريل العجمي إلى

أكتوبر وبعدها أعود للعمل في الدير. بقيتُ هناك أتحرى عن أخبار جدي حتى وجدتُ موريسكياً من غرناطة يعرفه فأخبرني بقصة قتله وإحراقه. أقسمتُ بأغلظ الأيمان أن أنتقم له وللضحايا الآخرين إذا ما تمكنتُ من الفرار أو افتداني الريس السلاوي.

لم تمر إلا أشهر قليلة حتى وصلتْ في شهر غشت سنة 1575 رسالة من مدينة سلا بخصوص الأسرى المحتجزين ومبادلتهم بالمجموعة التي كنت فيها. لم يتردد الفرسان في الموافقة إذ بادلونا ببعض فرسانهم المحتجزين عندنا في سلا. تمت الصفقة فعدتُ إلى حياة البحر والحرية والقرصنة ضد السفن النصرانية.

كان العناق حاراً عند الملاقاة مع والدي بالتَّبني. وبعد أن ركبنا البحر أخبرني بمغامراته مع القراصنة الأتراك في الجزائر. وأنه يسعى مع الغزاة السلاويين لعقد اتفاق مع أتراك الجزائر لتنسيق الهجوم على السفن النصرانية بعد الهزيمة التي ألحقها دون خوان النمساوي بالعثمانيين في ليبانتي سنة 1571 ثم احتلال وهران وتونس. في وسط البحر التحَقَ بنا مركبان جهاديان كبيران وتوجهنا نحو الشمال لإنقاذ بعض إخواننا من شمال الأندلس الذين كانوا يحاولون الدخول إلى فرنسا.

وبينما كنا نستعد للانقضاض على بعض القرى الساحلية وافتكاك الأسرى قبل أن يَحُلَّ فَصْلُ الخريف فتصعبَ الملاحة، لاح لنا مركبٌ قشتالي بين قرية بَلامُوس وكَدَاكِسْ دِي رُوزَاس قربَ الحدود مع فرنسا. لكن المجاهد التركي أَرْنُوتْ مَامِي الذي كان يتبع إيالة

الجزائر أمرنا أن نُغَيِّرَ الخطةَ ونهاجم السفينة القشتالية التي كانت تحمل اسم إِلْ صُولْ. استجاب وليُّ نعمتي لأمر الغازي التركي أرنوت مامي وقررنا الهجوم على المركب.

كان الأسطول السلاوي تابعاً للدولة السعدية، لكن إخواننا المُغَرَّبِينَ من الأندلس بدأوا الاتصالات مع الأتراك في الجزائر وغيرها لبناء أسطول قُرصاني لدعم الأسطول السعدي من جهة وحماية الثغور المغربية وافتكاك الموريسكيين من جهة ثانية. ولهذا كان الريس أرنوت مامي هو الذي يعطي الأوامر العليا.

كانت مراكبنا خفيفة وسريعة بعكس مراكب القشتاليين. أحاطت مراكب الغزاة بالسفينة الإسبانية التي أطلقت علينا نار مدافعها التي سقطت في الماء قريباً من مركبنا. ثم تقدَّمَتْ سفينتنا السلاوية وصوَّبتْ طلقةً مركَّزةً إلى صاري السفينة الإسبانية. وبعد لحظات قليلة سقط الصاري مُحدِثاً ارتباكاً عارماً لدى خصومنا. اقتربَتْ سفينتُنا بسرعة فائقة من الغليوتة المنكسرة ورمى الرجالُ السلالمَ التي عَبَرَ عليها الرجال إلى جسر السفينة المنكوبة. بدأت معركة بيننا وبين القشتاليين بالسيوف والبارود. كُنَّا أكثرَ عدداً وأسرعَ حركةً وإصراراً على أخذ السفينة. أخرجتُ سيفي فاعترضني شاب ضليع مع ثان أَشَلّ اليُسرى وبدأت حصة من المسايفة مع الشابين. ثم مالبث أن انضم إليَّ أحد المجاهدين اليونانيين وسايف إلى جانبي حتى تغلَّبنا عليهما وأسرناهما. ثم تولَّى باقي الرجال القبضَ على أربعة عشر رجلا. أما باقي طاقم السفينة القشتالية فَقُتِلُوا. نهبنا السفينة وأخذنا ما

بها من أسلحة وذخائر. وكانت المفاجأة السّارة حين عثرتُ على فتاة وضيئة كالقَمر ضمن أسرى السفينة القشتالية. فككتُ قيودها وتحدثتُ إليها فأخبرتني بأنها أسيرة في يد الأسير الأشل الذي تغلبتُ عليه. أخذتُها إلى موضع في سفينتنا وسقيتها وأطعمتها ومسحتُ خدودها وجفونها الذابلة بالدموع ثم عَرَضْتُها على الريس الذي أمرني أن أَحُوزَها هدية في مقابل الأسير الذي طالب به البحار الإغريقي دَالِي مَامِي. فَرِحْتُ فرحاً عارماً بهذه الهدية النّفيسة. وعَزَمْتُ أمري على معرفة أخبارها. تركتها تستريح في غرفة مستقلة بعدما طَمْأَنْتُهَا وبشّرتها بنجاتها من أيدي مُحتجزيها.

كنت أتحدث القشتالية فانتدبني الريس التركي أرنوت مامي لأتكلم مع الأسير الأشل الذي قبضنا عليه، لمعرفة أخبار هذه السفينة ورجالها. توجهت بالسؤال إلى أسيري فقلت له:

ـ ما اسمك، ومن أي بلد أنت؟

ـ اسمي ميغيل دو سيرفانتس، وأنا من قلعة هيناريس.

ـ أنت إذن من قلعة النهر قرب مدريد. ومن أين قَدِمتُمْ؟

ـ كنت مع أخي رودريغ نُحارِبُ مع الدُّون خوان الجيوشَ العثمانية. ثم طلبتُ الإذنَ في العودة إلى بلدي.

ـ أين هو أخوك؟

ـ إنه الشاب الذي كان يقاتل معي لما عبرتم لجسر سفينتنا وأسرتموه مع البقية.

ـ من هو القبطان الذي كنت تعمل بجانبه؟

ـ إنه مانويل بُونس مِنْ لِيُون.

ـ هل أنت من النبلاء؟

ـ لا.

أردتُ التأكد من صِحَّة أقواله فشرعتُ في تفتيش ثيابه حتى أجدَ ما يثبتُ هويَّته، فوجدتُ رسائلَ تحملُ ختْمَ الدون خوان النمساوي. كان الاسم مطابقاً لما ذَكَرَ وكانتِ الرسائل تُوصي بحُسنِ معاملة المعني بالأمر وتسهيل مُهمَّاته.

ـ لقد أنكرتَ أنك من النبلاء، وهذه الأختام لا تُسلَّم إلا لذوي الشَّأن، فكيفَ تفسِّرُ هذا التناقضَ بين أقوالِك وأختامِك؟

ـ كُلُّ ما في الأمر أنني أبليتُ بلاء حسناً في معركة لِيبَّانْتِي ضد العثمانيين رغم أني كنت محموماً وقتَها، لكنني رفضت أن أبقى طريح الفراش فطلبت من قبطاني الإذن لي في المشاركة في هذه المعركة. خضتُ إذن أُتُونَ تلك الملاحم الشِّداد فأصابتني طلقتان في صدري وأخرى في ذراعي. وكما ترى فإن الرصاص بقي داخل الذراع فَأَشَلَّ يدي عن الحركة. وبعد انتهاء المعركة، أخبر قبطاني الدُّونَ خوان بما حصل لي فرقَّ لحالي ومنحني هذه الرسالة لتسهيل عودتي إلى بلدي.

ـ ومن أين أَسَرْتَ تلك الفتاة؟

ـ هذه صبية موريسكية قبضنا عليها حيث كانت تنتظر مع موريسكيين آخرين سفينة قرصانية تحملها. وذلك أثناء رحلة عودتنا من إيطاليا. وقد أَسَرْتُها وحُزتُها لنفسي وأرغبُ في الزواج بها لكنها

رفضتْ وحاولتْ مراراً أن ترمي بنفسها في البحر فوضعتُ لها القيودَ حتى أمنَعَهَا من ذلك.

ـ دعنا الآن من أمر الفتاة، واذكر لي ماذا كنت تعملُ سابقاً؟

ـ أنا رجل علم. وقد درستُ في جامعة القلعة التي تعتبر من مفاخر بلدنا. كما أخذت عن أُستاذٍ دَرَسَ عن عالم كبير هو إيراسموس.

ـ لا أعرف هذا الرجل، وماذا استفدتَ منه؟

ـ إيراسموس أيها الشاب هو أمير الإنسانيات في عصرنا هذا. إنسان يدعو إلى المحبة كما يدل على ذلك لقبه الذي اختاره. إنه مرحلة فاصلة بين الماضي والحاضر. ولعل هذا الفكر هو الذي سيخرج أوروبا من تخلفها ونومها العميق.

ـ ومن أي بلد هو هذا الرجل؟

ـ إنه من هولندا.

ـ إذن فأنت تقر بأن النهضة ستأتي من دول الشمال الأوروبي وليس من إسبانيا رغم أنها الآن أكبر إمبراطورية في أوروبا. وماذا عن أفكاره التي استفدتَ منها؟

ـ لقد استفدتُ منه ربط العلم بالسلوك. وأعتقد أن التزامه بمبادئ المدرسة الشهيرة «إخوان الحياة المشتركة» قد أثَّرَتْ فيه. فهؤلاء يرون أن التأمل لا يتناقض مع الانخراط التام في نشاط الحياة اليومية العامة. كما كانوا يرون أن تعاليم الكتاب المقدس لا تتناقض مع أفكار المفكرين الأقدمين من اليونان وغيرهم. إن هذه المدرسة هي

مصدر هذا الإشعاع الذي روَّج له إيراسموس، ومن قبساته يمكن لهذه البلاد أن تخرج من سباتها وجهلها.

ـ وما هو موقف أستاذك من علم اللاهوت المسيحي؟

ـ إنه يدعو إلى تخليصه من كل الشروح والحواشي والقضايا اللامتناهية والمعقدة التي دأب الشُّرَّاح على وضعها. وفي كتابه «دليل الجندي المسيحي» دعوة إلى إصلاح الكاثوليكية من زاوية متحررة مستندة إلى الإحسان والرأفة، أي بمحاكاة سلوك المسيح. فهو يدعو إلى أَوَّلية الإيمان الداخلي على الطقوس والشعائر الخارجية. وفي هذه النقطة يظهر تأثير هذا الرجل عليّ بالذات. إنه مؤسس الإنسية المسيحية بامتياز.

ـ وما هي تركة هذا الرجل الفكرية؟

ـ لقد أَلَّفَ عدة كتب وترك عدة رسائل مهمة. وقد ذكرت لك واحداً من كتبه. ثم إنه ترجم العهد الجديد إلى اللاتينية ترجمة عكف عليها طويلا ووظَّف معارفه في فقه اللغة لتحرير النص من الزوائد التي لحقته. كما أنه ألَّف كتاباً مُهِمّاً تحت عنوان «تقريظ الجنون».

ـ كيف ذلك؟

ـ إنه يتحدث عن الجنون في هذا الكتاب بضمير المتكلم أي بلسان الجنون ذاته. وهو آية من آيات الخطابة والشهادة والإبداع. فالأسلوب يسخر من المؤسسات التي تُعلي من شأن العقل وتجعله وثناً يعبد على وجه الأرض. وفي النهاية يقترب الجنون من الروحانية. أليس في قصة الصلب نوعاً من الجنون لتخليص البشر من خطاياهم؟

ـ لعله كذلك من حيث توهم الصلب. وكل عاقل لابد أن يُقِرَّ بأن في إرادة قتل النفس نوعاً من الجنون. ألا تظن أن الأنبياء منزهون عن الجنون؟

ـ سؤال عميق ووجيه. ولعل أستاذي استطاع حل إشكالية الصلب التي ترفضونها بتصوره لهذه اللحظة من الجنون التي يصبح فيها نوعاً من الفناء.

ـ إن الصوفية عندنا يقولون هم أيضاً بالفناء. ولكنه فناء عن النفس والذات وليس إفناء حسياً لهما. وهم يتمثلون في ذلك بقوله تعالى ﴿كلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الجَلاَلِ وَالإِكْرَامِ﴾ أو بهذا الدعاء النبوي: «اللهم زدني فيكَ تحيراً». هذه الحيرة هي بالأساس معرفة. فالعارف أمام جلال الحق يصاب بحيرة عظمى وتتعطَّل مداركه في الإحاطة بمولاه. ولعل هذا نوعاً من الجنون لكنه لا يؤدي بصاحبه إلى إعدام عقله ونفسه وذاته كما تقول أنت ويقول صاحبك في تقريظه للجنون. ثم ماذا كان ردُّ فِعْلِ مؤسساتكم العلمية والدينية على هذا الانقلاب؟

ـ فعلا، لقد تعكَّرت العلاقة بين إيراسموس وبين العديد من هذه المؤسسات وخاصة جامعة لوفان وباريس والعديد من رجال الدين والقساوسة الإسبان لأنهم لم يفهموا دلالات هذه السخرية التي كتبها إيراسموس حيث يتجاور سقراط والنبي سليمان والمسيح ويشكلون حلفاً من أجل الجنون.

ـ لكني أرى أن الجنون الحقيقي هو الذي هزَّ إسبانيا وأَرْدَاهَا إلى

الحضيض فَوَأَدَتْ عقْلَ أبنائِها، وحجرتْ عليهم قبَسَ الأنوار.

ـ لقد حاول إيراسموس أن ينقذ إسبانيا من جنونها القاتل لما أصبح مستشاراً لكارلوس الخامس وألَّف من أجله كتاباً أسماه «إعداد الأمير المسيحي» مخالفاً بذلك التقليد الذي ساد في أوروبا بعد كتاب «الأمير» لمكيافيل. لقد كان قريباً من الأمراء وحاول أن يؤثر في سياسة الملوك. فكتب أربعة شروح للأناجيل الأربعة قدَّم كل واحد منها لملوك أوروبا الكبار. فرانسوا الأول ملك فرنسا، هنري الثامن ملك إنجلترا، فرديناند إمبراطور ألمانيا وكارلوس الخامس إمبراطور إسبانيا وهولندا.

ـ وما هو موقف أستاذك من المصلح الآخر مارتن لوثر؟

ـ لقد كان إيراسموس في وضعية صعبة لأنه كان يؤمن بضرورة إصلاح الكنيسة الرومانية ويؤيد كثيراً من انتقادات لوثر حول صكوك الغفران وفساد المؤسسة البابوية، لكنه لم يكن بإمكانه أن يقطع معها كما فعل لوثر. ورغم أن لوثر اعتبر إيراسموس أستاذاً له، فإن هذا لم يكن بوسعه أن ينحاش لإقامة ثورة عارمة على الكنيسة والبابا. وتعقَّدت مهمتُه لما تولى صديقه أدريان السادس الكرسي البابوي، فجاهر بمعارضته لأفكار لوثر. واتهم الأخيرُ في رسالة قوية إيراسموسَ بالجمود والشك وقلة الدين.

ـ هل لك أن تخبرني عن أسباب فتك الكاثوليك بالبروتستانت مثلما حصل في باريس خلال هذه السنوات الأخيرة؟

ـ لعلك تتحدث عن ليلة سان برتيليمي في صيف 1572. طبعاً إنها وشمة عار تتحمل جميع الأطراف مسؤوليتها.

ـ لقد سمعتُ أن عدد القتلى خلال يومين أو ثلاثة بلغ حوالي خمسة عشر ألف قتيل في باريس وسائر المملكة الفرنسية.

ـ صحيح هذا الأمر، ولعل لإسبانيا وفيليب الثاني دوراً في تأجيج الصراع بين الكاثوليك والبروتستانت داخل المجلس الملكي التابع للملك شارل التاسع وأمه كاترين دو ميديسيس. لقد كان للملك وأمه سياسة توافقية فشكلا مجلساً يضم الفئتين لتحقيق السلم بعد الحروب الدينية المنهكة التي أتت على جميع مدخرات الدولة المالية. ولتتويج هذا التوافق طلبت الملكة من ولدها الملك أن يعقد القران لأخته مرغريت على الأمير هنري. لكن أطرافاً أخرى من بينها فيليب الثاني وأنصاره والبابا كانت غير راضية على هذه الزيجة بين أمير بروتستانتي وأميرة كاثوليكية، فدبروا محاولة اغتيال أحد زعماء البروتستانت في باريس، وكان صديقاً للأمير هنري. أعقب هذا احتجاج كبير من البروتستانت فَالْتَقَفَ النبلاءُ الكاثوليك هذا الاحتجاج لتبرير طعنهم في سياسة الملك والملكة التصالحية مع البروتستانت. لكنهما أمام تخلي حلفائهم عن مساندتهم اضْطُرًا للانحياش للشعور الكاثوليكي العام المناهض للبروتستانت لدى شعب باريس ووافقا على قتل زعماء البروتستانت واتهامهم بزعزعة الاستقرار وقلب النظام. خرج الأمر عن السيطرة وقامت العامة بالفتك بكل البروتستانتيين في باريس ثم في سائر مدن فرنسا. كانت مجزرة مريعة اضطر فيها الملك إلى تحمل المسؤولية رغم عدم رضاه عن هذه الفتنة وهذه المجزرة.

ـ عجيب أمر الكاثوليك يا سيد سيرفانتس، لقد نشأ الدين

المسيحي تحت القهر وعانى من ذلك كثيراً، وها هو يكرر نفس الجرائم ضد غيره من المعتقدات. لقد حوّلت الكنيسة تعاليم السيد المسيح إلى قوة استبدادية لقهر الأعداء والخصوم. فلماذا تَضِيقُ المسيحية الكاثوليكية بغيرها لهذا الحد؟

ـ يا سيدي، المسيحية الآن في طور جديد وهي تحس بأن أوروبا هي قلعتها، فلا بد من تحصينها، لذا هي تضيق بكل شرخ جديد يُفتِّت من قوتها. أما دينكم فقد بسط سلطانه على آسيا وأفريقيا وأوروبا.

ـ لم يكن ذلك إلا باقتناع شعوب العالم بصلاح هذا الدين وتكيفه مع عادات وشعوب جميع الأمم. ثم إنه جاء لإصلاح الإنسان وإقامة العدل، وهذه قيم في فطرة الإنسان. لكن قل لي، ما شأنك بالحرب ومشاركتك فيها مع أنك رجل أدب؟

ـ لقد لبَّيتُ نداءَ الملك والكنيسة في هذه المعركة الفاصلة التي أعتبرها أَهمَّ حدثٍ تاريخي في القرون الماضية والحاضرة. وليس في مقدور القرون الآتية أن يحققوا مثل هذا النصر الذي أحرزناه على الأتراك. وحتى إيراسموس الذي كان من دعاة السلم دائماً فقد تحدث عن ضرورة «الحروب العادلة» جواباً على سؤال وُجِّهَ إليه لما انتصر الأتراك في هنغاريا.

ـ أنت إذن رجل صاحب مبادئ، يحارب من أجل أشياء مثالية.

ـ نعم، أنا كذلك. كما أعتبر أن القلمَ لسانُ الروح، فما تُفكِّر فيه الروح يُعبِّر عنه القلم.

ـ عبارة جميلة. وأنا أفهم كلامك لأنني من أسرة عالمة، لكنكم فرَّقتم بيني وبينهم ولم أعد أعرف عنهم أيَّ شيء. أما جدِّي فقد قتله قومُك وأحرقوه ومثَّلوا بجثته في غرناطة. لا لشيء سوى أنه قال ربي الله ولغتي العربية وديني الإسلام. فأنا أيضاً رجل أحارب من أجل هذه المبادئ. قد تسمي هذا انتقاماً، لكني لا أعتبره كذلك، بل هو استرجاع لحقوق مهضومة. والفرق بيننا أنك إنسان مثالي وأنا رجل واقعي.

ـ المثال يقربنا من الجمال والخير، والواقع مليء بالبشاعة والشر. انظر إلى هذه الطلقات على صدري، أو إلى يدي المشلولة. أين هو الجمال في هذا الواقع؟

ـ الجمال يا سيدي، هو حين تتذكر اللحظات الجميلة التي انْتُزِعَتْ منك والذاكرة التي سُلِبَتْ منها. الذكرى هي الجمال، تذكر كيف كنت تخط بيمينك أجمل أشعارك، وكيف كنت تضعها على خد حبيبتك. إنه جمال مصحوب بجلال الذكرى.

ـ اسمح لي أيها الشاب أن أقول لك إن المثال ليس هروباً من الواقع كما تُلَمِّحُ إلى ذلك. بل المثال هو البحث عن كل جميل في الإنسان. فليس المقصود أن نخبر الناس عن الواقع الذي يعيشونه بل عن الواقع الذي كان من الممكن أن يعيشونه. إنني أنادي بواقعية مثالية. قد أستعمل السخرية اللاذعة لتوصيف حقائق واقعية لكنني أسعى لبناء شيء آخر. فليست الواقعية بالنسبة لي سوى مَعْبَر لقول أشياء فوق واقعية.

ـ أنت إنسان حالم بدون شك.

ـ نعم، فالحلم لحظة حرية لا مثيل لها. والأدب حلم كبير. لقد بدأ اهتمامي بالمثال والواقع حينما تعرَّفتُ على فن المسرح. ولعلك سمعتَ عنه.

ـ نعم لقد سمعتُ عن هذا الفن الذي يشبه فن المقامات والحكاية والأسمار عند العرب.

ـ أظن أنه مختلف بعض الشيء. فأنا أتحدث عن المسرح عند اليونان. لقد كان أستاذي إيراسموس يعتبر «بلاد اليونان وطنه الروحي». لقد تكلموا عن المثالية والواقعية منذ ذلك العهد. وحديثنا اليوم امتداد لهذا الحديث الذي لا ينقطع في كل زمان. هناك أناس يحبون أن يوثقوا للواقع بما فيه ويصورونه على عِلاّتِه. وهناك أناس آخرون يخالفونهم ويرون أن مهمة الأديب والكاتب والفنان ليست في نقل الواقع كما هو بل في منح الناس لحظة من الأمل. الواقع مليء بالشرور فهل ينفع في شيء أن نعيد إنتاج هذه الشرور؟ أم أن الأجدى أن نتحدث عن واقع متعال مثالي يجعل الإنسان محكوماً بالخير والجمال.

ـ لعلي أشاطرك الرأي جزئياً، لكني مع ذلك أعتقد أننا نحتاج في لحظات اليأس والانتكاسة والجروح لكي نُذَكِّرَ الناس بالشرور التي تتهددهم ونَصِفَها لهم حتى نُوَلِّد فيهم بواعث مقاومتها والتطهر منها فتنشأ في ذواتهم عوالم جميلة تقابل تلك الشرور. قد تنبتُ النَّبتة الطيبة في أرض متعفِّنة. أنا اليوم محتاج إلى هذه الطاقة لأقاوم طغيان قومك الذين أخرجوني من أرضي وقتلوا قومي وأهلي. فما حاجتي

إلى المثال إذا لم أعرف أولا عُداتي وما أوقعوه بي. ثم إن معرفة أعدائي ومقاومة الظلم والعدوان هي التي تمنحي شرارة الإيمان والأمل بالحياة والخير. إنني أقاوم من أجل هذه الذاكرة الإنسانية التي جعلت التعايش بين مختلف الناس ممكناً، بل وضرورياً.

ـ أنا أيضاً أحارب من أجل إعلاء كلمة ديني وملكي، لكنني أفعل ذلك لبناء عالم مثالي عبر الأدب الواقعي.

ـ هل كتبتَ شيئاً من الأدب أو الشعر؟

ـ نعم لدي بعض المحاولات، لكني لم أكتب بعد ما أعتقد أنه يعبر عن حقيقة أفكاري، وأنا أفكر في ذلك بكل تأكيد. إن عصرنا الآن يشهد نهاية مرحلة وبداية أخرى.

ـ لعلك محق فيما تقول. فقد أخرجتم المسلمين من بلادهم.

ـ لستُ أتكلم عن هذا، ولكن إخراجهم من إسبانيا مؤشر على هذه التحولات. وإنما كنت أقصد أن عصر الفروسية والبطولات قد أدبر. ونحن اليوم في عصر بدأت ملامحه تظهر. إن هذه البطولات التي كانت ترسم لنا صوراً عن أبطال خياليين قد انتهت اليوم كما هو شأن روايات الفروسية، لكننا ما زلنا متشبِّثين بها. إن قيمَ البطولة والشرف لدى القشتاليين قويَّةٌ كما تعلم.

ـ عن أي بطولات تتحدث؟ أنا لم أر منكم إلا عُدواناً وطغياناً. والتاريخ اليوم يصنَعُه العثمانيون ودول أوروبا الشمالية الذين فتحوا قلوبهم لدين مسيحي جديد كما تعلم. وقد ذكرتَ أستاذك إيراسموس وأفكاره الإنسانية المتسامحة.

ـ لعل هذا ما كنتُ أقصدُ. لقد قضينا على مملكة غرناطة لكننا لم نستفذ من هذه المعركة الذي دامت حوالي تسعة قرون منذ أن دخل العرب إلى إسبانيا في 711. وحتى الاكتشافات الهائلة التي حققناها لم تُفدنا في أي شيء. لقد أثبتْ هذه الاكتشافات أن العالم فسيح وأن وراء ما كنا نعتقد أنه بحر من الظلمات، ينتهي عنده العالم، عالماً وناساً آخرين. لقد اتَّسعتِ الأرض ولم يتَّسعْ إدراكنا جرَّاء هذا التحول. إننا ما زلنا نعيش في عالم تحكمه قيم القرية والقبيلة والعشيرة.

ـ لقد كان بإمكان الإنسان أن يسمو عن انتماءاته الضيقة باكتشافه أن العالم أوسع مما كان يظن. لكن نواياكم من هذه الاكتشافات كانت خاطئة وجشعة فقد ذهبتم هناك لنَهْبِ تلك الأرض وقتلتم أهلَها واستعبدتموهم. وبدل أن ترسلوا هناك صفْوةَ قومِكم أرسَلْتُمْ اللُّصوص والمجرمين والصَّعاليك وكل الطامعين في النَّهب. هذه هي النَّكبة والانتكاسة.

ـ إنك محق فيما تقول، ولعلنا لم نكن مُؤَهَّلين لريادة العالم. إنني أحلم بعالم البطولات. وقد ذهبت للحرب من أجل إحياء القيم الأخلاقية التي فقدتها إسبانيا ومعها أوروبا. ولعلي سأكتب يوماً ما عن كل هذا على لسان الإنسان والحيوان والجماد.

***

تركتُ صاحبي في خيالاته وأخبرت الريس عنه ففرح لأمر الرسائل الحاملة لختم عدو العثمانيين الدون خوان النمساوي. وقال لي:

ـ إن الفدية عن مثل هذا الأسير وأخيه ستكون كبيرة جداً،

وسأطلب مقابل الإفراج عنه ما لا يقل عن 500 قطعة ذهبية. إنه صيد ثمين يا معنينو. كما أن الفتاة التي وجدنا في السفينة غنيمة ثمينة، وهي هديتي لك بمناسبة افتكاكك.

ـ شكراً لك أيها الريس على كرمك، لكن اسمح لي أن أقول لك أنني لا أعتبر هذه الصبية الموريسكية ذات الأصول المسلمة غنيمةَ حرب، بل هي هديّةٌ أقبلُها. وسأُخيِّرُها فيما تريد.

ـ إنها غير حرّة لأنها من غنائم البحر. ثم أين تريدها أن تذهب وليس لها أهل تعرفهم؟

ـ إنها حُرّة بالوجود الأصلي يا سيدي. سأعمل كل ما في وسعي حتى أُرضيها. لقد ذُقتُ مرارةَ فَقْدِ الأهل والسجن والأَسْر وأعرفُ الجروحَ النفسية التي لا تندمل. فهل يليق بمن مَرَّ من نفس تجربتها أن يُكَرِّر نفس المأساة؟

ـ لك الخيار يا بني، بورك فيك وفي نفسك الأبيّة. ولا تنس أن تُكثِر من محادثة الأسير حتى تنتزعَ لي منه أخباراً أخرى. فلعل هناك سفناً أخرى قادمة نستطيع أن نأسر من بها.

ـ حاضر، لكن لا تُعوِّلْ كثيراً على مثل هذا الأسير فهو رجل أديب وليس محارباً بالأصالة وإنما أَلْجَأَتْهُ الظروفُ إلى الخدمة العسكرية.

* * *

خلال تلك الأيام كنت أتردد على الفتاةَ فأحاول أن أسري عنها. كنت أعطيها بعض الفاكهة وأسقيها ماء بارداً وأسهر على خدمتها فأَنِسَتْ إليّ. ثم بدأنا نتذاكر في كثير من الأمور. كنتُ أتكلمُ معها

بالقشتالية إذ لم تكن تعرف العربيةَ. وقصارى ما كنت تحسن منها بعض الكلمات مثل «الله» «محمد» «السلام عليكم». دخلتُ عليها مرة وسألتها:

ـ كيف حالُكِ؟

ـ بخير والحمد لله.

ـ اسمحي لي، لم أسألكِ بعدُ عن اسمِكِ.

ـ اسمي المسيحي حَنَّة، لكني ما زلتُ أتذكَّرُ أن أهلي كانوا ينادونني حياة.

ـ إذن سأناديك بهذا الاسم إذا سَمَحْتِ يا حياة.

ـ ما أحلاهُ على سمعي. تخيَّلْ أني لم أسمعْ أحداً يناديني به منذ أن كنتُ في الخامسة من عمري.

ـ وكم سِنُّكِ اليومَ؟

ـ لا يليق بشاب مهذب أن يسأل فتاةً أو امرأةً عن سِنِّها. لكني سأقول لك. أنا في الثانيةَ عشْرةَ.

ـ مظهرُكِ وحديثُكِ يدلُّ على نُضْجٍ مُبَكِّر.

ـ المآسي والحزن مُنْضِجٌ طبيعي. وبالمناسبة ما اسمُكَ أيها الشاب اللطيف؟

ـ اسمي محمد معنينو. وأنا مثلُكِ من أصول عربية إسلامية. كنتُ أعيشُ في غرناطة وقُتِلَ والدي فَقَرَّرَ جَدِّي الهروبَ بي إلى المغرب لكنَّ كتيبةً من الفرسان اعترضَتْ طريقَنا. أمرني جدي بالهرب إلى السفينة وتركتُه خلفي وحيداً لأنه لم يكن بمثل خفتي. وقد علمتُ

قبل أشهر أنهم قتلوه شنقاً ثم أحرقوا جثّتَه، رحمة الله عليه.

ـ آسفة لما حصل لجدك.

ـ شكراً لك، وقد أخذ بيدي ريس سفينة جهادية من سلا وحرص على تعليمي الشعر والأدب والملاحة. ثم صِرتُ أُبحِرُ مع السفن الجهادية لافتكاك المسلمين في الأندلس. وفي إحدى المرّات قُبِضَ عليَّ، ثم افتداني وليُّ نعمتي منذ شهر. وها أنا ألتقي بك وأفكُّ سراحَكِ اليوم.

ـ قصةُ حياتِك حزينةٌ. أما أنا فلا أعلم شيئاً عن طفولتي سوى أنني من عائلة أندلسية عريقة. أخذني قساوسة محاكم التفتيش من أمي وأنا طفلة صغيرة ووضعوني في أسرة قشتالية طيبة. ثم علمت من خادم موريسكي مُسِنٍّ تاريخ المسلمين في هذه البلاد. ومنذ ذلك الوقت حزنتُ كثيراً وامتنعتُ عن أكلِ لحم الخنزير، وجُلِّ ما يفعله القشتاليون. لم يَهْنَأْ لي بالٌ منذ أنِ استيقظَ وعيي بحقيقةِ أُصولي فألححتُ على الخادم في تدبير أَمْرِ هروبي. وبعد تردُّدٍ طويلٍ قَبِلَ ثم خَطَّطَ للأمر وأَوْكَلَ بي رجلا موريسكياً آخرَ قَادَنِي في جماعة إلى البحر فبقينا ننتظر وصولَ سفينة جهادية تُقِلُّنا. لكن هذا المركبَ الذي غنِمتُموهُ اكتَشَفَنَا فأَفشَلَ خُطَّتنا وأسِرَ بعضاً مِنّا.

ـ قصّةُ حياتِكِ محزنةٌ أيضاً يا حياة. نحن ضحايا وحشية هذا الزمان القشتالي. وقد أقسمتُ أن أنتقمَ منهم.

ـ اسمح لي أن أُخالِفَكَ بعض الشيء. أنا لا أُقِرُّ بالانتقام، وإنما أسعى لإحقاق الحق والعدل. والأسرة القشتالية التي تربّيْتُ فيها كانت

تُحسِنُ إليَّ كثيراً ولم تُقَصِّرْ أبداً في تربيتي وتعليمي ومَنْحِي كلَّ أسبابِ التَّرف والعلم والحياة. فالمسألة ليست بيننا وبين القشتاليين، بل بين نوازع الخير والشر في الإنسان، أيِّ إنسان كيفما كان وأينما كان. طبعاً، هناك مسؤولية جماعية يتحمَّلها القشتاليون والكنيسة وأوروبا في هذه الجريمة الكبرى، لكن ليس باعتبار أصولهم القشتالية أو الأوروبية، وإنما من حيث إنهم أمة أَجْرَمَتْ بحق أمة أخرى أحسنت إليها. والأدهى من كل هذا أنها أساءت لتلك الأمة من حيث دينها ولغتها وحضارتها. فهناك شيء من الأَثَرَةِ والغيرة والحسد وراء هذه المأساة.

ـ لعل حماسي في استعادة حقوقي أعماني عن حقيقة مبادئ الأمة التي أنتمي إليها، والتي شيَّدَتْ حضارة إنسانية مثالية، أو لنقل لقد حقَّقَتْ حُلْمَ الفلاسفة في إنشاء المدينة الفاضلة في هذه المنطقة البرزخية بين بحرين، وقارتين وعالمين وديانتين.

ـ أنت طيِّب بدون شك، لكن الأَسْرَ الذي لقيتَه وحياةَ البحر القاسية ربما شَوَّشَتْ على فطرتك الصافية فَطَفِقْتَ تدعو للانتقام.

ـ معكِ الحق فيما تقولين. إن الحياةَ التي نعيشها في البحر حياةٌ قاسية جداً، لكننا نتعلَّمُ أيضاً احترامَ الخصوم ونُقدِّرُ شجاعَتَهُم. ثم إن الإنسان على ظهر هذه السفن التي تمخُرُ عبابَ البحار، يضاجعُ الموتَ في كل لحظة وحين. فإما موتٌ يأتيه من هذا الهائلِ الذي لا ساحل له، وإما قتلٌ يأتيه من قراصنة آخرين. إن حياةَ البحر متأرجحة بين موتين، كلاهما موت بلا راحة.

ـ وهل تنوي أن تبقى طولَ عُمْرِكَ بحّاراً، يضاجع الموت كما تقول؟

ـ لِكلِّ أجَلٍ كِتَابٌ، لكنني لا أعرفُ اليوم مهنةً أخرى لاسترداد تلك الحقوق المهضومة.

ـ ألا تُفَكِّرُ في الزواج وبناء أسرة والاستقرار في مدينة هادئة؟

ـ لعلي فكَّرتُ في ذلك يوماً ما، لكن الظروفَ لم تساعدني بعدُ في تحقيق تلك التجربة. ولم أَلْتَقِ بَعْدُ بِعَرُوسِ أحلامي.

ـ وماذا تنوي أن تصنعَ بي بعدما مَلَكْتَ أمري؟

ـ أنتِ يا حياة حُرَّةٌ بالأصالة الوجودية، ولا يمكنني أن أَحْرِمَكِ هذه الحريةَ التي أُحاربُ من أجلها. لو مَلَكْتُكِ كما تقولين لَخُنْتُ كلَّ ما أعتقِدُهُ. فَلَكِ الخيارُ لتذهبي حيثُ ما شئتِ، وليس في وُسعي إلا أن أُحقِّقَ أمنيَّتَكِ بقدْرِ المستطاع.

ـ بوركَ فيكَ يا محمد. لكنني لا أعلمُ لي أهلا ولا داراً. وكلُّ أُمنيَّتي اليومَ أن أسكنَ بلادَ الإسلام وأتعلَّمَ العربيةَ وأتزوَّجَ رجلا صالحاً يحبُّني وأحبُّه وأرعى أطفالَنا حتى يَشِبُّوا على دين الفطرة ومحبة الإنسانية. إنني إن فعلت ذلك سأكون مرتاحة الضمير. ولاشك أن أمي وأبي سينعمان بالراحة الأبدية على خلاص ابنتهما.

ـ أنا أسكنُ في مدينة سلا بالمغرب. وهي مدينة الولاية والعلم والصلاح والجهاد. فإن لم يكن لديك مانع سَكَنْتِ في بيتي حُرَّةً طليقةً كما تشائين، ولْتُقَرِّري بعدَ أن يَنْضَجَ عُودُكِ من تختارين زوجاً لكِ. ولكِ عليَّ عهدٌ أنْ أُجَهِّزَكِ.

ـ ماذا تقول يا محمد، أنا لا أعرفُ أحداً سواكَ، وقد أَنِسْتُ إليكَ وإني أَعْرِضُ نفسي عليكَ، ولو أن النساء لا تفعل. لكن المآسي علَّمتني أن لا أترك الفرصة تمرُّ من بين يدي. ليس لي أهل اليوم إلا أنت. فهل تقبلني واحدة من أهلك؟

ـ يا حياة، أنت إنسانة لطيفة حقاً، لكني لا أريد أن أَستَغِلَّ وَضْعِي لأُرْغِمَكِ على البقاء معي. أُتْرُكِي الآنَ أَمْرَ اتِّخاذِ قَرارِكِ النِّهائي. واعلَمي أن بيتي مفتوحٌ لك وستجدين فيه كل خير وعطف ومحبة. وحين تتيقَّنينَ من قَرارك النهائي سأكون مُستعدّاً لتنفيذه كيفما كان.

ـ كلامُكَ يُخيفني بقدر ما أشعرُ فيه من نبل الأخلاق وسُمُوِّ النَّفس. فأنا ما كدتُ أُصَدِّقُ أني نجوتُ من قَدَري البئيس حتى واجَهْتَنِي بمأساة الاختيار. وهل أملكُ ذلك يا محمد؟ أنا اليوم عصفورة جريحة تبحثُ عن صدر رحب وأهل يحضنونها ويأخذون بيدها ويتركونها تعيش حياة البراءة والفطرة. ليس من السهل على امرأة أن تعرض نفسها كما فعلتُ، لكنَّ وحدتي شافعة لي. أليس من حقي أن أكون سعيدة حين أجد من يمنحني تلك السعادة؟ لماذا تريد مني أن أختار أحداً غيرك، والأقدار الإلهية أرسلتك إليّ. إنك حلم أعظم من كل أحلامي المتفائلة. لا، أرجوك، لا تخيِّرني في الذهاب، فقد اخترتُكَ أنت.

ثم سقطتْ من عينيها الذابلتين دمعتان غسلتْ قلبي بصفاء طهرها ونبلها، فقلت لها:

ـ لا تحزني ولا تخافي، فقد كنت أريد فقط أن أتيقَّن من

خلوص أحاسيسك تجاهي. وهذا من عِزّة النفس لدى الرجال أن يشعروا بأنهم معشوقون. اسمحي لي على هذه النَّزْوة الذُّكورية.

- ألا تقرأ في كتاب الوجود يا محمد. أنا لكَ، ولقاؤنا في هذا البحر أمر لو رَصَدْتَ له كلَّ أسباب الوقوع ما حصل لولا العناية الربانية التي جمَعتْ بيننا. أنا لك أقولها بملء قلبي وكياني. ألا يكفيك أننا نتكلَّم نفس اللغة ونفس الحديث وأننا من نفس الأصول ومررنا بتجربة مماثلة. كل هذا غاب عنك في هذه اللحظة، أم أنَّكَ كما ذكرتَ أردتَ إرضاء نَزْوَةٍ رِجاليَّة مَشروعة؟ هناك حَدْسٌ أنثوي لدى المرأة بالاستراحة على أول صخرة حَنون تُصادف طريقها. وأنتَ صخرتي وحبلي القويم وعِصْمتي مِنْ ذُلِّ الأَسْرِ وبُؤْسِ الهوان.

- معذرةً يا حياة، لقد كنتُ أبحثُ عن مثل هذا الحب وهذا الصفاء وهذا الاعتراف. أنا مثلُكِ أبحثُ عن شَقِيقِ الرُّوحِ الذي يرفعُ عني شيئاً من هذه الهموم التي أحمِلُهَا. ليسَ ركوبُ البحر إلا تنفيساً عمَّا عِشْتُهُ وذُقْتُهُ ونال قومي وأهلي. معذرةً مرَّةً أخرى يا حبيبةَ قلبي.

طَفِقَتِ المسكينةُ تبكي في صمت ثم دَنَتْ مني وطَوَّقَتْ عُنُقي بذراعيها البَضَّتَيْنِ وأَرَخَتْ سَالِفَهَا على صدري وأَسْنَدَتْ صَفْحَةَ وجهِها على مَوْضِعِ قلبي. أَخَذْتُهَا بالأحضانِ ثم قَبَّلْتُهَا قُبْلَةً أضاءت لي ما بين غرناطةَ وسلا. كان شعوراً جميلا وصادقاً وإنسانياً. لم أعهدْ مثلَ هذه القُشعريرة والسعادة واللَّطافة. كانت جفوني تَرِفُّ فرحاً. كانت حركاتي مُتَّئِدَةً بَطيئةً كما لو كنتُ أعالجُ شيئاً دقيقاً أخاف من كَسْرِهِ، على الرغم من وجيب قلبي المتسارع. كانت هذه الصبيةُ

في يدي تحفةً زجاجيةً بلُّورية رفيعة. لقد نِلْتُ مُرادي أخيراً، وتَدَفَّقَتْ عليَّ الحياةُ من زاويتها المشرقة. مِنْ عُمْقِ البؤسِ والمأساة تَطْلُعُ عليَّ هذه الحوريَّةُ التي تَتَشَبَّثُ بي وترغبُ في حُبِّي. لقد سُرِقَتْ مني طفولتي كما سُرِقَتْ منها طفولتُها وعِشْتُ عيشةَ الأَشِدَّاءِ ولم أكنْ أعرِفُ طَعْمَ هذه الأشياء الجميلة حتى جمعني البحرُ بحورية نفيسة.

ـ وأنا أيضا أُحبُّكَ يا حبيبي وسيدي ومالكَ أمري ومنقذي وجنَّتي وأرضي وسمائي وبحري وصخرتي. أنتَ كل هذا بالنسبة لي. ما أجمل هذا الشعور؟ وما أجمل الحياة؟ لكم تمنيتُ أن أحظى بحياة كريمة. وفي غمرة اليأس والأسر ينبثق الأمل والحب.

وبينما كنا نتهامس ونتعارف، لمحتُ على ذراعها الأيسر وشماً ضئيلا. أخذتُ ذراعَها وقبَّلته وبدأتُ أُحدِّقُ في الوشم عساني أجدُ له معنى. ثم سألتها

ـ ما هذا الوشم؟

ـ لا أدري، سوى أني منذ أن عقلتُ وأنا أحمله.

ـ أظن أن أحداً أراد وَسْمَكِ للذكرى أو لِلِّقاء. أو لهما معاً.

ـ ماذا تقصد؟

ـ يغلبُ على ظني أن هذه كلمة عربية على ذراعك حرص أحدهم على وشمها على ذراعك، حتى إذا كبرت بقي هذا الرسم معك يُذَكِّرُكِ بشيء ما. أو لعلهم وضعوه أيضاً حتى يتعرَّفوا عليك في وقت آخر. إنه الشيء الوحيد الذي يمكن أن يبقى مع الإنسان.

ـ هل تستطيع أن تتبين هذه الكلمة العربية ومعناها؟

حاولتُ قراءة الوشم الباهت حتى صحت ظافراً

ـ نعم. إنها كلمة حياة بالعربية، وهو اسمك.

ـ لم يسبق لي أن أدركتُ معناه. وكنتُ حريصة على إخفائه عن غيري. بل إن أهلي من النصارى كثيراً ما تحدثوا عن سِرِّ ذلك الرسم، وأقنعتُهُمْ أنه موجود فيَّ بالخِلقة. والآن وأنا أكلِّمُك تذكَّرتُ أنه في طفولتي أعطتني أمي بعض الحلوى، وأمسكتْ بيدي اليمنى ثم خططت رسماً بالفحم وأخذت تخزني بإبرة على الموضع الذي خططته على جلدي. وأظن أني بكيتُ ذلك اليوم، ثم نسيتُ الموضوع. هذه صورة بقيتْ في ذاكرتي من طفولتي المبكرة. لقد أرادت أمي أن تكتب اسمي على جلدي حتى أتذكَّره وأتذكَّر أصولي.

ثم قالت حياة تخاطب نفسها.

ـ يعلم الله أين أنتِ الآن يا أمي، وأين أبي الذي لا أذكره. يا حبيبتي يا أمي، يا حبيبي يا أبي.

أمضينا لحظات طويلة نناغي بعضنا مثل العصافير ورَذاذُ البحر يُرسل إلينا إشارات الرضا ويَلْفَحُ أجسادَنا بملح مُعَقِّمٍ طاهر. لم تكن حياةُ تصبرُ أن أبتعدَ عنها فكانت تناديني كلما غِبْتُ عنها لتِفَقُّدِ أمور المركب أو محادثة أحد البحارة أو النوتية. ذهبتُ إلى وَلِيِّ أمري وأخبرتُه بقصة حبي الجديدة وطلبتُ إذنَه في خطبة عروس مملكتي الجديدة.

فرح فرحاً بالغاً لما رآني في غاية السرور والبهجة لِمَا عَهِدَهُ مني من قبل، إذ كنتُ دائم الحزن والغيبة.

ـ هذا اليوم من أسعد أيامي يا ولدي، وأخيراً رأيت السعادة تغمر محياك. لم أرك من قبل سعيداً هكذا. لقد منحَتْكَ هذه الصبية في لحظات قليلة ما لم أستطع أن أمنَحَكَ إيّاهُ خلال سنين من العمر. وهذا هو سر الحب. إنه شيء من عالم الفرح ومن مملكة السعادة. لا يمكن لأحد أن يفهم هذا السر إلا بتذوق ثمار تلك الجنة. لقد بذلتُ جهداً كبيراً في التخفيف من أحزانك ومأساتك وأعطيتُكَ كل الحنان والقوة حتى تنسى ما حصل لك ولأسرتك. ويعلم الله أني كنتُ أعاملك معاملة الولد وأكثر. ويشهد الله أنك كنت ولداً صالحاً طائعاً كريمَ الأخلاق عزيزَ النفس. فُقْتَ الأقران في التحصيل والعلم والبسالة. فقيه على الأرض، ريس على البحر، راهب بالليل فارس بالنهار. والآن جاءت هذه القارورة النفيسة فأطلَقَتْ عَرْفَ عِطْرِ مَنَحَكَ سر الحياة الذي لم أستطع منحَكَ إيَّاهُ. ولستُ غيوراً من هذا التحول بل إنني أشعر بسعادة بالغة لأنك وجدتَ سعادَتَك وطريقَكَ.

سأخطبها لك من الآن وسنقيم حفلة بحرية على مركبنا قبل أن نعود إلى مدينتنا المجاهدة.

وفعلا اجتمع ولي أمري والريس ووجهاء المركب وتمت الخطبة وفق الشريعة المحمدية وقُرئت الفاتحة. وقد أمر الريس بذبح كبش بالمناسبة كان من غنائمنا. كما غنَّى البحارة أشعار أهل الأندلس المرحة. كان يوماً جميلا قضيناه في أكل وشرب ومرح. وحتى الأسرى شاركونا الأفراح وأطعمناهم من طعام الفرح. ودعوتُ سيرفانتس إلى حفل عشاء أقيم خصيصاً بمناسبة الخطبة وتجاذبنا

أطراف الحديث. لكني شعرت بخيبة أمله في خطبتي لحياة، إذ كان يُمَنِّي نفسَه بالزواج منها. ولكنني قلت له هامساً.

ـ لا تحزن على ما فات، فالزواج لقاء إرادتين. وأسيرتُك السابقة لم تكن راضية بالزواج منك، فلا تبتئسْ ولا تحزن ولعل قومَك يفتدونك بمال ثم تعودُ إلى وطنك وتتزوَّجُ ممن ترضاها وترضاك من بنات قومك.

ـ أيها الشاب، «بينَ نعم ولا مِنِ امْرأةٍ، ليسَ هُناكَ حَيْزٌ لِوَضْعِ إِبْرَةٍ». فلا يُعَوَّلُ على هذه الوعود. «بوركَ فِيمَن اخترعَ النَّوم»، فهو تِرياق لخيبة الأمل. ولعلي سأخلد إلى النوم طويلا حتى أنسى هذه الفاجعة.

ثم كنتُ أجتمع به خلال الرحلة ونتبادل الحديث الشَّيِّق عن الأدب والسياسة والأوضاع العامة. كان رجلا صاحب مبادئ وإن كانت فيه عصبية قشتالية. وكان المسكين يظن أن معركة ليبانتي هي أعظم معركة تاريخية تفوق ملاحم اليونان الخيالية. لم أُنكر عليه، فهذا الشعور الإنساني مشروع، إذ الإنسان الذي يلامس الموت لا يمكِنُكَ أن تُقنِعَه بأن تجربتَه أقلُّ من تجارب الآخرين. فهذه التجربة ذوقية، وتجاربُ الآخرين مهما عَظُمَتْ تبقى خبرية. كان هذا الرجل واقعياً إلى درجة السخرية والجنون. ومرة تحدث إلي عن بعض أحلامه.

ـ أيها الشاب، في بعض الأحيان أحلم بأنني بطل من أبطال الملاحم الإنسانية الكبرى. أجوب البلاد وأنصر الأرملة واليتيم

وأحارب الظالم والمستبد. أحلم بأني خارج القانون، أتسكَّعُ في البلاد وأعيش مما أغنمه.

ـ أنت أشبه بالشعراء الصَّعاليك يا سيرفانتس، هؤلاء الذين كانوا يعيشون في صحراء العرب عيشة الحرية والشَّرف والنَّجْدة. لا تُقِلُّهُمْ أرض ولا تُظِلُّهُمْ سماء سوى اليوم الذي يعيشونه. شعارهم «اليوم خمر وغداً أمر».

ـ العالم مليء بالشرور والسحرة والمشعوذين والطغاة. فمن يوقف كل هذا؟ لابد من أبطال أسطوريين يحاربون هذه الشرور والعِلل ولو كلَّفهم ذلك حتفهم.

ـ رسالة نبيلة، لكن يظهر لي أنك مسكون بنوازع الجنون. فهل هذا من أثر أستاذك إيراسموس عليك أم أنه فطرة ذاتية لديك؟

ـ لعلي تأثرت بأستاذي لأن في نفسي شيئاً من ذلك. الجنون يا أخي ترياق لمثل هذه الشرور. ألا تعتقد ذلك؟

ـ أُفَضِّلُ أن أكون من مجانين العقلاء لا من عقلاء المجانين.

ـ وهل بينهما فرق؟

ـ أجل، أن تكون عاقلا ثم تُظْهِر الجنون كإدراكٍ أعلى للعقل يَجْعَلُكَ دائماً في دائرة العقلاء. أما أن تكونَ مجنوناً، فمهما تعاقَلْتَ فإنك ستبقى محسوباً على زُمْرَةِ السُّفهاء. لقد ورد في أحد الآثار عندنا «اذكر الله حتى يقولوا مجنون». الجنون لا يليق إلا مع المولى لأنك تُقِرُّ أن عقلَك يَتَعَطَّلُ في تلك البلاد، فلا تستطيع أن تدرك بهذا القيد اللازم. عندها تُمْنَحُ قوة نورانية تدفعُ بعقلك إلى بلاد

أخرى لم تكن لتصلَ إليها لو بقيتَ بين ليل عقلك ونهاره، أو بين أرضه وسمائه.

ـ ماذا تقصد بهذا الشطح الروحاني؟

ـ لقد أسميتَه شطحاً، فأين القصدُ إذن؟ لكني أقول لك، لكل شيء ليل ونهار، أي أنه في قبضة فَلَكٍ أعلى منه يضيء نهارَه ويُعْتِمُ ليلَهُ. فليس له من نور ذاتي. كما أنه بين أرض وسماء أي أنه مشدود إلى حسِّه آناً، متطلِّعٌ إلى ما فوق الحس آناً آخر. كل من لزم هذه الحدود بقي على تلك الحدود. فهو بين سماء وأرض، مقبوض في شفعية الأكوان. الجنون الحقيقي هو أن تفني الكُلَّ في الكُلِّ ولا ترى إلا هو. يومَها تطلع الشمسُ منكَ وتغيبُ فيكَ وتَمْنَحُ النورَ للكون بأسره. فأنت مَطْلِعُ الأنوار ومَغْرِبُ الأسرار.

ـ كلامُك عال ونفيس. أما عن بطولاتي فهي نوع من الوهم في عالم الحلم. قلت لك إني أرى الأشياء على غير ما تبدو عليه. هناك تحول في ماهية الأشياء. فما يراه الناس مثلا خَروفاً أراه جيشاً عرمرماً. وما يراه الناس خمّارة أراه قلعة محصنة. وفي النهاية لست أحارب سوى الأوهام.

ـ لعل فيما تقول مزية لم تفطنْ لها، وهي أن الدنيا وهم كبير. ولعل في هذا التحول للذوات نوعاً من الدواء النافع لهذا الوهم. لماذا نستكثرُ على أنفسنا هذه الأشياء ونمنحُها ثبوتاً وجودياً أكثر مما يجب؟ لا أظن أنها تستحق أكثر مما هي عليه. فإذا أَعْطَتْكَ الأشياءُ من ذاتها أنها في عالم من العوالم الممكنة قد تكون شيئاً معيَّناً ثم

تتحوَّل لتصبح شيئاً آخر في عالم ثان، فهذه مزية كبرى. العالم مجموعة من الصور. فهل حقيقة الأشياء في الصور أم في المُصَوِّر؟ في الجواب عن هذا السؤال يتضح لنا معنى الوجود. نحن في عالم الصور. وإمساكنا بصورة معينة يوهمنا أننا أمسكنا بحقيقة الشيء.

ـ لم أسمع كلاماً عميقاً كمثل هذا الذي نطقتَ به اليوم. إننا أيها الشاب نعيش في نفس العوالم. ولعل الحلمَ الذي نمنحُه للناس يُعينُهُم على العيش. إنني أرى في أحلامي الضائعة كل الأشياء تتكلم وتنطق بألسنة عجيبة. إنني أمنحها الحقَّ في الكلام. من سمع يوماً أن الحمير تتكلَّم، وأن الأغنامَ تقرِظُ الشِّعْرَ، وأن الأحجارَ تنثُرُ الحكمة؟

هكذا أريد أن أرى الأشياء وهكذا أريد أن يراها الناس. ولعل في هذا التماهي بين أشياء الكون باعثاً على انبثاق الرحمة والحب والبطولة والشرف والقيم الإنسانية العظمى. كل الأشياء تلبس قناعاً، وهدفي أن أنزع هذه الأقنعة عن وجوهها. هذا هو الوعي الشقي إزاء هذه الغربة الوجودية التي نعيشها. ليس لنا من حلٍّ سوى هذا الحلم. مرة أحلم بأني أؤدي شعائر الحج إلى كل هذه البقاع والأماكن والأشياء التافهة. إنني أرى أن المسافة بين القداسة والدناسة لا وجود لها أصلا. كل الأشياء لها قداسة.

ـ يظهر لي أنك تسخر من كل هذا يا سيرفانتس، فكل أحلامك مبنية على سوء تفاهم. كلُّ شيءٍ أصبحَ كلَّ شيءٍ، فأينَ الفروقُ وأين الحكمةُ؟

ـ لا يهمني إلا الحكمة الباطنة للأشياء، وأتركُ الظواهر للعقلاء.

ألم تقل بأني مجنون؟ ليس لي من وطن سوى التيه.

ـ وبعد التيه تكون الملاقاة ولابُدّ، كما حصل في تيه بني إسرائيل. لا بد أن تلتقي بأحدهم، إما بعقلك أو بجنونك أو بعقول أخرى ومجانين آخرين.

ـ نعم تكون الملاقاة في التيه أيضاً كما هو الأمر بيننا اليوم. ألسنا في تيه البحر بين الأمواج العاتية ولا ندري ماذا يخبّىءُ لنا الغد. لقد رأيتُكَ تهمِسُ إلى عصفورتك كلاماً معسولا، بعد أن كانت في يدي مِنْ قَبْلُ. فكيف حصل هذا التحوُّلُ فجأةً؟ ومن يضمَنُ لك أن تُحقِّقَ أحلامَكَ مع معشوقَتِكَ الجديدة؟ أليس الوَهْمُ أفضلَ من وَهْمِ هذا الواقع الجاثم على رُؤوسنا؟

ـ لعلي ألمس في صوتِكَ نبرةَ الغيرة والحسَد. تلك الصبية لم تُرِدْ يوماً أن تكونَ لك. لكنَّ حكمةَ الوجود قادتني من سجني إلى الحرية ثم من حريتي إلى سعادتي التي ما حلمتُ بها. ألا ترى أن الموافقات الإلهية قد تتغلَّبُ حتى على كل الأحلام المتفائلة؟ لم يخطر ببالي يوماً أن حلمتُ بمثل ما حظِيتُ به على ظهر هذا المركب وسط هذا البحر العظيم.

ـ إنه لقاء مرتَعِشٌ هَشٌ فلا تأمَنْ عليه لحظةً واحدة. وكيف لا أحسُدُكَ على أن أرضَ اللقاء كانت على البحر مع حورية من حورياته الساحرة.

ـ بل إني رأيت في هذا اللقاء شيئاً غير معهود. لقاءٍ مائي بحريّ وليس لقاءً أرضياً لكائنين فَقَدَا أرضَهُما وأهلَهُما. ليس لنا من أهل

اليومَ سوى هذا البحر، فقد حنَّ علينا ورَأَفَ بنا. فهو صخرةُ ثباتنا ومِرْسَاةُ سفينتنا.

ـ اسمحْ لي يا أخي الحالم، معك الحق فيما تقول. نعم لقد أُخْرِجْتُمْ من أرضِكُمْ فكان البحرُ أرضَ الميعاد ودنيا اللقاء. فلا أخاف عليكم منه. إنه والدُكُمُ الراعي. ليتني حظيتُ بمثلِ ما حظيتَ به يا أخي، ليتني أصبح كائناً مائياً.

ـ لكم هي جميلة هذه النتيجة يا أخ الأدب والحرية والنبل. كم من أُخُوَّةٍ نعقِدُهَا مع أعدائنا؟ وكم من عداوة نبنيها مع إخواننا؟

هذا هو الجنون وهذا هو العقل. فطوبى للمجانين، وطوبى للعقلاء، وطوبى لعقلاء المجانين، وطوبى لمجانين العقلاء. كل يسير بمقتضى الحكمة.

* * *

مرَّتْ أيام ونحن نُبحر في تلك النواحي وأسرنا بعض القوارب الصغيرة وحملنا بعض إخواننا الموريسكيين من نواحي بلنسية. ثم قرر الريس أرنوت مامي العودة إلى بلاده، وقرَّرنا نحن العودةَ إلى مدينة سلا. قطعنا الرحلةَ معاً، ولما أزِفَ موعد الافتراق ذهبت إلى الريس أرنوت مامي واستوصيتُ بسرفانتس خيراً. ثم ذهبتُ إليه وودَّعته وداعاً حاراً حتى لكأني أرى دمعةً سالت على عينيه. لقد عثر أخيراً على شقيق في الإنسانية والأدب. كنت أشعر إزاءه بالاحترام والتقدير مهما كنا نحارب في جهات متقابلة. لقد كان يجمعني به الأدب واحترام المبادئ الكبرى.

أخذنا حصتنا من الغنائم. ثم ودَّعنا الجميع من بحارة ونوتية ومجدفين. صادفتنا ريح طيبة رخاء فسار المركب آمناً مطمئناً وبدأت مراكب إخواننا في الجزائر تبتعد في البحر. وبعد أيام قليلة وصلنا إلى مشارف مدينة سلا المجاهدة. بدأت المدافع من أعلى القصبة تهدر واجتمع الناس على ضفتي الوادي. ورُفعت الأعلام على المآذن. وارتفعت حناجر المؤذنين تصدح بالحمد على رجوع الغزاة الأبطال بالإخوان والغنائم. ولما اجتزنا بسفينتنا المُعترَض الرَّملي على مدخل وادي أبي رقراق بدأت الطبول تُدَوِّي والأبواق تَزْمِرُ فرحاً بالأبطال الغزاة. كنت واقفاً مع حياة على جسر المركب نُلَوِّحُ بأيدينا إلى الجموع المصطفة على جنبات الوادي وفوق القصبة. كان النسيم عليلا يدغدغ مَسَامَّنَا ويمنحنا شعورًا هائلا بالحرية. كانت حياة تراقب كل شيء وتبتسم للجميع. لكم كانت تنتظر مثل هذه اللحظة عندما كنا في عرض البحر؟ وتُلِحُّ في السؤال عليَّ متى نصل يا محمد، متى نصل؟ لم أكن أملك إلا أن أُطَمْئِنَهَا وأقول لها قريباً ثم أبدأ في سرد حكايات البحر والبحارة ومغامراتهم العجيبة لعلها تنسى بعض الوقت وتتركني أستريح من ضغط أسئلتها. فلما وصلنا لم تعد تكلمني بل غرقَتْ في مَلْءِ باصرتها بكل هذه الوجوه الجديدة القديمة. كان في عينيها بريق هائل يشبه ماء البحر. لقد تحولت كائنا بحرياً هي الأخرى. بَقِيَتْ تحدِّقُ طويلا في صوامع سلا ورباطها وتملأ سمعَها بأصوات المؤذنين الذين لم تسمعْ نداءَهُم من قبل. كانت أصواتاً تأتي من السماء.

أعطى الريس تعليماته بالاقتراب من المرسى على الضفة اليسرى من القصبة. انهمك البحارة والمجدِّفون في إيصال المركب إلى موضع رُسُوِّهِ. ثم نزلتُ مع حياة في قارب مع الريس حتى وقفنا على الرصيف. كان في استقبالنا أعيان المدينتين سلا ورباط الفتح. يتقدمهم عامل المدينة ورئيس الأسطول السعدي أبو سالم إبراهيم الشَّط، وحاشية العامل مع مجموعة من الأشراف والصلحاء والعلماء وأهل الأندلس والموريسكيين والمسلمين الجدد ورجال البحر. وضعت يدي في يد حياة وساعدتها على النزول. رحَّب بنا العامل وحاشيته وقدَّم إلينا تمراً وحليباً كما هي العادة.

ـ مرحبا بأبطالنا الغزاة، الحمد لله على سلامتكم وعودتكم. لقد كنا في شوق لسماع أخباركم.

ـ مرحباً سيدي، والحمد لله الذي جمعنا بكم. لقد كانت رحلة موفقة خلَّصْنا فيها بعض إخواننا المُشرَّدين وغنِمنا فيها وأَسَرْنَا بعض الأعلاج. كما أننا اِلْتَقَيْنَا في عُرض البحر بإخواننا الغزاة في الجزائر المجاهدة وقدَّموا لنا المساعدة. كما وعدونا بالتعاون والتنسيق مع الأسطول الإمامي الجهادي من أجل افتكاك إخواننا في الأندلس.

ثم تقدَّمَ أبو سالم، رئيس الأسطول السعدي المقيم في العرائش يخطر في ثيابه المزركشة. كان يرتدي قميصاً وبَدْعِيَّةً وفوقهما لباس البَاشَدُور من قطعتين، سروالٍ قصير يصل إلى ما تحت الركبتين قليلا، وجُخَّةٍ قصيرة. وكلها مزينة بالسفائف والبَرْشُمَان والأطواق المُذَهَّبَة. وعلى جناحه الأيسر سيف مُنَبَّتٌ بالأحجار الكريمة، فقال:

- نحن على أتم استعداد لمواجهة أعدائنا. فقد حضرتُ من العرائش إلى سلا للسهر على رفع وتيرة بناء السفن. وأرجو أن تزودوننا بأخبار العدو وثغراتهم وأنواع أسلحتهم حتى نواجههم في عقر ديارهم. ولكن، تَفَضَّلُوا الآن للراحة ولنا حديث مُنتظَر.

كان في الجماعة رجل عليه علامات الصلاح، ابتسم إلى ناحيتي وأشار برأسه مراراً.

دخلنا المدينة من باب البحر. وصعدنا الأدراج المؤدية إلى المدينة والناس يهتفون بنا وينثرون الورود في طريقنا. كلّف الريس رجالَه بحراسة الغنائم وإيصال العُشُرِ لخزينة السلطان ثم اقتسم الباقي مع الرجال بحسب العُرف المعمول فيما بينهم. استضافنا العامل ذلك اليوم في بيته فأكلنا وشربنا وطربنا. وعزفت المعازف وغنّت القيان من موسيقى أهل الأندلس صنائع من طبع العشاق الذي تدور أشعاره حول انهزام جحافل الليل وانتصار أضواء الصباح. كان في هذه الإيقاعات حماسٌ يُلْهِبُ النفوس.

وبعد أن أخذنا وطَرنا من المباهج المُفرحة المنعشة دَلَفْتُ إلى بيتي ترافقني دُرَّةُ نفسي، وحِنّاء كفّي، شقيقُ روحي وماءُ حياتي. فَرِحَ أهل الدار بمَقْدَمِي وجلُّهم من الخدم والأعوان رجالا ونساء. كانت بيوت رجال البحر تَعُجُّ بهؤلاء مما يقع في أيديهم من الغنائم. وكم من قصص محزنة وأخرى مفرحة تملأ ليالي السَّمر في مثل هذه البيوتات حيث يناغي كل واحد بما يجيش في صدره؟

قدِّمتُ حياة لأهل البيت فرحّبوا بها وشملوها بالمحبة والعطف

والتودُّد والكرم. وعلموا أن سيدة البيت قد حلَّت في مشكاتها، لِتُنَوِّرَ الدَّارَ وَمَنْ بِهَا.

أخذوها إلى الحمام ونَعِمَتْ فيه بالأطايب التي مَنَعَ منها القشتاليون أهالينا في الأندلس. أُفٍّ لأقوامٍ يكرهون الطهارة والنظافة.

وبعد أن طاب بنا المقام في قصبة سلا، جاءني ذلك الرجل الصالح الذي كان قد ابتسم إلي لما وصلنا المدينة، سلَّم عليَّ فرحَّبْتُ به وأدخلتُه بيتي. فقال:

ـ الخلقُ جميعاً عباد الله. لقد كان أحدُ أشياخنا يحكي لنا عن والده حكاية عجيبة.

ـ ومن هو هذا الشيخ، وما هي حكايته؟

ـ إنه سيدي رضوان الجنوي. كان رحمه الله يحكي عن والده وأسرته أمراً عجيباً. كان والده نصرانياً من مدينة جنوة في إيطاليا.

ـ وما العجيب في هذا؟

ـ إنه كذلك. وكانت أمه يهودية من اليهود الذين فَرُّوا إلى المغرب بعد سقوط غرناطة سنة 1492، فتزوَّجها والده عبد الله. لقد درس عليه السلطان يعقوب المنصور الذهبي، وكان يجاهر بالحق ولا يخاف في الله لومة لائم.

ـ وما قيمة هذا الكلام، ثم ما شأني به؟

ـ لقد كان والده من مدينة جنوة الإيطالية. وكان له فرس يحبها. فلما كان الليل ذهب الفرس إلى الكنيسة العظمى وَرَاثَ فيها من غير أن يَشْعُرَ به أحد من السَّدنة. عَمَد الرجل إلى فرسه وأخرجه خِلْسَةً

مخافة أن يلومه سدنة الكنيسة. ولما أصبح الصباح ورأى أهلُ الكنيسة الرَّوْثَ قالوا: إن المسيح جاء البارحة إلى الكنيسة على فرسه وراث فيها. اهتزَّ البلد لهذا الخبر وتنافس النصارى في شراء ذلك الرَّوث حتى بيع قدر الذُّرَةِ منه بمال جزيل. فلما رأى الرجل صنيع قومه علم أنهم على ضلال وهاجر إلى بلاد الإسلام، فنزل برباط الفتح من أرض سلا فوجد هناك امرأة يهودية فتزوج بها وولدت له الشيخ أبا النعيم رضوان الجنوي. فنشأ على هدى من الله، ومحبة النبي ﷺ. وكان رضي الله عنه يقول: «خرجتُ من بين فرث ودم». فأنت ترى يا أخي في الله، كيف يسَّرَ الله لهذا الرجل كل الأسباب حتى أصبح واحداً من هذه الأمة. فمن كان يتصور هذا؟ ولهذا قال «خرجتُ من بين فرث ودم»، يشير إلى حال والديه من قبل. فمن أَدْرَانَا أن بعضاً من هؤلاء الذين تظنهم أعداء لن يصبحوا مثل الشيخ رضوان الجنوي؟ وحتى على افتراض عدم حدوث هذا الفرض، فأنت مأمور بالرحمة إزاء الخلق.

ـ ماذا تريد أن تقول أيها الشيخ؟

ـ أُنبِّهكَ يا أخي إلى أن من تظنهم أعداء قد يصبحون أحباباً. أنا ذاهب إلى مراكش، وعائد منها إلى فاس وأرجو الله أن تكون مرقدي الأخير. وقد أردتُ أن أَمُرَّ بهذه المدينة المباركة التي وطِئَتْها أقدامُ أهلي من قبلي، ثم أحببتُ أن ألتقي بأحد أبنائها ممن حرمَتْهُ الدنيا طفولَتَهُ وعاش كغصن قُطِعَ عن شجرة.

ـ ومن أدراكَ بقصتي؟

ـ كلُّ شيءٍ في كتاب الوجود. يطير الحَمَامُ يَحُطُّ الحَمَامُ.

عن أي حمام تتحدث أيها الرجل الصالح؟

ـ إنه حَمام الحواميم الحائمة حول عين حمئة تغرب فيها شمس ذو القرنين: قرن حاء الحياة وقرن ميم الموت، مقدمة الحياة أم هي ميم الجمعية المحمدية. ألا تبحر في البحرالمحيط؟ ألم تر الحَمام بعد؟ ألم تر الحِمام بعد؟

ـ بلى، أُبحِرُ منذ أن عقلتُ. لكني لا أرى إلا الحِمَام الذي يأخذ الرجال والنساء.

ـ إذن، ضُمَّ مِيمَكَ مع حَاءِ مَنْ مَعَكَ تَشْهَدْ حقيقةَ حم. هناك محيط بلا ساحل، لُجّتُهُ الأولى مَوجَةُ (حم) قلبُ الحقيقة الأحمدية، ولجته الخاتمة موجة (حم) قلب الحقيقة المحمدية؟

ـ لَعَلَّ لكلامِكَ هذا وقتاً آخَرَ يَطلُعُ فيه نَجْمُ الفَهْم، لكن حدِّثْني عَنْ قِصَّة الرَّوْثِ والفَرَسِ.

ـ أما فهمتَ أن خلاصَ هذا الرجل كان بتلك المَفْسَدَةِ. ومَنْ أَدْرَاهُ بها قبلَ أَنْ تَحْصُلَ؟ فهكذا حال الناس في كل زمان ومكان. لا يدرون حقائقَ الأشياء ويحكمون على ظواهرها. فهذا كان خلاصه كامناً في شيء مستقذر. وأولئك كان ضلالهم من نفس ذاك الشيء المستقذر. فأين هي الحقيقة؟ هل أنت على ضلال أم على حق؟ هل سألتَ نفسك يوماً هذا السؤال؟ وهل أجبتَ عنه حين سألتَ؟ ولعلك حين أجبتَ رَكَنْتَ إلى يقينك في جوابك. ولكننا كُلّنا كذلك. فنحن نركنُ إلى اليقينيات الحقّة والموهومة معاً لأننا لا نقوى على استنطاق

الأشياء وما وراءها من علل وحقائق. لقد راث الفرسُ وأورث الحيرة عند العلماء ممن يستنبطون الحكمة. كيف يخرجُ من قلبِ المدنَّس عينُ المقدس؟ وكيف يَزُجُّ المقدَّسُ بأهله في المُدَنَّسِ؟ لا جواب إلا عند صاحب الجواب. ﴿كلُّ مَنْ عليها فَانٍ ويَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الجَلاَلِ وَالإِكْرَامِ﴾. لابد من الفناء لمعاينة عين الإفناء. هناك فقط تلوح لك أنوار المشاهدة، فإما تَخْرُسُ إلى الأبد وإما يَأْذَنُ لك حاجبُ الحَضرةِ في الكلام.

ـ كلام شديد الإلغاز عليَّ يا أيها الشيخ.

ـ إِسْتَحْضِرِ الهِمَّةَ وَصَفِّ عينَ القلب تُبْصِرْ ما وراء قولي. لقد أردتُ فقط أن أُحيِّيكَ. فأنا ذاهب إلى مراكش كما قلتُ لكَ لألتقي بالشيخ الغزواني، لكني سأعود إلى مسقط رأسي في فاس، وهناك مثواي ومرقدي. فاذهبْ إلى فاس يا أخي تجدْ عينَ الماء وتشربْ من مَعِينِهَا الفيَّاض. لقد فُصِلَ الغصنُ عن الشَّجرة وهناك تجدها بإذن الله.

لقد خرجتَ أنت أيضاً من بين فرث ودم. فما هو فرثُك؟ وما هو دَمُك؟ إذا علمتَ الجواب هُديتَ للفطرة وشربتَ الحليب.

ثم هَمسَ في أذني، السِّرُّ حيثُ ذَكرتُ لكَ. ثم وَدَّعني وذهبَ مُسرعاً، وتركني أُرَدِّدُ، أيُّ سِرّ، أيُّ سِرّ؟ سِرُّ حَالي أَمْ سِرُّ مَآلي؟

* * *

مرَّت أعوام في رباط سلا تزوَّجتُ فيها بحياة وأنجبَتْ لي ذُرِّيَّةً. تعلَّمَتْ حياةُ لغةَ أهلها وديانَتهم، وحَرِصَتْ على تعليم أولادها

حِرْصاً بالغاً. لقد أدركَتْ حقيقةَ الحِرمان الذي لَقِيَتْهُ في صغرها. كانت تتعهَّد أبناءنا في كل لحظات حياتهم وتملأ غيابي في البحار بحضور دائم. لكنها كانت دائماً تُمنِّي نفسَها بيوم تلاقي فيه أهلها. ولكم كانت تتتبَّعُ الأخبار كلَّما دخلتْ سفينة إلى مرسى المدينة. فتسأل عن الأسرى ومن تَمَّ افتكاكُهُم. كما كانت تُصِرُّ على حضور سوق الأسرى لعلها تكتشفُ من يخبرها عن أهلها. ونزولا عند رغبتها، كنت أُسَجِّلُ أسماءَ جميع الأندلسيين وأبعثُ بها إلى كل حواضر المغرب حيث استقرُّوا سواء في فاس أو تطوان أو غيرهما رجاء أن يتعرَّف بعضهم على أسماء أهاليهم. وقد أَثمرَتْ هذه الجهود في لقاء بعضهم ببعض. وكم كانت الفرحة تغمر الجميع سواء من المعنيين بالأمر أم من سكان المدينة نفسها. صارت هذه العادة سُوقاً للُقاء بعد أن كانت سُوقاً للأسرى. وكم من الدموع سالت وكم من الآهات سُمِعَتْ وكم من ضَمة للصدور رُئِيَتْ؟ كنتُ مسروراً فرِحاً. لقد أصبحتْ مدينتنا مدينة اللِّقاء واللُّقيا، مدينةَ الفرح بعد الحزن. وكم انهالت عليَّ الدعوات. وسارت كل المراكب على نفس السيرة في الأسرى. فعمَّ البلادَ رحمةٌ كبرى. لكني كلما فتحتُ قلباً عامراً بالمآسي وملأتُه بالفرح والسرور والسعادة، كلما زاد ذلك من حزن زوجتي. لا غيرة ولا حسداً في هؤلاء الذين نَعِمُوا بلقاء أهاليهم، بل من حظِّها العاثِر كما كانت تقول. ولكم نهيتُها عن حضور تلك اللقاءات لكنها كانت تتمنَّع وترفض بإصرار. كانت تلك اللحظات تطهيراً من شيء دفين، لكنها كانت في نفس الوقت

مأساةً حقيقية وقادحاً لمزيد من الحزن والكآبة عند حياة.

نشأ الأولاد كما ينبغي وسلك بعضهم نهجي. لقد كان البحر يُدِرُّ علينا خيرات كثيرة وبيوتاتنا مليئة بالتحف الرفيعة والجواهر والصناديق والمرايا والأسلحة النارية والبيضاء وأنواع السجاد والحرير والأثواب. كانت الغارات التي نقوم بها متواصلة لافتكاك إخواننا من الأسر والاسترقاق.

لقد نعمنا بالأمن والهناء في عهد المنصور السعدي وأصبحت البلاد تُرْهِبُ كلَّ ملوكِ أوروبا. وحينما كنتُ لا أُبحِر ابتداء من دخول الخريف إلى بداية الربيع أهتمُّ بأمر العلم والتعليم وإصلاح السفن. لقد كانت دار الصناعة في سلا ورشاً مفتوحاً طول السنة. وعبثاً كان أعداؤنا يحاولون تعقُّبَ سُفُنِناً إلى داخل الوادي، فقد كان الحاجز الرملي عند مدخل أبي رقراق كابوساً مُفزِعاً لكل السفن الأوروبية. وكم غَنِمْنَا من سفينة تَعَطَّلَتْ عن الحركة وتَوَحَّلَتْ في الرِّمال بدون كَدٍّ منا ولا جهد. بل يأتي الرِّزْقُ إلينا ويُساقُ. استفادَ أهل المدينتين، سلا القديمة؛ وسلا الجديدة أي رباط سلا أو رباط الفتح. كان أهل الأندلس يسكنون في المدينتين ويشتغلون في التجارة والزراعة وأعمال البحر. وكان الموريسكيون يسكنون بالخصوص في القصبة ويشتغلون أساساً في أعمال القرصنة الجهادية ويُوَظِّفُونَ معهم بعضَ المسلمين الجُدد من الأوروبيين. أما سلا القديمة فكانت مدينةً محافظة يَقصِدُها الصُّلحاء والعلماء من كل فجٍّ، وتأتيها حِصَّتُها من الغنائم البحرية بنسبة معينة.

بقي الحال على ما عليه حتى توفي المنصور السعدي سنة 1603.

كنت أسافر في ربوع المملكة وزرت العرائش وتطوان، حيث كنت أُنَسِّقُ عمليات الجهاد البحري. كما زرتُ فاسَ، واجتمعتُ فيها بالعلماء والأشراف ورَوَّجْتُ البضائعَ والتُّحَفَ التي كُنتُ أغنَمُهَا. وفي أوقات الراحة كنت أقصد القرويين وأَحْضُرُ مجالس العلم، وخاصة مجالس الشيخ التاودي بن سودة، والشيخ أبي المحاسن سيدي يوسف الفاسي. ثم كنت أزور هذا الأخير بِسَقِيفِ المَخْفِيَّةِ من فاس مع جماعة من الطلبة. وتوطَّدَتِ العلاقةُ بيني وبين أحد طلبة الشيخ أبي المحاسن. كان هذا الشاب خيِّراً نزيهاً فقيهاً فقيراً مُتَجَرِّداً مُكبّاً على خدمة شيخه يُنفقُ كالريح المرسلة من ماله على شيخه ويَخْدُمُهُ خدمةَ العبيد. وكان يقول لي: وَجَدْتُ قلبي، فَقَدْتُ قلبي، لا كان قلبي، فما أُبالي. وكثيراً ما كان يحدِّثني عن سيدي رضوان الجنوي. وكلما هممتُ أن أسألَهُ عنه صَرَفَنَا صَارِفٌ وَقْتِيّ. وفي سنة 1604 توفي سيدي يوسف الفاسي فَحَزِنَّا عليه حزناً عميقاً. لكن الله تداركنا بأخي الشيخ، أبي محمد سيدي عبد الرحمن الفاسي فَسِرْنَا معه سيرتَنا مع أخيه أبي المحاسن.

ومرَّة سألتُ صاحبي عن نَسَبِهِ وأصله فذكر لي أنه من الأندلس وأن أهلَه هربوا من بطش الإسبان وصار يحكي لي أخبار عائلته، فأثار فضولي وسألته التفصيل فقال:

ـ أنا من آل معن، ولعلها تصحيف لِمُعَان، وبالقشتالية مورانو. نحن من غرناطة. خرج والدي رحمة الله عليه مع إخوته وأهله

وتَرَكوا الجدَّ رحمة الله عليه مع عمٍّ لنا. وآخِرُ خَبَرٍ كان بيننا رِسالةٌ أرسلْنَاهَا له قبْلَ أَكْثَر من ثلاثين سنة لَمَّا وُلِدْتُ لوالدي. ثم علمنا من بعض الغرناطيين أنهما قتلا، لكن لا علم لنا بما حصل لابن عمي. لقد خرجنا من بين فرث ودم في تلك البلاد التي سَامَنَا فيها النصارى الذُّلَّ والهَوَانَ.

- إنك تثيرُ فضولي بحديثِك هذا.

صبَّ لي محمد مَعَن حليباً صافياً، ورغَّبَ إليَّ في الشرب فَشَرِبْتُ، ثم سألني.

- ولماذا أثيرُ فضولَك يا محمد معنينو؟

- لأنني كنت مع جدِّي في غرناطة، وتكاد قِصَّةُ أسرتِكَ تُشبِهُ قِصَّةَ أُسْرَتي. فلقد رَحَلَ كلُّ أهْلِنا إلى فاس واستقرُّوا بها. ولا أعلم لهم خبراً. أما أنا فقد وُلِدْتُ هناكَ لوالدي الذي بقي مع جدي ثم قُتِلَ والدي في ثورة أهل الأندلس على القشتاليين، وبَقِيتُ يتيماً مع جدِّي. لكنه خاف عليَّ من التَّنصير، إذ كان القساوسة ومحاكم التفتيش تأخذُ الأطفالَ قَسْراً من ذويهم وتُعمِّدهم. وقد كنتُ في خدمة أحد هؤلاء القسوس مكلَّفاً بمناولة الكتاب المقدَّس ليقرأ فيه وقتَ القُدَّاس. خاف جدي عليَّ من أن أَفْلِتَ من بين يديه وأتحوَّلَ إلى مِلَّةِ النَّصارى فعقد العزم على الهروب بي. وبينما كنا نتأهَّبُ للفرار لِنَسْتَقِلَّ سفينةً قُرصانية جهادية مغربية، إذا بكتيبة من الفرسان تهاجمنا. أمرني الجدُّ رحمةُ الله عليه أن أهربَ وأركبَ السفينة التي نَشَرَتْ القِلاعَ وغادرت السَّاحلَ. وبقي الجدُّ وحيداً يُكَفْكِفُ دُموع

الحزن والحسرة والفُرقة. ودَّعْتُهُ وفي نظراتي جِدَّةُ الانتقام واليأس والخوف. ثم وصلتُ مدينة سلا وتربَّيْتُ هناك وفَقِهْتُ علومَ البحر على يد أحد رُيَّاسِهَا الذي أحسنَ إليَّ وربَّاني مثل ولدِهِ. ثم عدتُ مراراً إلى الأندلس في هذه الأجفان لافتكاك المسلمين فَعَلِمْتُ من أحد الموريسكيين أن الجدَّ قد حُوكِمَ وشُنِقَ خنقاً ثم أحرقوا جثَّتَه ومثَّلوا بها، رحمة الله عليه.

نظر إلي محمد ابن معن وعيناه مغرورقتان بالدموع ثم ارتمى في حضني وقبَّلني طويلا وقال لي:

ـ أنت ابن عمي يا محمد الذي بقي في الأندلس.

وساد صمت ثقيل ممزوج بالفرحة والحزن معاً. ثم أردف محمد قائلا.

ـ لقد وصلتنا رسالة من الجد يخبرنا فيها بذلك. فالحمد لله الذي جَمَعَنَا بعد يَأْسٍ. لقد كنا نَتَرَصَّدُ الأخبارَ لعلَّ الله أن يُسمِعَنَا خَبَراً عن العم وولده. وبعثنا الأموالَ مع غُزاة البحر لعلَّهم يستنقذوكما فلم يُفلحوا في ذلك. أما عن قصة قتل الجد فقد سمعنا بها وحَزِنَّا لذلك حزناً عظيماً. لقد مات رحمه الله مرفوع الرأس، وأبى إلا أن يموت في تلك الأرض التي استوصى بها جدُّنا الخليفة المعظم يعقوب المنصور الموحدي. لكنَّ فرحتي اليومَ وفرحةَ العائلة ستكونُ كبيرةً. لكنْ، أخبرني لماذا تحمل اسم معنينو؟

ـ إن النصارى سَمَّوْني هكذا، فقالوا: أنت منذ اليوم مرينو، وعُرِّبَتْ إلى معنينو. لقد تذكرتُ اليوم ما قاله لي أحد الصالحين حين

التقيتُه في طريقه إلى مراكش. لقد قال لي سيجتمع الفرع بالأصل. ودلّني عليه بالاسم وقال لي ستشربُ من العينِ الماءَ **المَعِينَ**، يشير إلى اسم أسرتنا **معن ومعنينو**. فأنت يا ابن عمي ماء هذه الأسرة المباركة المعين. ولوائح الصلاح كلها تشير إليك. وفّقك الله لذلك. كما أخبرني ذلك الشيخ المبارك عن رضوان الجنوي. كما أخبرني بأن أجد الحليب الذي انبَثَقَ من بين فرث ودم. وها قد طعمتُ من يدك المباركة كأسَ حليب واجتمعَتْ أسرتُنا من جديد وخرجتُ من ذاك الفرث وذاك الدم. فَرْثِ الغربة ودَمِ الكفر. فالحمد لله الذي تفضّلَ علينا بهذه الأفضال.

ـ أتعرف من هو ذاك الشيخ الصالح؟

ـ لم يذكرْ لي اسمه.

ـ إنه الشيخ رضوان الجنوي. وقد أخبرَكَ عن نفسه واستحيى أن يقول لك من هو. لقد ذهبَ وقتَها إلى مراكش والتقى بالشيخ الغزواني وبقي معه حوالي السنة ثم عاد إلى فاس وبها مات رحمة الله عليه. ولا تنس أن تُذَكِّرَنِي بزيارته يوم الخميس المقبل في مقبرة باب الفتوح. لكن هيًا بنا الآن إلى الأهل والأسرة لتتعرّف عليهم، وسنحتفل بك اليوم احتفالا كبيراً.

تعجّبتُ من صدق سريرة الشيخ رضوان الجنوي. ثم ذهبتُ مع ابن عمي وتعرّفتُ إلى باقي العائلة في فاس. كانت من الأسر الكبيرة التي تشتغل في الفلاحة والتجارة وتملك الضِّياع والدُّور. تعرّفتُ على الصغير والكبير والذُّكور والإناث. وأخبرتهم عن أسرتي الصغيرة في

فاس وعن مغامراتي في البحار. كانت أياماً جميلة قضيتُها في الأسمار والذِّكريات. وكان الأطفال هم من يُشَدِّدُ عليَّ في الحكي، فكنتُ أمتثلُ في سعادة وسرور.

ثم زرتُ مع ابن عمي الشيخ رضوان الجنوي في باب الفتوح وترحَّمنا عليه طويلا.

قضيتُ أياماً مباركة في صحبة أهلي وأرسلتُ في طلب أسرتي الصغيرة فحضروا واجتمع الأصل والفروع.

كان الذي يحيِّرني هو الأحوالُ النورانية لسيدي محمد معن. وسألته مرة أن يخبرني عن أحواله فقال لي:

ـ اعلم يا ابن العم أن النبي ﷺ لا يغيب عني.

ـ ما الذي تشهده منه، روحانيته أو جسمانيته؟

ـ بل روحانيته.

ثم مرَّت مُدَّةٌ غِبْتُ فيها من سلا فأَعَدْتُ عليه السؤال لما طالعني بأنوار أعظم من ذي قبل، فعلمتُ أنه تَرَقَّى في أحواله ومقاماته.

ـ هل مُشاهدةُ روحانيته باقيةٌ مَعَكَ؟

ـ الصِّفة لا تفارق الموصوف يا ابن العم.

كان محمد معن صاحب كلمة نافذة في فاس، آمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر، مُظهِراً للسنة مُخمِداً للبدعة. كنتُ أجلس أمامه رضي الله عنه وفي نفسي حاجة، فَيُظهرُها من ظَهْرِ غَيْبٍ من غير سؤال ولا طلب، فأبقى أتعجَّبُ، فيقول لي: فيمَ العجبُ، واللهُ هو المتصرِّفُ المالكُ لكل شيء. فانظر إلى المالك لا إلى المملوك.

وانظر إلى القادر لا إلى محلِّ ظُهورِ القُدرة. فكنتُ أَرْكَنُ إلى حقيقة ما يقول. لكني كنتُ أستصغرُ نفسي وأقول لها: لو كنتِ ذاتَ شأن لظهرَتْ فيكِ عجائبُ القُدرة كما تظهرُ في ابن العم. لكني أعودُ فأمتثلُ الأدبَ، وأتذكَّرُ ما مررتُ به من الشَّدائد وكيف خرجتُ منها بخرْقِ عَادَة. وكثيراً ما كان ينصحني قائلا:

ـ عليكَ بتصفية اللقمة وترك الخُلطة واجتناب مُتَفَقِّرَةِ الوَقْتِ لغلبة الهوى عليهم وقِلَّةِ وُجودِ الصَّادقينَ.

وكثيراً ما كنتُ أسأله الدعاء في أعمال الجهاد البحري وردِّ شوكة المعتدين من الأمم المسيحية التي تكالبتْ على المغرب، فكان رضي الله يدعو في سرِّه، لكني كنتُ أرى العجب في رحلاتي البحرية. وكم من مرَّة كِدْتُ أقع في أيدي النصارى فتنشُلُني يدُ القدرة بلا كيف مني ولا حول ولا قوة. وكان ينصحني قائلا:

ـ لا تتركِ الانتقامَ يُعميك، فالكلُّ عباد الله. جاهدْ في سبيل الله واجعلِ الرحمةَ تسبقُ الغضبَ، وارأَفْ بأعدائك مهما فعلوا. فهذه أوصاف أهل الله التي منحهم إياها مولاهم حين أخبر عن نفسه أنَّ رحمتَه سبقتْ غضبَه. فاحرصْ أن تكونَ كذلك.

ـ هل أفهم من كلامك أن لا أحاربهم؟

ـ لم أقل لك هذا، بل تحاربهم لإحقاق الحق، لا لإرضاء النفس والانتقام. فلعل الله أن يخرج من أصلابهم من يوحِّد الله.

ـ إنك تتحدث إليَّ اليوم كما تحدَّثَ إليَّ الشيخ رضوان الجنوي في لقائي الخاطف معه قبل سنين عديدة مضت.

هكذا كان سيدي محمد معن رضي الله عنه رحمة للعالمين، مهما شَطَّتِ العقائدُ بينهم وبَاعدت بينهم الديار والأوطان، لكنه كان يؤمن بوطن واحد هو وطن العبودية. وفي هذا الوطن يتساوى الناس، سواء كانت عبوديتهم اختيارية أو اضطرارية.

أرسلتُ أولادي للدراسة في سلا أولا ثم إلى فاس ثانياً لتحصيل العلم. أما أنا فقد وضعتُ هدفاً لحياتي أن أستنقذَ أكبر عدد من مسلمي الأندلس.

كانت الأوضاع تسوء يوماً بعد يوم بعد وفاة أحمد المنصور السعدي في فاس جراء الطاعون الذي عمَّ العباد والبلاد. ونُقِلَ المنصور إلى مراكش فَدُفِنَ في تربة الأشراف السعديين. وقد ترك ثلاثة أولاد، محمد الشيخ المأمون، وزيدان، وأبو فارس.

اختلَّ نظام الدولة السعدية ونعق في أرجائها الغراب وتقاسم الثوار سَلاها بينهم. وكان السلطان زيدان منذ أن توفي والده المنصور في حرب مع إخوته وأبنائهم منذ أن بويع له في فاس. ثم إن زيدان كان سيئ الطالع إذ دارت عليه الدوائر من كل حدب وصوب.

رجعتُ إلى سلا وحضرت هناك لقاء بين الشيخ عبد الله بن حسون وأحد الرجال الذين سيكون لهم شأن فيما بعد في بلاد المغرب. كانت المنطقة تابعة لنفوذ السلطان زيدان. كان بيت الشيخ قريباً من البحر مطلا على القصبة من الجهة اليمنى لوادي أبي رقراق. جمع الشيخ أصحابه والمجاهدين من الغزاة، وكانت عنده فرس، فسأل فجأة:

ـ أين محمد العياشي؟

ـ ها أنا ذا يا سيدي.

ـ إركبْ بحول الله فرسَك، ودنياك وآخرتَك.

تَقَهْقَرَ الرجلُ أدباً، فحَلَفَ عليه لَيَرْكَبَنَّ وحَبَسَ له الرِّكابَ بيده، وقال له:

ـ ارتحلْ عني إلى آزمور وانزِلْ على أولاد عزيز، ولا بُدَّ لك من الرُّجوع إلى هذه البلاد، وسيكونُ لك شأنٌ عظيم.

ودَّعَهُ أبو عبد الله، ووضعَ الشيخُ يدَهُ على رأسه وبكى ودعا له بخير، فقصدَ ناحيةَ آزمور ونزل حيثُ عَيَّنَ له الشيخُ. بقينا في المجلس نستمعُ إلى الشيخ ونصائحه بالجهاد في سبيل الله.

ـ لا تعوِّلوا يا إخواني إلا على الله وعلى صدق سريرتكم وإخلاصكم. جاهدوا في سبيل الله. لقد ضعفَ حالُ السلطان وتناثرتْ ألويتُهُ بين أبناء المنصور رحمه الله. وإني علمتُ أن طاغيةَ الإسبان يسعى لاحتلال مدينتنا المجاهدة. فلن يهدأ له بال حتى يُقايِضها مع أحد هؤلاء الذين باعوا أُخراهُم بدنياهم. أنتم شوكةٌ في حَلْقِ هؤلاء يا أيها الغزاة، فَسدِّدوا ضَرباتِكم وافْتَكُّوا إخوانَكُم الأندلسيين من النصارى، فقد نالهم من العَنَت ما لم ينله أحدٌ غيرُهم.

خرجنا من عند الشيخ، وتهامسنا عن سرِّ إِرْكَابِ محمد العياشي. قلت لصحبي:

ـ لابد وأَنْ سيصيرَ له شأن عظيم، فأهل الله صادقون فيما

يخبرون به عن الله. ولقد تفرّس الشيخ في هذا الرجل بصدق سريرته فأطلَعَهُ الله على حاله. والرأي عندي أن ننصرَهُ متى ظهر أمرُهُ بينَنا.

ـ لقد أصبحتَ تتكلّمُ مثلَ ابنِ عمّكَ يا معنينو، وإني أرى أن سفريّاتك لفاسَ قد أرْخَتْ شكيمَتَكَ بعض الشيء. وما نحن إلا أصحابُ بلاءٍ وجهادٍ، ولا شأنَ لها بهذه الإخبارات الغيبية.

ـ أراكَ تسخَرُ يا ابنَ القُوطية، ولعلك تحتاج إلى نقاهة روحية لإذكاء إيمانِك. لقد أنساكَ السَّلْبُ والغنيمةُ صفاءَ الإيمان وإخلاصَ السريرة وصدقَ الطَّويَّة.

ـ ما لي ولأحاديثِ العجائز يا معنينو. إنما أنا رجلٌ غازٍ، أَفُلُّ عزيمةَ الأعداء وأَفتِكُ بالرجال وأَغنَمُ الغنائم، لا يَروعني منهم بأس ولا شدة. لو رَكَنّا إلى مثل ما تقولُ لتعطّلَ الجهادُ ولأكلَنا الإسبان وطاغيَتُهُم في لُقمةٍ واحدة. فلا تنسَ البحرَ وأهوالَه. أنا أفضّلُ أن يَسيحَ دمي في البحار على أن أموتَ على فِراش زوجتي.

ـ لك ذلك، ولغيرِكَ ما أراد. لكن لا تُنْكِرِ المراتبَ لأنك لا ترى الآن إلا مرتَبَتَكَ. فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ لما خُلِقَ لَهُ. ونحن نحتاج لأمثالك مِمَّنْ لهم قوَّةُ الشَّكيمة وثبات العزيمة والإقدام حين يَشْتَدُّ البأسُ. لكننا نحتاج بنفس القَدْرِ إلى مَنْ يُذَكِّرُنا بالآخرة ويَزرعُ فينا هذا البأس مع الرحمة. لا بد لنا من قِيَمٍ عُلْيَا تنير طريقَنا، وإلا تحوّلَ جهادُنا إلى إرهابِ الناس وفَتْكٍ بالحَرَائِرِ والأيتام والضَّعفة. ليس القصد من جِهادنا الإغارةُ والغنيمةُ، بل إحقاقُ الحق والانتصارُ للمظلوم والبطولةُ الطاهرة.

ـ لقد فهمتُ قصدَك، لكني لا أجدُ لذَّةً إلى حين أصارعُ الموتَ وأنازِلُ البحرَ وأقاوِمُ الموجَ المتلاطِمَ.

ـ لن تَصِلَ إلى مبتغاك حتى تَنقطعَ منكَ شهوةُ الوصول. عندها يستيقظُ فيك الواعزُ الإنساني والهدفُ من هذه الحياة التي اسْتُوْهِبْتَهَا. أفلا تُفكّرُ فيما تصنعُ في هذه الدنيا، ولم خلقتَ، وما المراد منك ومن وجودِك؟ حاول أن تفكّرَ بعضَ الوقت في مثل هذه الأمور، عندها سَتَسْتَقِلُ كلَّ شَيْءٍ ويَهونُ عليكَ كلُّ شيء. وفي ذات الوقت ستستعظِمُ أمرَ الكونِ كُلّه. وستأبى أن تُزْهِقَ رُوحَ أَخَسِّ مَخلوقٍ تعرِفُه. الحياة شيء ثمين، فلا يجوز إهدارُها بدون مُبرّر إلا من أجل ذاتِ الحياة عينِها. لا يجوز إهدار الحياة إلا حين تكونُ الحياةُ مُهدَّدةً.

ـ لكأني أَخَالُ رضوان الجنوي يتكلَّم في أسواق المدينة ومساجدها. إنك تبدَّلْتَ من اليوم الذي التقيتُهُ فيه.

ـ وما العيبُ في أن أتكلم مثل رضوان الجنوي؟. ففي كل واحد منا نظيرٌ لرضوان الجنوي. يجب أن نَخرجَ من بين فرث ودم. ألا تريدُ أن تكون حليباً صافياً أيها المجاهد القوطي؟

ـ بلى، لكني أرى بياضي استحال أحمراً.

ـ فالبياض والحمرة ألوان، وماذا فوق اللون وقبله أو بعده؟ إنها حقيقة الأشياء يا أخي. انظر إلى الحليب الأبيض والحمرة، كلاهما يبتدئ بنفس الحرف لكنها اختلفا بعد ذلك تبعاً لحقيقة استعدادها، ووفق ما أعطته حقيقتهما اللونية. لا بياض ولا حمرة إلا لمن تحكُمُهُ الصِّفة. فَكُنْ بلا صفةٍ تُدْرِكِ الوُجودَ.

ـ أظنُّ أني لا أدركُ مَرَامِيَ حديثِك.

ـ لا بأسَ، بُورِكَ فيكَ وفي بطولاتك. ولنذهبْ لنستَعِدَّ لجولة أخرى في بلاد الرباط والجهاد. فإخواننا في العُدْوَة الأخرى ينتظرون الفرج. فارتقب إنهم مرتقبون.

اللواء السادس

حمَّ الأمر ونزل **الكتاب من الله العزيز الحكيم**. ساءت الأوضاع بعد وفاة فيليب الثاني ملك إسبانيا، واعتلى مكانَه ابنُه الملك فيليب الثالث عرش الإمبراطورية. ومع توليه الحكم أمر بالعفو عن الأندلسيين الذين لم يتمسَّحوا، وطالب الكنيسةَ بتعميد من لم يتعمَّدْ بعدُ. ثم إن البابا بولس الخامس منح عفواً شاملا للأندلسيين لمدة سنة شريطةَ أن يعترِفوا بأخطائهم. وخلال هذه المدة لم يتقدَّمْ أحدٌ منهم لكراسي الاعتراف وبقوا على ديانتهم متستِّرين. وتحرَّكتْ مرة أخرى محاكم التفتيش فعمَّدتْ عدداً منهم قَسْراً وأعدمت عدداً آخر شنقاً.

بدأت الأجواء تتلبَّد مرَّة أخرى بحق الأندلسيين سواء في غرناطة أو بلنسية أو أراغون، حيثُ كان يَقطُنُ غالبيتهم. وفي كل مرة يعتلي عرشَ إسبانيا ملكٌ إلا حامت نُذُرُ الشؤم على الأندلسيين، وتحرَّكتْ آلةُ المحاكم تقهر العباد والبلاد. كان فيليب الثالث رجلا ضعيفاً عاكفاً على اللهو، وتَرَكَ أَمْرَ إدارة البلاد للدُّوق ليرما الذي كان يقول:

ـ «لن تصبحَ ممالكُ إسبانيا نقيَّةً طاهرةً إلا بإقصاء الموريسكيين عنها».

أما أسقف بلنسية فقد صرَّح لفيليب الثالث بالقول «إن جميع الموريسكوس يُعتبرون كفاراً، لا فرق بين موريسكيي مملكة وأخرى. وكلُّهم مع الترك والبربر أعداء إسبانيا. فَالقُسُسُ يعمِّدونهم تحت الضغط وهم يَعْلَمُونَ أنهم يرجعون في الحال مسلمين. يسرقون الرجال والأطفال والنساء ويحملونهم إلى إفريقيا لِيُكْثِرُوا هناك من الكفَّار وأعداء الدولة».

وكاتب الدوقُ البابا بُولُسَ الخامسَ لتحديد موقف نهائي من الأندلسيين. وتم الاتفاق على تنصير من لم يتنصَّرْ بعدُ وتلقينهم أصول المسيحية وتغريب من يرفض ذلك. ونَصَّتِ اللجنة التي اجتمعت لدراسة الموقف من الأندلسيين على ما يلي:

أولا. كل الموريسكيين الذين لا يمارسون الطقوس المسيحية كفار.

ثانياً. تنصير جميع الأبناء واعتبار الآباء كفاراً.

ثالثاً. إذا تحققنا من أنهم ليسوا بنصارى، لا فائدة من إجبارهم على سماع الطقوس الكاثوليكية وتناول البركة والدعاء، مراعاة لحرمة ديننا المقدس.

رابعاً. طرد علمائهم وفقهائهم مِنْ قُرَاهُم.

خامساً. استلام اعترافاتهم وشكوكهم حول الدين المسيحي.

رُفِعَتْ نتائج هذه اللجنة إلى البابا الذي رفعها بدوره إلى فيليب الثالث. لكن الأندلسيين تجاهلوا القرار واستمروا مُتمسِّكين بدينهم. فتحوَّل الأمر إلى قرار نهائي بتغريبهم.

وصادف أن عُثِرَ على مخزن للسلاح في بلنسية فثارت ثائرة فيليب الثالث وركن إلى رأي القُسُس والدوق ليرما بتغريب الموريسكيين. ثم إن أهل بلنسية من الأندلسيين كانوا يسيطرون على كل مرافق الحياة الاقتصادية الحيوية. فمهما أثقلت الدولة كاهلَهم بالضرائب، كانوا دائماً يحرصون على استعادة ثرواتهم بالعمل والكد ولا يعيشون إلا عيشة التَّقلُّل والاقتصاد، ويخزنون أموالهم أو يساعدون بها إخوانهم. وكانوا يتكاثرون بسرعة ويتزوَّجون في سِنٍّ مبكِّرة لتعويض الخَصاص الذي كان يلحقهم جرَّاء القتل والحرق والنَّفي والتفريق. وتكدَّست لديهم الثَّروة فنَقِمَتْ عليهم الكنيسة. وجابهتها أسئلة صعبة، كيف يمكن القضاء على أُمَّة بيدها كل ثروة البلاد وخبرة العمل؟ ولم يكن القشتاليون ينافسونهم في حِذقهم وصناعاتهم وكَدِّهم ونشاطهم. لكنَّ النبلاءَ كانوا يُعارضون قرارَ الطَّرد حمايةً لمصالحهم الهائلة التي كانوا يُجْنُونَهَا من كَدِّ ونشاط الأندلسيين.

كانت سفن المجاهدين تمخر عباب البحار لتنقل الأندلسيين من ذل الاستعباد والقتل والحرق، وتوجَّهت غالبيَّتُها إلى بلاد المغرب. كما توجَّهت سفن أخرى إلى تونس والجزائر، وبعض المُغَرَّبين قَصَدَ الدولة العثمانية وآخرونَ فضَّلوا الذَّهابَ إلى فرنسا ودول الشمال في أوروبا. لم تَكُفَّ الحركة البحرية بين الضِّفتين رغم المخاطر والمواجهات الشَّرسة. أصبحت الملاحة في تلك المياه صعبة جدّاً.

أما السفن التجارية المحمَّلة بالبضائع الآتية من العالم الجديد أو

من الشرق الأقصى فكانت تقع ضحية لعمليات القرصنة.

كانت سفينة محمد معنينو دائرية الشكل لها أشرعة ومجاديف. وبها مدافع كثيرة. وغالباً ما كان البحارة يرفعون العلم الإسباني ليُغَرِّرُوا بالسفن الإسبانية. وما إن يقتربوا من السفينة التجارية حتى يتملكوها بسرعة فائقة. كان شِعار الغُزاة السلاويين الذي يُرْهِبُ أعداءَهم «أيها الكلاب، اسْتَسْلِمُوا لِأَهْلِ سَلا».

في إحدى القرى الصغيرة تدعى هورناتشوس، جنوب بطليوس في غرب الأندلس قريباً من الحدود مع البرتغال، كانت جماعة من الموريسكيين تعيش وفق عاداتها ودينها وتمارس التجارة. كما كان بعض أعضائها يقطعون الطرق على التجار الإسبان وينتقمون لما حلَّ بإخوانهم. تكدَّستْ في أيديهم ثروات كثيرة. ورغم الشكاوى التي كانت تُرفع ضِدَّهم إلا أنهم استَمَرُّوا مُتماسِكينَ نظراً لخُلُوِّ تلك المناطق من السُّكان ومجاورتها لمنطقة صحراوية. لم يكن بمقدور الدولة أن تعوِّضهم بغيرهم من القشتاليين، سواء في حِذقهم وبراعتهم في شتى الفنون والحِرف، أو بمُعَدَّلِ المداخيل التي كانوا يُدِرُّونَها على خزينة الدولة الإسبانية. لكنهم قايضوا مع الدولة الإسبانية أمرَ رحيلهم فهاجروا إلى رباط سلا واستوطنوا القصبة واشتغلوا في الملاحة ومهن البحر.

وفي سنة 1609، حدثت أشياء غريبة، كانت نذيرَ شُؤم بما سيحصل. اِكْتَسَحَ البلادَ جرادٌ كثيفٌ نَهَبَ الزُّروعَ والثِّمارَ، وأتى على الأخضر واليابس، فلم يترك ساقاً قائماً ولا شجرة بأوراقها. وأصاب

البلادَ زلازل متتابعة، واغْبَرَّتِ الأرضُ وتَلَبَّدَتِ السَّماءُ، وسَقَطَتْ شُهُبٌ لامعة، وضربت صواعق مخيفة ألهبت الأرض. وكثر الكلام على الحَدَثَانِ وعلى قُرْبِ خُروج الدَّجَّال ونهاية العَالم وقِيام السَّاعة. والناس في لَغْطٍ والمُرجفون في كل مكان يزايدون في هذه الأمور ويجمعون الأموالَ لقاءَ إخبارات زائفة.

أتت هذه الغرائبُ المتلاحقة بعد وباء الطاعون الذي أَوْدَى بالملايين مع بداية القرن 11 هـ/ 17 م.

لكن القشتاليين كانوا في عماية عما يحدث، ولم يفهموا إشارات السماء إلى الفتن العظيمة التي سَتُسَبِّبُهَا إسبانيا على نفسها وعلى أبنائها. ودَاخَلَ الشَّكُّ بعض القشتاليين بأن هذه الآيات هي من سوء معاملة الأندلسيين فغيَّرَ البعضُ منهم دينَه، وهاجر إلى بلاد أخرى. وتأوَّل آخرون هذه الآيات أنها من تَمَاطُلِ الحُكَّام في الفتك بالأندلسيين، وأن الرَّبَّ غاضبٌ منهم إذا لم يُطَهِّروا إسبانيا الكاثوليكية من هؤلاء الرَّهْطِ وهذه الأُمَّة المارقة الكافرة وهذا الدين الملعون.

أيُّ ربٍّ زائف يقبل بمثل هذه الجرائم؟ ألا يرتاح ربُّهم إلا في سفْكِ الدماء وتعذيب الخلق؟ ما أتعسَهم؟ وما أتعسَ كذبهم عليه؟ لكنهم اعتادوا على تلبيس غيرهم نتائج حماقاتهم. ألم يقولوا من قبل بأن المسيح صُلِبَ لِيَحْمِلَ خطايا المذنبين؟ إن من اعتاد أن يَرْكَنَ إلى مثل هذا الاعتقاد لابد وأن يَقْبَلَ كلَّ تبرير للقتل والتَّدمير باسم الرب، مادام أن هناك من سيحمل كل هذه الرَّزَايَا. أفلا يستيقظ

ضمير هؤلاء من هذا الضلال؟ لا يتحمل أخطاء الإنسان إلا الإنسان. كل واحد وما صَنَعَتْ يداه. هذه هي الحرية، وهذا هو العدل الذي يقبله كل مخلوق. فالقطة حين تسرقُ قطعةَ لحم تَهْرُبُ لأنها أدركتْ بالغريزة أنها فعلَتْ منكراً. لكنك حين تقذِفُ لها بنفس القطعة فإنها تُبَصْبِصُ لك وترفع ذيلها وتقترب منك لأنها أدركتْ أنها في أَمْنٍ من بَوَائِقِكَ وشرورِكَ. فإذا كان هذا في الحيوان، أَفَيَخْتَلِفُ الأمرُ عند الإنسان؟ كلا، إنه نفسُ القانون الذي يحكُمُ الخلقَ جميعاً. لقد أصاب إسبانيا جنون عجيب فأرادت أن تَقْضِي على نفسها. كانت شعلةً بين الأمم لا تُضاهِيها أُمَّةٌ أخرى في تقدُّمِها، فقامت عناصر الفساد والتَّدمير تُشَكِّكُ في كل هذا وتدعو إلى تطهير الأرض من كل هذا.

أما في الجانب الآخر، فقد كثرت شؤون الحدثان أيضاً عند أهل الأندلس وظهرت فيهم نبوءات كثيرة منها ما هو مُرَوِّعٌ ومنها ما هو مُبَشِّرٌ مِنْ قَبِيلِ فَتْحِ البلاد مرّةً أخرى «سوف تُفْتَحُ إسبانيا من جديد... وسيمشي الفاتحون في خُطَى طارق، وسينفتح الطريق أمامَهم في صورة خارقة. وفي مضيق جبل طارق سوف يظهر جسر من حديد، وسوف يَعْبُرُ العربُ فوقَه، وسوف يفتحون إسبانيا وسوف يَصِلُونَ إلى جِلِّيقِيَّة».

كانت آمال الناس تنعكس على إدراكاتهم ووعيهم فتنشأ الحكايات والقصص وتتحوّل إلى حقائق. كل هذا مشروع، وكل هذا مقبول. لكن الحد الفاصل بين المشروعية ونقيضها يتمثل في

إبقاء الحياة وزرع الأمل وعدم الانسياق أمام نوازع الشر والباطل والتدمير وسفك الدماء.

* * *

كنتُ أجوبُ تلك الأصقاع بأسطول صغير من السفن الجهادية في شرق الأندلس نواحي بلنسية، إذ بها عدد كبير من أهل الأندلس، كما أن شواطئها سهلة. ضرب القشتاليون الحراسة بسفن كثيرة، لكننا كنا نتحايل عليهم فنرفع أعلاماً إسبانية نوهمهم بها أننا من أسطولهم، حتى إذا واتتنا الفرصة نقلنا إخواننا ورحلنا بهم. كنا نلجأ إلى رشوة الجند وكل المتنفذين لإنقاذ إخواننا. شغَّلْنَا معنا العيون والجواسيس لكي ينقلوا لنا تحركات الجند. لقد كانت عمليات تطبعها الخطورة والمغامرة، لكن لم يكن أمامنا حل آخر.

في نهاية صيف 1609، بدأت تصل إلى سكان الأندلس الموريسكيين إشاعات غير سارة. تَعَجَّلَ بعض الأُسَرِ أَمْرَ هذه الأخبار غير السَّارة فهاجرت خُفْيَةً، لكن السَّوادَ الأعظم لم يُعِرِ الأمرَ أهمية، ودأبوا على ممارسة حياتهم كما اعتادوا.

بعد انتهاء الحصاد وجني الغِلال من الحقول الذهبية، مرَّ نسيمٌ عليل على امرأة حزينة كانت تَكِدُّ في عملها. شَعرتْ بحزن عميق على فِراقِ ابْنَتِهَا فرفعتْ صوتَها بالغناء غيرَ آبِهَةٍ بمن سيسمَعُها من العيون أو الجواسيس.

يقولون إن علينا الرحيل

تباعاً إلى أرضنا الطيبة

هناك الجبال وراء الجبال

من التِّبْر والفضَّة الخالصة

لقد ذَلَّ مَنْ يبتغي طردَنا

لنذهبْ معاً إخوتي

لنذهب معاً كلنا

إلى الخير والوَفْرِ يا إخوتي

إلى أمّة من العرب مثلنا.

وقف الفلاحون يستمعون إلى هذا الصوت الحزين وهذه الأغنية الحزينة ومرَّت سحابة فوق شمس بادية بلنسية فغطَّت لهبها. استمرَّت المرأة في الغناء وردَّدتِ النساءُ معها. كنَّ يعملن ويغنين، لا يهمُّهنَّ من أَمْرِهِنَّ شيء. أما الرجال فكانوا يُنصِتونَ في ضراعة وخشوع. ردَّدَتِ المرأة أغنيَّتها، وحَفِظَهَا أبناءُ جِلْدَتِهَا وردَّدَها الأطفال وانتشرتْ تلك الأغنية في كلِّ الحقول وبين جميع الأسر الأندلسية.

رجعتِ المرأة إلى بيتها فوجدتْ زوجَها العجوز الذي أثقلتْ دهره الهموم جالساً كعادته ينظرُ عبر شباك الكوخ إلى جهة الشرق. كان غارقاً في تأملاته، لا يتكلم ولا يتحرَّك إلا ليعودَ إلى نافذته كأنه يُعايِنُ شيئاً قادماً. لا يدري ما هو، قريبٌ غائبٌ أو خَبَر مُفْرِحٌ أو مُتْرِحٌ. دخلتْ عليه زوجتُه وقبَّلت جبينَه، فابتسم إلى ناحيتها ثم رأى عينيها الذَّابلتين بالحزن وَوَجْهَهَا المُمْتَقِع، فاستفهمها بعينيه وحاله. كانت حليمة قد اعتادت على صمت زوجها منذ خُطِفَتْ منهما ابنتُهُما

الوحيدة. فكانت تفهم إيماءاته فتترجمُها صيغاً كلامية ثم تجيب عنها. كان السؤال والجواب من حليمة. أما زوجها فكان يشير برأسه مظهراً لها امتنانَه على حسن فهمها لما بداخله وترجمته إلى عالم القول والقائلين. إنه حوار افتراضي بين أبكم وناطقة.

ـ ما ذا جرى لك يا حليمة؟

ـ وماذا يمكن أن يجري مما لم يَجْرِ بَعْدُ؟

ـ إني أرى ذبولَ عينيكِ وامتقاعَ لونِكِ، فَهَلْ أصابَكِ مكروه؟

ـ يومَ أن فَصَلُوا عني فِلْذَةَ كَبِدي وأنا في هذا المكروه الأبدي.

ـ لا تفتحي هذا الموضوع مرة أخرى يا حليمة.

ـ وهل في الدنيا موضوعٌ غيرُهُ يا مصطفى؟

ـ نعم، عَجَلةُ الحياة تجري بدون انقطاع.

ـ بل، قل عَجَلةُ الموت تدوس كلَّ حي.

ـ أما يكفيكِ ما نحن فيه من النَّكَدِ حتى تُردِّدي كلَّ لحظةٍ وحِينٍ هذا الحديثَ المُنَغِّصَ.

ـ أَتَسْتَكْثِرُ على أُمٍّ نُزِعَ عنها فَصِيلُهَا أَنْ تُرْغِي كالنَّاقة الشَّاردة؟

ـ يا أمَّ بِنْتِهَا، استعيني بالصبر والصلاة على مُصابِنا.

ـ لقد غنَّيتُ اليومَ في الحقل أغنيَّةً حزينةً. لقد ضاقتْ عليَّ الأرض بما رَحُبَتْ فلم أَعُدْ أشعرُ بأحدٍ وانزَوَتْ أمام ناظري لمعةُ الأمل بضرورة الهجرة. لم أَعُدْ أتحمَّلُ البقاءَ هنا يا مصطفى.

ـ وأنا مثلُكِ تماماً، أنتظر الذي يأتي ولا يأتي. لقد نُفِينَا من أرضنا ونُهِبَتْ منَّا ممتلكاتُنا. شرَّدونا ونزعوا ما كان بأيدنا ورحَّلونا

إلى هنا، وأخذوا بنتّنا الوحيدة. لم يَعُدْ يَطيبُ لي المقام بهذه البلاد.

ـ وكيف نقوى على السفر يا مصطفى وليس لدينا مال يعيننا على هذه المخاطرة.

ـ وماذا لو خرجنا ليلا إلى أحد الخلجان في الساحل نترصَّدُ سفينةً جهادية تُقِلُّنا إلى عُدوة المغرب؟

ـ أنتَ من يقول هذا، وماذا لو قبض علينا عمّالُ محاكم التفتيش؟

ـ وهل تَرَيْنَ وضعَنا هنا أفضلَ، لابد من المخاطرة. هناك فرصة من اثنتين للنجاة، فلماذا لا نحاول؟ ثم ما يَضيرُنا إن حصل ما نكره، فلم يعد للحياة طعمٌ يُذْكَرُ.

ـ إن أشدَّ ما يربطني إلى هذه البلاد اليومَ هو أن أجد يوماً ما ابنتي التي نُزِعَتْ مني.

ـ وحتى لو عثرنا عليها، هل تظنين أنها ستعرفُكِ. وإن عرفَتْكِ، فهل تعتقدين أنها ستنحاشُ إلى أهلها؟ لعلّها اليومَ مسيحية متزوجة من أحدهم ولها بيت وأولاد وزوج يرعاها. لقد أراد الله لها غير ما أمَّلْنَا لها. فهل نملكُ إلا الرِّضا بحكم الله.

ـ لا تَذْكُرْ على لسانِك هذه الافتراضات التي تَفْطُرُ قلبي وتُدْمِي فؤادي.

ـ عفواً حليمة، ما كنت أقصدُ إذايَتَكِ، ولكني أرغبُ إليك في نسيان الماضي. فليس لنا أحد إلا الله. ليس لنا أهل ولا أولاد كسائر الناس هنا. ولكل هذا أرى أن نُحاوِلَ الفرار من هذا الجحيم.

مرَّتْ أيام هادئة في بيت مصطفى وحليمة، كانت أشبهَ بالهدوء الذي يَسْبِقُ العاصفة.

وفي صباح يوم الاثنين الثاني والعشرين من سبتمبر 1609 م. الموافق للثاني من شوال سنة 1018 هـ.، بينما كانت المرأة مع بعلها يتناولان فطوراً بسيطاً، دوَّتْ كنيسة القرية دوياً طويلا، فتشاءمت المرأة من هذا القرع غير المعتاد لناقوس الكنيسة. لكأن الراهب المكلَّف بشدِّ الحبل يرسل رسالةَ تَحَمُّسِهِ قويةً إلى أبناء البلدة. نظرتِ المرأةُ ناحيةَ زوجها وقالت له كعادتها في طرح السؤال والجواب بالنيابة:

ـ ما لهذا الفظيع يَكْسِرُ آذاننا هذا الصباح. إني أَشْتَمُّ رائحةَ الغَدْرِ في هذا القَرْعِ المستمر.

ـ وماذا سيصيبنا مما لم يُصِبْنَا بَعْدُ من هؤلاء الخُبَثَاء؟

ـ يا مصطفى إن حمام حواميم الحياة والموت ترفرف منذ 117 سنة على سقوط مملكة غرناطة.

ـ إنني أشعر أنها بداية النهاية يا حليمة.

ثم طرقَ مسامِعَهُمْ صوتُ منادٍ يصيحُ بالقشتالية منادياً على أهل القرية القريبة من بلنسية يقول:

يا أهل القرية اخرجوا إلى الساحة العمومية، جلالةُ الملكِ يخاطِبُكُمْ.

ـ أما قلتُ لكَ إن الأمر مُدَبَّرٌ بِلَيْلٍ، ولكأني كنتُ أتوقَّعُ شيئاً رهيباً.

ـ لا تكوني متشائمةً أكثرَ من اللازم يا حليمةُ، ودَعِينَا نرى ما سيقولُه البَرَّاحُ.

خرج مصطفى مُمْسكاً بيد زوجته حليمة، كما يمسك الأعمى بعصاه في ظلمته الوجودية. لم يعد له سواها، ولم يبقَ لها سواه. تَشَبَّتَ كُلٌّ منهما بصاحبه مخافةَ أن يَفْلِتَ منه. تقدَّمَا في بطء إلى الساحة العمومية. وتقاطر الناسُ زرافات وَوُحْداناً، فِيهِمُ العليلُ والسَّقيم والصَّحيح والشيخ والطفل والأرملة وصاحب الحاجة والمُقْعَد والكَفيف والشاب والشابة. كانت أعينهم حزينةً يملؤُها الفُضولُ وتَنْطِقُ بالأسى. كانوا يَتَوَقَّعُونَ مزيداً من الشُرور. هل سينزعون منهم مرّة أخرى أموالَهم التي جَنَوْهَا بِعَرَقِ جبينهم؟ هل سَيُرغمونهم على التنصير مرة أخرى وشهود القُدَّاس كل يوم؟ لقد ألزموهم سابقاً بالتَّعميد لكنهم استمروا وفق معتقداتهم التي كانوا يَأْنَسُونَ إليها ويُنَافِحُونَ من أجل نُصْرَتِها بدمائهم وأرواحهم. فماذا سيطلبون منهم اليوم؟

كانت النَّظرات منزعجة فيها بحرٌ من القهر، وسَرَابٌ من الأمل. تَلَفَّتَتِ الوجوهُ لبعضها تستفهِمُ وتَسْتَنْطِقُ عن سرّ هذه النّداء المُباغِت المُبَكِّر. كانت العيونُ تُرسِل رسائلَ متضاربة. لم تَصْفُ النَّظْرَةُ في العيون بل خالَطَتْهَا كُدْرَةٌ شوَّشَتْ على التواصل. اصطفَّ جميع سكان القرية في الساحة العمومية وصَكَّ الآذانَ صوتُ النَّاقوس الذي لم يَكُفّ عن القَرْع. ثم دوَّتِ الطبول ورُفِعَتِ البُنودُ الملكيَّة ووقف البَرَّاحُ على فرس، وحولَه مجموعةٌ من الإقطاعيِّين والقَساوسة ورئيس

الجند مع بعض رجاله. كما توزَّع جنود آخرون على كل جنبات الساحة يحملون أسلحَتَهم الحديدية والنَّارية. طلب البَرَّاح من الجميع الالتزامَ بالهدوء وأعلَمَهم بصدور مرسوم ملكي.

حتى الحَمَامُ فَزِعَ من هذه الجلبة غير المعتادة. لقد كانت القرية ملاذاً آمِناً لِسِرْبٍ يَعْمُرُهَا هَديلا. إِنْتَبَهَتْ حليمةُ التي كانت تحكي **الحياةَ** بنطقها وزوجُها يحكي **الموت** بصمته، إلى شريك عمرها ومحنتها وآمالها، فقالت له كعادتهما في محاوراتهما الافتراضية بلسان المرأة:

ـ ما بالُ حَمَامِنَا قد غادر القَرْيَةَ؟

ـ لقد حَلَّ الحِمَامُ مَحَلَّ الحَمَامِ يا حليمةُ. اللهمَّ الْطُفْ بنا.

عاين مصطفى سرب الحمام الذي انفصل إلى سربين، وكان من عادة مصطفى منذ أن كفَّ عن النطق، يشغل وقته بِعَدِّ كل شيء يقع عليه بصره. ورغم ما هم فيه من هول هذا الحشد، فقد عمل على عَدِّ السربين، فرأى ثمان عشرة حمامة تشكل كلمة «حي» في سماء القرية. ثم رأى تسعاً وتسعين حمامة في السرب الثاني على شكل كلمة «الحَيْن». لم يمنع مصطفى خاطراً مرَّ بذهنه، هاهو الحمام ينعي هذه الأمة الطريدة إلى حَيْنِ الهلاك، في حين ستنجو القلة إلى عين الحياة. ثم أردف قائلا: الحمد لله بجميع ألوية المحامد.

كحَّ البَرَّاحُ ثلاثَ كَحَّاتٍ ورفَعَ صوتَه المُنْكَرَ المزعج قائلا:

باسم الآب والابن والروح القدس، وَوِفْقَ أوامرِ جلالة الملك فيليب الثالث صدر المرسوم الملكي التالي:

1. «على سائر الموريسكيين في المملكة رجالا ونساء وأطفالا أينما كانوا أن يسارعوا خلال ثلاثة أيام من صدور هذا المرسوم إلى إخلاء منازلهم والاتجاه بِإِمْرَةِ مُفوَّض الدولة المسؤول عنهم، وذلك للإبحار إلى المغرب على متن المراكب والسفن التي استعارَتْها الدولة لهذا الغرض، ومُنصاعين لأوامر المُفوَّض، آخذين معهم من ممتلكاتهم المنقولة ما يمكن حمله على ظهورهم... وكل من يتخلَّف عن تنفيذ هذا المرسوم يُعرِّض نفسَه للهلاك المحقَّق.

2. يَحِقُّ لأي إسباني صادف موريسكياً خارج منطقته في الطريق بعد الأيام الثلاثة المحدَّدة أن يستولي على ما معه. وإن أبدى الموريسكي أيَّ مقاومة، للإسباني أن يقتله أو أن يُسَلِّمَه إلى أقرب مركز حكومي لكي تأخذَ العدالةُ مجراها.

3. على الموريسكيين بعد الاطلاع على نصِّ هذا المرسوم، البقاء حيث هم إلى أن يحضر مُفوَّض الدولة الخاص بهم وينقلهم إلى الموانئ المحددة للإبحار إلى المغرب. ومن يخالف ذلك يُعرِّض نفسه إلى الهلاك.

4. يحكم بالموت على كل موريسكي أخفى شيئاً من أمواله أو ممتلكاته مما يعجز عن حمله، أو أحرق أو أَتْلَفَ بيتاً أو مزرعة أو شجرة أو أيَّ ممتلكات، وتنزل العقوبةُ ذاتُها بأيِّ جارٍ تكتَّم على مثل هذه الأعمال لأن المرسومَ يوجبُ على الموريسكيين إبقاءَ الممتلكات التي يعجزون عن حملها فتؤول إلى صاحب الإقطاعية.

5. لِيبقَ أُسَرٍ موريسكية فقط البقاء في كل بلدة تضمُّ 100 أسرة مسيحية شرط أن تتألف هذه الأسر من كبار السن، وألا يكون أبناؤهم متزوجين، وأن يكونوا تحت رعاية الأبوين. ويختارُ هذه الأسرَ أصحابُ الإقطاعيات من بين أكثر السكان الموريسكيين تمسكاً بالمسيحية بهدف تعليم السكان الجُدد زراعةَ قصبِ السُكر وصناعة السكر وتكريره وإتقان توضيب مساكب الرُزّ وسقيه وحصاده وسقاية الأرض عامة وصيانة البيوت.

6. يحظر على المسيحيين القدماء إخفاء أي موريسكي أو مساعدته أو عدم الإبلاغ عنه إن تغيَّب، ويحكم على من يقدم على مثل هذا العمل بالشغل ست سنوات على القواديس أو أي أحكام نُقرّها.

7. ليعلم كل الموريسكيين أن رغبة الملك هي تهجيرهم من مملكته وليس مضايقتهم، حتى يصلوا إلى الشواطئ المغربية بأمان. لذا يسمح لعشرة موريسكيين في كل رحلة العودة على المراكب التي أقلّتهم لإبلاغ إخوانهم بسلامة الوصول وحسن المعاملة. ويكتب إلى المفوضين والمسؤولين عن المراكب بذلك فلا يسمح لأي جندي أو بحار بالإساءة إلى المهجرين قولا أو فعلا.

9. للأطفال الموريسكيين الذين تَقِلُّ أعمارُهم أو أعمارهن عن الرابعة البقاء في البلاد شرط موافقة الأبوين أو الوصي على ذلك.

10. يسمح لأطفال الموريسكيين ممن تقلُّ أعمارهم أو أعمارهن عن ست سنوات، وينحدرون من آباء مسيحيين قدماء كبار السن البقاء مع أمهاتهم. كما يسمح لأطفال الموريسكيين المنحدرين من

أمهات مسيحيات قديمات البقاء في البلاد مع أمهاتهم إذا كانت أعمارهم أو أعمارهن تقل عن السادسة، فيما يطرد الآباء.

11. يسمح للموريسكيين المقيمين بين النصارى القدماء البقاء في المملكة إن لم يكونوا انتسبوا إلى رابطة الجوامع الموريسكية قبل سنين من صدور هذا المرسوم.

12. يسمح ببقاء الموريسكيين الذين لُقِّنوا أسرار الكنيسة وعُمِّدوا بمعرفة رئيس الدير بناء على توصيات المُعَرِّفِينَ (عمال محاكم التفتيش) القاطنين في مناطقهم.

13. يوافق صاحب الجلالة على أن يتوجه أي موريسكي إلى أي مملكة أخرى يرغب في الذهاب إليها شرط ألا يعبرَ في طريقه عبر مقاطعات إسبانية، وأن يتم ذلك ضمن المدة التي حدَّدها المرسوم.

هذه هي رغبة صاحب الجلالة، ومن لا يُنَفِّذْ ما جاء في هذا المرسوم الملكي يُعَرِّضُ نفسَه لأقصى العقوبات».

كانت الهمهمات والاستغراب بادياً على الوجوه. أما بعض الأطفال الصِّغار فكانوا يضحكون ويلعبون سَادِرِينَ عن هذا الذي يُحاكُ من أجل قرصنة ومُصادرة مستقبلهم وحياتهم. إنهم من مملكة الفرح، لم يسبق أن رَأَوْا هذا الحشدَ الهائل من الأهالي والجند والقساوسة والنبلاء في صعيد واحد يستمعون إلى هذا الزَّامر الذي يَنْفُخُ في بُوقِهِ بعد كل بَنْدٍ من بنود المرسوم. كان هذا الفعل مقصوداً لتفادي صدور التعليقات والاعتراضات المُتوقَّعة في مثل هذه المَوَاطِن.

نظرتْ حليمةُ إلى مصطفى وشدَّتْ على يده بقوة. لقد كانت العَبْرَةُ تخنُقُها والألَمُ يعتصِرُها من صَفْحَةِ هذا الابتلاء الجديد في كتاب الابتلاءات الذي خطَّتْهُ إسبانيا ضدَّ أبنائها. لم يملكِ المسكينُ إلا أن ضَمَّ زوجته إليه مخافة أن يفصلوها عنه. لم يعد له أمل في الحياة سوى في حليمة. ولم يعد لها أمل في الحياة سواه. لم يكونا كالغريقين أحدُهُما أَحْرَصُ على النَّجاة من صاحبه، بل كانا كالهائِمَيْنِ في مَهَامِهِ القِفَارِ كلاهما أحرصُ من صاحبه على بقائهما معاً.

دقَّتِ الطُّبول مرَّة أخرى وصَوَّتَ النَّاقوسُ بِنَقْصِ النَّاس والأرض. فَرَكَ القشتاليون أيديهم واستبشر الإقطاعيون الذين سيملكون الأرض وخيراتها، وقَلِقَ آخرونَ من التَّزيفِ الذي سيُحدِثه التَّهجير. أمَّا القساوسة فَجَثَوْا على الأرض يباركون مرسوم جلالة الملك ويرسمون علامة الصليب بانتصار مِلَّةِ الرَّبِّ على مِلَّةِ الكفر. وبدأوا ينشدون هَلِّلُويَا، هَلِّلُويا. كانت الكنيسة أكبرَ ملاَّكٍ للأراضي الزراعية في إسبانيا كلِّها. كانت أراضٍ سُلِبَتْ من أصحابها المسلمين.

غادر الموريسكيون في صمت إلى بيوتهم. لكن حليمةَ غنَّت أغنيَّتَها فردَّدَ الأطفالُ والنِّساءُ بعدَها. حدث ما لم تجرؤ عليه إيزابيلا ولا فرديناند، ولا كارلوس الخامس ولا فيليب الثاني. حَدَثَ هذا مَعَ مَنْ فَلَتَ مِنْهُ لُبُّهُ ثلاث مرات (فيـ ليب الثالث). لقد أفلس فيليب، وأفلس مَنْ حوْلَه، وأفلست إسبانيا، وأفلست أوروبا، وأفلس المسلمون الذين لم يستطيعوا أن ينصروا إخوانهم، وأفلس أولا وأخيراً الإنسان. لقد عمدت إسبانيا والكنيسة إلى هذا المرسوم في

ظل انشغال المغرب بشؤونه الداخلية وتَصَارُعِ أبناء السلطان أحمد المنصور على الحكم. ما كان هذا لِيَحْدُثَ لو كان يحكم المغرب سلطان قوي. لقد عَدِمَ الأندلسيون النَّصير والأخَ الأكبر الذي كان دائماً سنداً لهم. حينما تراجع المغرب حَدثَتِ الكارثةُ.

أمسكتِ الأمَّهات بأطفالهن، والرِّجالُ بنسائهن وغادر الفلاحون ودموعُهُمْ تروي أرضَ الأندلس الرَّطيب الذي أَذْوَاهُ قَحْطُ قشتالة. كانوا كمن يُشَيِّعُ نفسَه إلى مثواه الأخير، وكمن يَحْمِلُ نعشَهُ على كتفيه. الحزنُ يَعْصِرُ النُّفوسَ عَصْراً بليغاً، والكآبةُ تسيل على الأرض في الخُطى الهائمة. لم يبق أملٌ في عودة طارق بن زياد. لقد مات الأمل نهائياً. عاينَ الغُرباءُ جهة البحر لعلهم يلمحون آتياً من حيث تَطلعُ الشمس، فلم يَلْمَحُوا شيئاً. كان كل شيء قد انتهى.

رجع مصطفى مع حليمة إلى كوخهما يمشيان مشية الموت والحياة. ماذا يجمعون، وماذا يحملون؟ ليس معهم ما يدفعون به أجرة تلك المراكب التي ستُقِلُّهم إلى المغرب. وحتى لو كان معهم نقود أو ذهب أو فضة، فلن يسمحوا لهم بأخذها. الحُرقةُ تقطعُ الأكباد من هَجْرِ الأوطان. لم يكن لديهم ثِقة في هذا المرسوم وتطبيقاته. مَنْ سَيَضْمَنُ لهم أنهم لن يرموا بهم في عرض البحر لتأكلهم الحيتان؟ لقد دَشَّنَتِ الملكيةُ والكنيسة مسلسلا طويلا من الغدر والكذب ونَكْثِ العُهود والخيانة منذ توقيع معاهدة تسليم مملكة غرناطة. فلماذا سيتغيَّر الوضعُ اليومَ، والحالُ أسوءَ من ذي قبل؟

عمَّتِ الفوضى وأصابَ الناسَ الذُّعرُ والفزع وظنوا أنهم إنما تعلَّلوا بهذا المرسوم لإفنائهم حَالَمَا يصعدون المراكبَ.

أخذ بعض القشتاليين يرقصون في ساحة القرية ويغمزون بعيونهم ويتوعَّدون جيرانَهم الموريسكيين. لكن بعضَهم الآخر كان حزيناً كاسفَ البَصَرِ مَوْجوعَ الفؤاد مَكْلومَ النفس مما سمع. لم يأمر السيد المسيح بهذا الظلم.

شَبَّ الخَبرُ في عموم البلاد كما يَشِبُّ الحريق في الهَشِيمِ اليابس. لقد يَبُسَتْ فعلا إسبانيا. أصبَحتْ تبناً، قابلا للاشتعال. لم تعد أرض السَّمن والعسل، أرضَ الثِّمار والأطايب، أرضَ السنبلة الخضراء والفراشة البيضاء والنَّحلة السوداء. عادت لوناً واحداً. ظلمات بعضها فوق بعض.

قرئ نفس المرسوم في كل مكان. وفي نفس السنة أمام الساحة الكبرى في إشبيلية كان الحاكم العام واقفاً وبجانبه رئيس الجند والنبلاء والقساوسة. كان الفرسانُ والجندُ يُطوِّقونَ الساحةَ المكتظة بالموريسكيين والقشتاليين. كان الجميع ينتظر قراءة نفس المرسوم. وفي جانب مرتفع من الساحة وقف كهل جاحظُ العينين متوسط القامة، وعلى ثيابه المتَّسِخة بقايا بُقَع مُلوَّنة. كان حوله مجموعة من الفتيان والشباب. كلَّم الرجل طلبَته وقال لهم:

ـ أريدكم أن تنتبهوا جيداً إلى هذا المشهد وأن تُصوِّروا في أذهانكم، جميعَ الحاضرين في هذه الساحة.

تكلَّم دييغو البالغ من العمر عشْرَ سنوات، فقال لأستاذه:

ـ وما الداعي لذلك يا سيدي؟

ـ دائماً تُتْعِبني بأسئلتك أيها البرتغالي. ألا تفهمُ فنَّ الرسم؟ يجب أن تَعْلَمَ أنَّ على الفنان أن يُراقِبَ كلَّ التَّفاصيل ويصوِّر كل التَّعابير ويلتقط كل الخَلَجَاتِ بريشته. فافتحْ عينيك جيِّداً.

ـ سأفتَحُهُما جيداً يا سيدي، لكنني لا أرى إلا رجالا ونساء وأطفالا في هذه الساحة.

ـ أطلبُ منك أن ترى في دواخل هؤلاء جميعاً لتستخرج مشاعرهم وأحاسيسهم. هل تُدرِكُ ما أقولُ لك؟ أم تريدني أن أطرُدَك من مُحْتَرَفِي نهائياً؟

ـ لا يا سيدي، وأنت تَعْلَمُ أنَّ والدي لم يُوافقْ إلا مُكرهاً على تعلُّمي فنَّ الرسم، بعدَ أنِ اسْتَعْطَفَتْ والدتي السيدة فيلاسكيز لإقناعه بالسماح لي.

ـ أبوك لا يفهم الفن. أما الآن، هيَّا دَعْنَا نشتغل، وانتبهْ إلى ما ذكرتُ لك. حاوِلْ أن تلتقطَ المشاعرَ الدَّفينة في الْتِفَاتَةِ وَجْهٍ وطَرْفَةِ عَيْنٍ ونظرةٍ مُخْتَلِجَةٍ مُبْهَمَة. حاولْ أن تُميِّزَ بين مشاعر الغضب والفرح والقلق والخوف وغيرها. ففي كل نظرة خليطٌ عجيب من هذه المشاعر، لكنَّ الفنان يجبُ أن يكونَ قادراً على تَلَمُّسِ طريقه في هذه المتاهة الشُّعورية لِيُدرِكَ الإحساسَ الغالبَ على الشخص مَوضوعِ اللوحة في اللحظة التي يرسمها. حاولْ أن ترسمَ شيئاً عن هذا المشهد.

كان دييغو فلاسكيز متضايقاً من أستاذه المتبرِّم دوماً بالدنيا

وأهلِها، كما كان يكره جِدَّته ومزاجيَّته المفرطةَ وغضبَه المفاجئ الذي لا يُمْهِلُكَ إلا لِيُصيبَك بشرارة مباغتة. لكنه كان مَدِيناً له بالكثير من النَّصائح الدَّقيقة حول فنِّ الرسم الذي كان يهواه بشغف كبير.

قُرِئَ المرسوم وحاوَلَ دييغو عبثاً أن يلتقطَ شيئاً من تلك الأحاسيس التي تحدَّثَ عنها أستاذُه فرانسيسكو هيريرا، لكنه لم يلمح إلا أصواتاً وضجيجاً. فكيف يرسم الضجيج؟ لم يعلِّمْه أستاذُه بعدُ أن يرسَمَ ذلك.

ولما انفضَّ الجَمْعُ وغادر السَّاحةَ مَنْ بها، أمرَ الأستاذُ طلبَتَهُ أن يخبروه بما رأوا، فلم يزيدوا على أن ذكروا له أنهم رأوا جمعاً كبيراً وجلبة ومنادياً يقرأ مرسوماً ملكياً. فقال لهم:

- ألم تبصروا الخوفَ والهلعَ الذي كان على وجوه الموريسكيين؟ ألم تلتقطوا الجَشَعَ الذي كان على وجوه النبلاء والفلاحين القشتاليين؟ ألم تلحظوا التديُّن النَّاقم على وجوه القساوسة؟ ألم تتبيَّنوا الكراهية المنبعثة من بعض الوجوه؟

أجاب دييغو:

- لم ألحظ ذلك يا سيدي، لكنني سمعتُ جَلَبَةً وصراخاً، فلم أَهْتَدِ إلى كيفية تصويره. لقد تبين لي أن فن الرسم والتصوير أخرس، فلم أهتد إلى كيفية رسم الأصوات.

- إنك دائماً تثير لنا مشاكل جانبية يا فيلاسكيز. لقد أمرتكم أن تَتَبَّعوا التعابيرَ المختلفة للوجوه، والنظرات الحاملة لدلالات لا متناهية من الأحاسيس. لقد غلب عليكم هذا الأسلوب الإيطالي

المتخلِّف في الرسم. لكني سأعطيكم فرصة أخرى بعد ثلاثة أيام حين يغادر الموريسكيون. هيا بنا الآن نعود إلى المُحترَف لنُكمِلَ التَّمرُّن على نتائج جولة اليوم. لقد اتخذتم نصائحي هزؤاً لكن الكبرياء لله **العزيز الحكيم**.

اللواء السابع

حمَّ رمل الكثبان ونزل الكتاب من الله العزيز الحكيم. اجتمع كبار الموريسكيين والفقهاء المتخفين في مدنهم وقراهم وتداولوا فيما بينهم. اتفقوا على عدم القيام بانتفاضة مثل التي حدثت في التاريخ الحافل بالصراع من أجل الدفاع عن حقوقهم المشروعة. لم يلتزم الإسبان ببنود المرسوم، ولم يستثنوا الأُسَرَ السِّتَّة بين مائة أسرة مسيحية، بل شمِلَ الطَّردُ الجَميعَ. وحتى من كان يرغب في البقاء لأسباب كثيرة أدركَ أن النهاية حلَّت وأنه لا مفرَّ من التشريد. كانت قريةُ حليمة ومصطفى بعد طردهما من غرناطة، كسائر قرى الأندلس ومُدنِها مَأْتَماً جماعياً. بكاء ونحيب وصراخ. وفي الجهة الأخرى امتلأت الخمَّارات بالسكارى على إيقاعات ناقمة جَشِعَة. كان الرَّعاعُ والسَّفَلَةُ في حاجة إلى الانتقام من أي شيء. لَكَمْ هُوَ سَهْلٌ أنْ تُجَنِّدَ الدَّهْمَاءَ في قضايا واهمة؟ ما عليك إلا أن تُعَيِّنَ لهم عَدُوَّهُمْ واتْرُكِ الباقي لهم. لا تَتدخَّلْ ولا تُكلِّفْ نفسَك أن تتدخَّل، فإنهم سيكفونَك أَمْرَه. كم دخلوا من بيتٍ وكم كسروا؟ وكم بَقَرُوا من بطن؟ وكم اغتصبَ الفُسَّاقُ والأراذِلُ مِنَ العَذَارَى؟ أمَّةٌ بكاملها قُدِّمَتْ قُرْباناً

للذِّئابِ، ينهشونَ أوصالها لتشعرَ إسبانيا أنها أمّةٌ كاثوليكية تَقِيَّة نقيَّة.

ثم استسلم الجميع لقَدَرِهِمْ واعترفوا بأنهم مسلمون وأنهم عرب، وأنهم بَقُوا مسلمين وعرباً رغم تعميدهم وكَثْلَكَتِهِمْ. قاد بعض الفقهاءِ والشّبابِ جموعَ إخوانهم وحاججوا القُسُسَ وسفَّهوا دِينَهُمْ الذي أباح لهم انتهاكَ الحُرُمَات واغْتِصابَ الأرض والعَذارى والفتيات. لقد جَفَّ الرِّيقُ في حناجرهم، وتغلَّبوا على خوفهم الأوّل. كانت الموجةُ الأولى استِسلاماً لأمر الطَّرد وقبولا بالطغيان، ثم انفجر الوعي بالدِّفاع عن الحقّ، والموتِ دُونَهُ في شَرَفٍ. كانوا يُحدِّثون أنفسَهُم قائلين: إذا أرادوا موتَنا فَلْيَكُنْ، لكنَّنا لن نُسْلِمَ لهم نفوسَنا كالخِراف، سنموتُ كالشُّهداء، سندافع عن ديننا ولغتنا ونبيِّنا.

قَبِلَ آخرونَ الرَّحيلَ بطواعية، وقد كانوا يُمَنُّونَ النَّفس بذلك منذ زمان، لكن القوانينَ الجائرة التي سَنَّتْهَا المحاكم كانت تمنعهم من ذلك، فها هي الفرصة قد أتت. فليأخذوا المال والأرض والدَّوابَ وكلَّ ما نملك، لكننا سَنَسْلَمُ بأرواحنا دُنْيَا وَأُخْرَى. سنموتُ مسلمين عرباً كما كُنَّا وكما عاش أجدادُنا على هذه الأرض. لقد شادوا للبشرية جمعاء نموذجاً لا يُضاهَى في القَبول بالآخر. لكنْ يظهر أن الشَّرَّ الكامِنَ في الإنسان يَنْزَعُ به دائماً نحو الطغيان والظلام.

سيكون في وُسعنا أن نَلبَسَ ملابسنا ونغتسل في حمّاماتنا كما اعتدنا على ذلك. لقد أصبح الاغتسال جُرْماً في إسبانيا يُعاقَبُ عليه بالقتل. يا لها من فرحة بالهجرة إلى بلاد الإسلام. عَلَّمَ الفقهاءُ الأطفالَ أن يُغَنُّوا نشيدَ الهجرة الذي استقبل به أهلُ المدينة المنورة الفاتحَ الأعظم،

رسولَ الإسلام والسَّلام إلى البشرية جمعاء. وغنَّى الأهالي في خشوع، وارتفعت الدُّفوف بكل حماس تَصدَحُ في فضاء إسبانيا الكئيب. ولكم تُعيدُ الجغرافيا نفسَها. ففي جنوب الأندلس حاضرة تسمى مدينة سيدونية، وقربَها قرية تُعرَفُ بمكة (Los Caniõs de Mekka). هذه نسخة من أرض الوحي مثل المدينة ومكة صَدَحَ فيها هذا النشيد كما لو أنه يصدح لأول مرة. لقد صنع المسلمون لهم نسخة مصغرة تذكرهم بالمدينة ومكة في بلاد الأندلس. كما صنعوا لها نُسخاً من مدن الشام. وامتلأت الأصوات بخشوع رهيب وفرحة عارمة. هذه هجرة جديدة أمام هذه الأمّة الطَّريدة لأرض الإسلام والسلام.

حتى أغنياء الموريسكيين فرحوا بهذا القرار الذي خلَّصهم أخيراً من هذا السِّجن الكبير. تركوا كلَّ تلك الأموال التي لا تُقدَّر بثمن لخزينة الدولة والإقطاعيين والكنيسة. رَمَوْا حُطامَ الدنيا لأهل الدنيا وعانقوا الحرية التي تُسْفَكُ على مذابحها رقابُ الأحرار.

قامت سلطات الدولة بتجميع الأندلسيين في مراكز خاصة في كل البلاد في بلنسية ومرسية وبرغش وغرناطة. ثم وزَّعوهم على نِقَاطِ تَسْفِيرٍ في الشَّمال والجَنوب والسَّاحل الشَّرقي. سارع الأندلسيون إلى بيع ما يملكون لكنَّ الأسعارَ انخفضتْ إلى نِسَبٍ مُتَدَنِّيَة بسبب إغراق السوق بمثيلاتها وانعدام قدرة شرائية لدى القشتاليين. ولم يتمكن الكثير من الموريسكيين من استرجاع أَضعافِ أضعاف قيمةِ ما يملكون، لدفع رسوم تغريبهم. لم يكن قرار التَّغريب مجانياً بل على كل رأس أن يدفع عن نفسه قيمة تغريبه عشرة ريالات ذهبية.

رغم أن المرسوم كان قد أعلن أن التغريب سيبدأ بعد ثلاثة أيام، إلا أن واقع الحال كان مختلفاً إذ كان من غير الممكن نقل كل هذه الأعداد الهائلة من الموريسكيين في هذه المدة الوجيزة جداً. خرج الأندلسيون وخرجت حليمة مع مصطفى مع الخارجين، باتجاه الموانئ التي خصصت لهم، لكنَّ السُّفنَ لم تبدأ في السَّفر إلا بعد مرور عشرة أيام، ولم تكن بالعدد الكافي. وكان عليهم أن ينتظروا عودتها للركوب. وبقي الناس لبضعة شهور مطروحين في العراء ينتظرون سفينة تُقِلُّهُمْ.

واستعان الإسبان بسفن من المرتزقة، من فرنسا وجنوة ولمبارديا ونابوليس وصقلية والبرتغال. وفرض أصحاب هذه السفن هم أيضاً عشرة ريالات ذهبية أخرى لفائدتهم. ثم دفعوا خمسين ريالا أخرى عن أمتعتهم.

وفي هذه الأثناء، قام المجاهدون والغزاة بطلعات بحرية مخاطرين بأنفسهم وسط العدو، معتمدين على خفة مراكبهم وشدة سواعد بحّارتهم والريح الإلهية المرسلة، فخطفوا بعض الموريسكيين. كان المنظر رهيباً حيث المدافع تُدَوِّي في وجهتهم فأصابت بعضاً ممن كانوا على الساحل ينتظرون ومات منهم من مات وبقيت أشلاؤه مطروحة في الخلاء. لم يكن لدى حليمة ومصطفى مال يدفعون به رسم تغريبهم فبقوا ينتظرون مع جملة المنتظرين في انتظار الفرج مدة طويلة. كانا قد خرجا من بيتهما مع الآخرين بدون دابّة تحملهما، خرجا وهما يحملان كومة من الأغراض القليلة التي استطاعا حملَها،

جُلُّهَا ثياب. تركا أغلى وأخطر شيء كانا يحتفظان به. كانا يملكان مصحفاً جميلا بألوان زاهية. دَفَنَاهُ في بيتهما لأنهما كانا يعلمان أن القشتاليين سيفتشونهما. ولو وُجِدَ المصحف بحوزتهما لكان مصيرهما القتل والحرق. تركاه شهادة على أن هذه الأرض كانت لهم. تركاه لأنهما كانا يأملان أن الوصول إلى بلاد المغرب حيث القرآن محفوظ في الصدور ومرقوم في السطور. كان مصطفى بَطِيءَ الحركة، فقد أعيَتْهُ السِّنون، وفَارَقَتْهُ نَضارةُ الشَّباب. كان يمسك بزوجته ويأمل أن لا يفارقها. كما كانت تمسك به وتتمنى الموتَ دُونَهُ. لقد كانت لسانَه الذي ينطق به منذ أن فقد القدرة على الكلام. مَشَيَا طويلا بدون أكل ولا ماء. كانت حليمة قد أخذت معها بعض التين المجفف وشَكْوَةً صغيرة من جِلْدِ الماعز، بها ماء مُنَسَّمٌ بالقَطْرَانِ. أخرجت المرأة بضع قِطع من التين وناولت منه لزوجها فأخذا يلوكانه ببطء شديد حتى يمتصّا ما بداخله من ماء.

كان عليهم أن يمشوا على الأقدام مسافات طويلة جداً. وكان الحر يلفحهم بشدته، فيضطر الناس للشرب بين الفينة والأخرى. ثم مروا على جسر نهر. ونزل البعض منهم يملأ شكوته بالماء. لم يشعر المساكين حتى طلع عليهم حاكم المنطقة يطلب منهم سَدَادَ ضريبة النزول على ماء النهر. كان أمراً مضحكاً حتى الماء الذي تشرب منه البهائم أصبح له ثمن يغتني منه نبلاء البلاد. نظرت حليمة إلى مصطفى وطفِقَتْ تضحكُ من الحَسْرة على ما رأت وما سمِعَتْ. ثم شعرتْ بالعياء فجلستْ إلى ظل شجرة تأخذ أنفاسَها مع زوجها.

وبينما هما كذلك إذ أقبل الجابي مع جنديين يطلب منهما أداء رسم على جلوسهما تحت الشجرة. نظرت حليمة إلى الرجل وقالت له:

ـ مَزْحَتُكَ عجيبة في هذا القيظ، أيها الجابي.

ـ أنا لا أمزح، وإنما أُنَفِّذُ أوامر سيدي الكونت الذي يملك هذه الأرض ومن عليها. وأنصحكما بأداء ضريبة الظل وإلا أخذنا أغراضَكم عُنْوَةً.

لم تُكَلِّفْ حليمة نفسَها عناءَ الحديث مع الجابي، فقد تبيَّن لها أن الأمر صحيح. فأخذت تُفَتِّشُ بين ثيابها وأخرجت قطعة كانت قد ادَّخَرَتْهَا لما هو أعظم، فناولتها إلى الجابي الذي عضَّ عليها بأسنانه ليمتحنَ جودَتها، ثم قال لهما:

ـ أسرعا لِلَّحاق بالآخرين ولا تتخلَّفا عن موعد الوصول وإلا حلَّ بكما أشدّ العذاب.

انصرف الزبانية وتركوا حليمةَ تتحامل زوجَها وقد صُعقا من هذا الظلم الغريب. لقد صار النَّهْبُ سياسة رسمية في إسبانيا.

ثم واصلا مشيهما مع سائر الموريسكيين. لم يصلا إلى الساحل إلا بعد أن حلَّ الظلام. جلسا مع غيرهم من جموع الأندلسيين المنتشرة على مَدِّ البصر تنتظر أن تُقِلَّهَا السُّفُن. لم يكن بالإمكان نقل هذا العدد الوفير. جلس الناس على الرمال وتوسَّدوا أغراضَهم. لم يَكُفَّ مرتزقة السفن عن إذلال الأندلسيين ومعاملتهم بفظاظة زائدة. لم يكن يسمح لهم بالركوب إلا بعد أداء رسم التغريب عشرة ريالات ذهبية.

ارتحلت السفن تلو السفن صوب بلاد المغرب. ويا أسعد من غادر، فقد شدّدت السلطات على الباقين دفع ضرائب على ما يحملونه معهم. كما فرضت ضريبة أتعاب تُدْفَعُ للمرافقين والجنود وكل من له ضِلْعٌ في عملية التغريب. لم تكتف حكومة جلالة الملك فيليب الثالث بتغريب الأندلسيين، بل أضافت له أنواعاً أخرى من العقاب. فكان على الأندلسيين أن يدفعوا مكافأة لمن يغربهم. كان النَّهْبُ سياسةَ دولة بكاملها، وتمّتْ سَرِقَةُ أُمَّةٍ بكاملها. جُرِّدتْ من أراضيها وأُلغِيتْ رسوم البيع التي تَمّتْ قبل صدور القرار. ومُنِعوا من بيع دوابهم ومخزونهم من الزيوت والحبوب. ثم إن من باع للنبلاء لم يتقاض عنه مبالغ مالية، بل في مقابل سداد قروض مفترضة لفائدة الإقطاعيين الذين يملكون الأرض ومَنْ عليها والجهد المبذول في زراعتها وجني ثمارها. وأصدرت الملكة أوامرها باختطاف أطفال الموريسكيين لأنها كانت تؤمن أن إرسالهم لبلاد الإسلام سيوقعهم في الكفر، وأنها بهذا العمل تتقرّب من الرب.

خرج بعض الموريسكيين مرة أخرى إلى الجبال فاراً ببعض ما يملك. وساعد بعض النبلاء وأصحاب المصانع هؤلاء في الاختباء عندهم ريثما يتوصّلون إلى توفير وثائق تسمح لهم بالبقاء. لكن كثيراً منهم هرب إلى الجبال القريبة من بلنسية.

لقد كانت هناك لحظات من الإنسانية تجلّت فيما صنعه الدوق غندة أو دوق ماكيدا اللذان ساعدا الأندلسيين واستأجرا لهما سفينة أقلّتهم إلى وهران.

ثم قام الفقيه عُمَير يدعو أبناء قومه إلى الانتفاضة على هذا الظلم والطغيان. ووجِّه الانتقادات إلى المركيز دي كرانثيا الذي منع الأندلسيين من بيع ممتلكاتهم. فابتدأت الانتفاضة تكبر وانتقلت إلى العديد من القرى وشبَّ حريق الثورة فيها. لم يكن من السهل القبول بكل هذه الإجراءات الظالمة. ولم يكن عسيراً على الناس أن ينتفضوا. لقد خسروا كل شيء. ولم يبق لهم سوى كرامتهم وشرفهم. ولم يكونوا مستعدين لفقدهما. بل كان الفقيه عمير يبثُّ فيهم روحَ الجهاد والقتال والثورة على الظلم. فقام الكثير منهم واتخذوا زعيماً يقود الثورة، يدعى الطريقي. وقد راجت في كتب الحدثان عن خروج رجل من أغنياء الموريسكيين يقود الثورة.

جلس الزعيم على كرسي وتوافد عليه المبايعون يقبِّلون يده. وعيَّن إلى جانبه أحد الفقهاء حاكماً عاماً لشؤون العدل. تجمَّع إلى الزعيم الجديد ألفُ رجل يحملون السلاح ويقطعون الطريق وقرَّروا الاشتباك مع الجنود. ثم أرسلوا سفارة إلى كل مناطق الأندلس يُعلِمون إخوانهم بقيام الثورة، ثم سفارة أخرى إلى المغرب لطلب المعونة، بيد أن الوضع السياسي في المغرب كان مضطرباً بين أبناء المنصور وأبناء أبنائه.

عاث جيش الطريقي في قرى النصارى وانتقموا منهم، فكسروا صلبانهم وذبحوا من قبضوا عليه. لكنهم لم يكونوا مسلحين ولم تصلهم معونة تذكر لا من المغرب ولا من العثمانيين. وضرب الأسطول الإسباني طوقاً أمنياً على السواحل لمنع وصول المساعدات المحتملة.

أما مصطفى فكان يتمنى أن ينضم إلى جيش الثوار لكن حليمة كانت تصدُّه صدّاً وتقول له على عادتهما في حكاية الموت والحياة في حوارهما.

ـ أيُرضيك أن تُقتَل وتتركني وحيدة يعبث بي هؤلاء الجنود حسب هواهم؟

ـ وكيف أرضى يا حليمة بذلك؟ وما رضيت به من قبل. ولكنَّ شرفي يدفعني إلى الشهادة بدل الموت مقهوراً ذليلا.

ـ شهادتُكَ وشرفُكَ الآن هي أن تحافظَ على حياتي وحياتِكَ. لو كنا فَتِيَّيْنِ لدفعتُ معك إلى الموت والشهادة. ولكنه الوَهَنُ والضّعف. فلا تَغْتَر بداعي الكرامة الآن. ثم أنت تعلم أن هؤلاء المساكين سَيُقْتَلون ويعذَّبون.

قام الطريقي بمناوشات ووصل مُتخفّياً إلى الساحل الذي كان يَرْبِضُ فيه المغرَّبون يَستنْهِضُ هِمَمَ الشباب منهم للانضمام إلى الثورة. قام بعضهم إليهم والتحقوا بالثوار واتخذوا من شُقَر مركزَ عملياتهم. جلس الطريقي مع رجاله يتداولون كيفية انتزاع حقوقهم.

ـ أيها الرجال، لقد حاولتُ أن أُقْنِعَ المركيز دي كرانثيا السماح لنا ببيع ممتلكاتنا وتأجيل تغريبنا فأبى.

ـ وماذا تقترح أيها الزعيم؟

ـ والله لا أرى حيلة لنا إلا في تكثيف الإغارة ليلا على الجنود وقتل بعض منهم وإرباك رجال هذا الإقطاعي حتى يقلع عن غيِّه ويرضى بالسماح لجماعتنا ببيع ممتلكاتها وتأجيل تغريبنا إلى الربيع.

ـ وماذا لو جمعتْ لنا إسبانيا جيشاً جرّاراً يستأصِلُ ثورتنا ويقضي عليها نهائياً؟

ـ إن هذا أمر وارد جداً. وقد كنا نعرف هذا من البداية.

قام أحد رجال الطريقي وقال

ـ أرى يا سيدي أن نستسلم قبل أن يفوت الأوان.

ـ ماذا تقول؟ نحن لم نقم بهذه الثورة لنستسلم. لقد بذلنا كل غال ونفيس من أجل الثورة على الظلم. وقد أفتى لنا فقهاؤنا بذلك.

ـ لقد رأيتَ ما حَلَّ بالفقيه عمير. لقد أمسكوه وأركبوه على حمار وطافوا به في المدينة ثم قطعوا رأسه. وما أظن إلا أنهم سيفعلون بنا مثل فعلهم به.

ـ لركوبُ الحمير عندي أهونُ من ركوب الخنازير. وما لي أراك تَبْذُرُ الشَّكَّ في صدور الرجال. فإن كنتَ عازفاً عن المقاومة، فلك أن تخرجَ من الآن وتترُكَنا ولا ضيرَ عليك. أما نحن فقد أقسمنا وبايعنا على قتال هؤلاء الظلمة.

فقال الرجل متلعثماً: ـ أنا واحد منكم، يَضُرُّنِي ما يَضُرُّكُمْ، ويَسُرُّني ما يسرُّكم.

ـ إذن، فلا تَعُدْ إلى تحطيم معنويات الرجال بهذا الحديث.

غصَّ الرجل بريقه. وفي منتصف الليل خرج من فراشه متخفّياً يُظهِر أنه يُريدُ الخلاء ثم اختفى. وفي الصباح افتقد الطريقي رجاله فلم يجد الرجل، فقال لهم:

ـ لقد كفانا الله شرَّ هذا المتهاون الجبان المتخاذل.

قاموا ببعض العمليات ونهبوا القشتاليين المظاهرين عليهم ثم سرَّح الطريقي رجاله لمدة ثلاثة أيام وأمرهم بتجنيد متطوعين للجهاد، وبقي هو مع جماعة قليلة من رجاله. وبعد يومين من مغادرة الرجل المتخاذل، تسلَّل بعض الجند إلى مغارة كان يختبئ بها الطريقي فأمسكوا به نائماً واقتادوه مع رجاله القلائل إلى سجن بلنسية. وبعد عشرة أيام من التعذيب خرجوا به إلى المدينة وأركبوه حماراً وطافوا به على أعين جميع السكان. كان هؤلاء يرمونه بما في أيديهم ويلعنونه. ومنهم من كان يبصق في وجهه. كانت شمس ذلك اليوم محرقة والمسكين يقطر عرقاً. كانت فُرْجَةً ممتعة للرَّعاع. دام الحال حتى وصلوا به إلى بوَّابة سان فنسنتي، أي القديس المنصور. لقد انتصروا فعلا على الثورة ورجالها. وهناك قام إليه الجلاد فقطع يده اليمنى وهو على حماره. نزل المسكين من ظهر الحمار الذي شهد على هذه المأساة في صمت، ثم التقط يده بيسراه وأخذ ينظر إليها ويبكي والألم يعصِره عصراً ودمه يصبغ الأرض. وفجأة لمح ذلك الرجلَ المتخاذل الذي كان يلاججه في مسألة الثورة. نظر الطريقي إليه نظرة ازدراء، وبصق على الأرض كما لو أنه نخامة خبيثة. كان الرجل واقفاً إلى جانب أعيان النصارى وأساقفتهم، ويلبس ثياب النصارى. وكان المركيز دي كرانثيا يبتسم للخائن ويَرْبِتُ على كتفه. وهذا الأخير يبادله الابتسام. لقد خان إخوانه وزعيمه ودينه، وخان نفسه. تَحَامَلَ الطريقي نفسه وألمه وقال للخائن بالعربية:

ـ لقد خنتَ العهدَ، وبِعْتَ آخِرَتَكَ بدنيَاكَ، لقد أسلمتَني للأعداء

فماذا جنيتَ؟ تأكَدْ أن لن تكونَ في نظر هؤلاء إلا خائناً. لعلك تقولُ اليومَ، لقد نَصَحْتُكَ أن تستسلمَ فلَمْ تفعلْ. وها قد طافوا بك على الحمار كما ذكرتُ لك. فهنيئاً لهذا الحمار على أنه حمل جثّةَ شهيد. إنه أشرف حمار عرفتُه. وهو أشرف منك لأنه احتملني في وقت الشدة. أما أنت، فلن تحظى بهذا الشَّرف. ولن يأتيَ عليك العام حتى تُقتَلَ وتَنْهَشَكَ الكلاب. ثَكِلَتْكَ أمُكَ أيُّها الشَّقِيُّ. سيتذكرك من سيأتي وسيلعنونك.

قام الجلاد إلى الطريقي مع جماعة من الجنود وعذّبوه بأنواع العذاب الخسيسة، ثم قطعوا رأسه وعلّقوه على البوابة كما فعلوا مِنْ قَبْلُ مع مولاي عبد الله بن أبيه.

وما أن خَبَتْ هذه الانتفاضة حتى قامت ثورة أخرى تزعّمها طَحّانٌ من وادي الحَرّ يدعى جيرونيمو ميليني ضمّت عشرين ألفاً من الأندلسيين. التجأ هؤلاء الثوار مع أسرهم إلى قلعة بني موريل. شهدت القلعة معارك شرسة مع الجنود. لكنهم حوصروا وقطع عنهم الماء والمؤونة فكادوا يموتون عطشاً وقُتِلَ زعيمهم، ثم تفاوضوا على تسليم القلعة وخرجوا لا يلوون على شيء إلى على ماء يَبُلُّ عطشَهم. تسابقوا إلى عين ماء قريبة للارتواء. وقد بلغ البؤس بهم أنَّ كثيراً منهم كَرَعَ ليشربَ فَشَرِقَ فمات. فسبحان الله، أتاهم الموت بالذي إليه فَزِعوا. ومِنَ الماء ما قَتَل، ومِنَ العَطَشِ ما أحيى. سيقَ الجميع كالدواب مرة أخرى إلى الموانئ للتغريب. كان الجندُ راكباً على الخيول، والأندلسيون حفاةً يمشون على الأقدام. فكانوا

يدفعونهم وينتهرونهم ويضربونهم. اعترض نصارى قشتالة طريقهم فتخلَّى عنهم الجند وتركوهم لهم يعبثون بهم أو يسترِقُّون أطفالَهم ويقتلون رجالهم ويغتصبون نساءهم. ويفعلون بهم كما يفعل الإنسان بعدُوِّه وأكثر. ومن سَلِم من نصارى قشتالة سلَّمَ زوجته وبناته للجند فاغتصبوهن وفعلوا الفاحشة بهن أمامهم ثم قتلوهن. وأخذوا من بقي من النساء والأطفال عبيداً وباعوهم في سوق النخاسة. وبقي من العشرينَ أَلْفِ خمسةُ آلاف حُكِمَ عليهم بالتجذيف في سفن الملك. لكن بعضاً منهم استطاع الفرار إلى الجبال هائماً على وجهه يعيش عيشة المتوحشين.



لما وصلت سفن المغرَّبين إلى الساحل المغربي، أخذوا يحكون عن محنتهم ومحنة إخوانهم ممن بَقُوا في الأندلس. قام الخطباء والفقهاء والعلماء والصلحاء والشرفاء يَحُثُّونَ الرِّجال والمجاهدين على تقديم يد العون لإخوانهم واستخلاصهم من يد عدوهم. قامت السفن الجهادية بحملات كثيرة في هذا الوقت الذي لا تبحر فيه عادة. لقد حلَّ فصل الشتاء الذي تصعب فيه الملاحة البحرية، لكنهم قاموا بذلك من أجل نصرة إخوانهم.

خرج معنينو بمركبه مع ستُّ سفن أخرى من مدينة سلا. وفي صباح أحد الأيام وصل قبالة بلنسية. تسلَّلَ الأسطول الجهادي في ضباب البحر الكثيف حتى وصل إلى الساحل، ورأى المساكينَ يموتون من البرد والعطش والجوع. أقلَّ بيديه طفلا ثم آخر ثم ثالثاً،

وساعد عجوزاً في الصعود إلى المركب. وأمضى وقتاً وهو يذهب ويجيء بين الشاطئ والمركب يساعد العجزة ويستحِثُّ الأقوياء على مساعدة الضَّعفة حتى أَقَلَّ عدداً كبيراً في مركبه الضَّخم. ثم عاد ليأخذ آخرين مع رجاله فَلَمَحَتْهُ حليمة التي كانت تُنازع الموتَ مع زوجها، جمعتْ حُشاشةَ نفسِها ونادت عليه بلغة عربية مُتَقَطِّعَة:

ـ يا بْنِي، بالله خُذْنِي وزُوجِي مْعَاك.

رقَّ محمد معنينو لحال المرأة وهزَّته غيرة إنسانية وفار الدَّمُ في عروقه وغشي عينيه ضباب الحَمِيَّة، فاتَّجَهَ نحو المرأة وزوجِها، ونادى على أحد رجاله لمساعدته، ثم قال للمرأة.

ـ لا تخافي يا أمَّاه، نجوتِ من القوم الظالمين.

ثم أوصى رجاله بحملها مع زوجها إلى السَّفينة. لم يكد يعود ليأخذ آخرين حتى أقبل إلى ناحيته فارس مُدَجَّج بالسلاح. ونَشَبَتْ مبارزة ضارية بين الرجلين. سلاح خفيف في جهة وسلاح ثقيل في الجهة الأخرى. كان الفارس يملك القدرة على الإغارة لإشرافه من فوق فرسه على معنينو، لكن العربي كان يَنْتَقِلُ بخفة لم يعهدها القشتالي. كان سيف الفارس ثقيلا، لكن معنينو كان يتفادى ضرباتِه بمهارة عالية، ثم كان يدورُ خلفَ الفرس ويُسَدِّدُ ضرباتٍ متتالية لخصمه. لم تُفِدْ تلك الضربات شيئاً لكنها أَغاضتِ الفارس فأخذ يكثر من التَّلَفُّتِ مما أكشف عورَتَهُ لمعنينو. سُمِعَ اللَّغَط وبدأ بعض الجند يقتربون من موضع صوت الحديد الذي يُقْرَعُ. وفي هذه اللحظة ارتمى معنينو على خَصْمِه الحانِقِ ونَزَعَ خوذَتَه في سرعة

فائقة. ثم توقف فجأة بعدما هَمَّ بسيفه لعنقه، ثم مَسَكَ حركَتَهُ لما رأى ملامح خصمِهِ العربية. استعطفَ الفارسُ معنينو قائلا:

ـ لا تقتلني يا سيدي، أنا عربي مثلك.

تردَّد معنينو، لكن حليمةَ التي كانت ترقب المبارزة، صاحتْ عليه من بعيد.

ـ اقتله يا سيدي، إنه الخائن الذي باع الزعيم الطريقي لأعدائنا.

نظر معنينو إلى الخصم الخائن نظرة حنَق وغضب ثم قال له:

ـ خُذْ أَيُّهَا اللَّعِين، فَلْتَذْهَبْ إلى الجحيم.

ثم ضربَهُ بسيفِهِ الحَادّ فَجَزَّ رأسه عن جسده، وقذف به من أعلى الفرس، ودَلَّى الجُثَّةَ الهامِدةَ إلى الأرض لِتَعْبَثَ بها الحيوانات الضَّالَّةُ والكِلاب، أو يأخذها البحر قوتاً لهَوائِشِه.

تقدَّمَ معنينو نحو الجُند فَسَدَّدَ ضرباتٍ قاتلةٍ لبعضٍ مِنْهُمْ وتحلَّق حولَهُ بعضُ رجاله ونَشَبَتْ مَعْرَكَةٌ بين الفريقين كَانَتِ الغلبةُ فيها لأهل سلا الأَشاويس. لكن التَّعزيزات كانت تأتي، فنادى معنينو على رجاله بالرجوع إلى السفن وبقي هو يَصُدُّ الهجمات حتى رَكِبَ الجميع. ثم لَحِقَ بهم وتَرَكَ الفَرَسَ. سبح حتى وصل لسفينتة فَدَلَّى له رجالُه حبلا تسلَّق منه إلى الجسر العلوي.

تقاطر ناحية الأسطول السلاوي عشرات الموريسكيين يريدون النجاة فرمى المساكين بنفوسهم في البحر لعل وعسى أن يلحقوا بإخوانهم الناجين، لكن الجند كان يمنعهم ويَدْهَسُهُم بالخيول. رفع معنينو صوته وقال لهم:

ـ نعاهدكم أننا سنعود قريباً من المغرب بسفن عديدة لنُخلِّصكم. اصبروا وصابروا ورابطوا.

ثم توجَّه إلى الجند قائلا:

ـ سنعود لنثأر منكم، أيها الكلاب. وسنرى ساعتئذ شجاعَتَكم التي تظهرونها الآن على هؤلاء العُزَّل الضُعفاء.

كانت الأصوات تتعالى من السفن تُلَوِّحُ لمن بقي بالصمود والعهد على العودة والانتقام من القشتاليين. كانت الأصوات غاضبة. أما في الجهة الأخرى، فكانت الحسرة تقتل من بقي على الساحل.

انطلق المجدِّفون في سرعة هائلة يبتعدون عن الساحل بسفينتهم التي نَشَرَتْ قِلاعَها الضَّخمة واختفت في البحر. كان الضباب لا يزال يملأ تلك الأجواء. وبدا الساحل بمن فيه كأشباح مخيفة خارجة من قبورها. استعاذ الكل من هذا المنظر المخيف.

توغَّل الأسطول القرصاني وسط البحر متَّجهاً نحو الجنوب. لما اطمأن معنينو على رجاله، ولم يكن قد تخلَّف منهم أحد، أمر بِعَدِّ الأندلسيين الذين حُمِلوا إلى سفينة القيادة، فكان عددهم ألفاً وسبعين راكباً ما بين رجل وامرأة وطفل. أمر البحَّارةَ بتوزيعهم في مُقَدِّمَةِ ومُؤَخِّرَةِ سَفينَتِهِ الضَّخمة التي كان قد غَنِمَهَا سابقاً في إحدى ملاحمه الكبرى، ثم جهَّزَها بِعِدَّةِ مدافع. كانت أكبرَ سفينةٍ في الأُسطول السَّلاوي. أما باقي السُّفن الجِهادية السِّتّ الأخرى التي تعمل تحت إمرة معنينو فكانت تُقِلُّ أعداداً أقلّ بكثير.

أمر الريس بإطعام الجميع وسَقْيِهِمْ وتَفَقُّدِ أحوالهم ومُعالجة

الجرحى وإسعاف الضَّعفة. ورغم المحنة الكبرى التي مر منها الناجون، فإنهم كانوا مستبشرين بالخلاص والنَّجاة من يَدِ عدوِّهم. فأغلبُ هؤلاء لم يكن معهم مبالغٌ نظيرَ رسم التغريب. فتُرِكوا مُدَّةً طويلة تعرَّضوا فيها للبرد والهَوَامِّ والهلاك على السَّاحل حتى يُقرِّر فيهم الطُّغَاةُ قَرارَهم.

وفي عُرْضِ البحر شاهد معنينو تلكَ السُّفنِ الإيطالية والفرنسية المُحمَّلة بالأندلسيين تتَّجه نحو المغرب. لم يعترضوا سبيلَها حرصاً على أرواح مَنْ بها مِنْ إخوانهم. ومن جهة الشمال باتجاه مدينة قادس رَأَوْا سُفُناً أخرى تَنْقُلُ المُغَرَّبين باتجاه الجنوب. كلُّ السُّفن كانت تُنْزِلُ الأندلسيين في سبتة وتطوان والسواحل الشمالية للمغرب، لكنَّ السفنَ التي أبحرتْ من مدينة قادس استمرَّت في الإبحار مُحاذِيةً لسفينة معنينو والأسطول السلاوي الصغير. ثم لما دخل الأسطول الجهادي إلى مَصَبِّ أبي رقراق، انفصلتْ تلك السُّفنُ باتجاه الجنوب الغربي. ولعلَّها ذهبتْ إلى الجزر الخالدات لتعمرها أو لربما للعالم الجديد للخدمة في الحقول.

وصل معنينو بسفينته مع باقي الأسطول المُكوَّن من سبع سفن جهادية إلى مدينته فاستقبلهم الأهالي بالهتاف والزغاريد. أمر الريس بِعَدِّ جميعِ النَّاجين فكان عددهم 1664 ناجياً ما بين رجل وامرأة وطفل. حَمَلَتْ سفينتُه الكبرى 1070، ثلاثمائة منهم كانوا يركبون في مقدمة السفينة، والباقي في مؤخرتها. ومن عجيب الموافقات أن السفن الست حملت بمجموعها 594 ناجياً، بمعدل تسعة وتسعين (99) راكباً في كل

مركب. نزل الجميع من المراكب والناس تُهَلِّلُ وتُكَبِّرُ وتَحْمَدُ الله بمحامِدَ عجيبة، والألوية تَخْفُقُ في سماء المدينة. نزلتْ كل سفينة يتقدمها حامل لوائها الخاص بها. وتبع كل لواء الناجون من الأمة الطريدة، أمة الحمد وسيِّد الحمد.

تقدم معنينو بلواء كُتِبَ عليه ﴿أَلاَ إِلىَ اللهِ تَصِيرُ الأُمُورُ﴾ثم قال للناجين:

ـ مرحباً بكم في جنَّة سلا، فادخلوها بسلام آمنين. نجوتم من القوم الظالمين. فلا تخافوا ولا تحزنوا بعد اليوم. أنتم أمة الحمد، فاحمدوا الله بجميع المحامد، وبجميع الأسماء.

ثم تبعته الألوية الأخرى. فهذا لواء المغفرة كُتِبَ عليه ﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ الكَافِرُونَ﴾، ثم لواء التفصيل مكتوب عليه ﴿أَلاَ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ﴾، ثم لواء آخر مزخرف كُتِبَ عليه ﴿وَقُلْ سَلاَمٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾، ولواء عليه غُبرة ودُخان يتوعَّدُ الأعداءَ بشعاره ﴿فَارْتَقِبْ إِنَّهُمْ مُرْتَقِبُونَ﴾، ولواء عليه صورة جماعة جاثية كُتِبَ على طوله ﴿وَهُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ﴾ ثم آخِر لواء لونه رملي كُتِبَ عليه ﴿فَهَلْ يُهْلَكُ إِلاَّ القَوْمُ الفَاسِقُونَ﴾. كانت هذه الألوية تزرع الرهبة في قلوب الأعداء وتمنح الأمل لمن أبصرها من المُغرّبين والأندلسيين.

استوصى معنينو بالمُغرَّبين خيراً ووزَّعهم على أهالي المدينة ليهتموا بشؤونهم. لكنَّ حليمةَ استعطَفَتْهُ مرة أخرى.

ـ يا بني، ليس لي من أهل غير زوجي هذا. فأرجو أن تقبلني في بيتك خادمة أو مربية لأبنائك.

ـ لا تحزني يا أماه، سآخذك إلى بيتي، سيدة كريمة معززة. فعندي من الخدم ما يكفي. وسنترككما حتى يَرِيشَ جناحُكُما ثم تُدبِّران أمرَكُما فيما بعد. وإن كنتِ تُحسنينَ صنعةً معيَّنةً كالطَّرْزِ والخياطة وغيرهما فهذا مفيد في مدينتنا. فالبحّارة يلبسون اللباس البحري المزخرف وينفقون على ذلك مالا كثيراً. وهذه الحِرفة رائجة هنا كثيراً والطرز السلاويُّ والرِّباطِيُّ مشهور في عموم المغرب ومطلوب.

ـ إنني أحسن من ذلك الكثير يا ولدي، ولعلنا نستطيع أن نتحمَّل بذلك كُلفةَ عيشنا.

ثم حكتْ لمعنينو قِصَّة الخائن الذي باع الزعيم الطريقي وأبناءَ جلدته للنصارى فَجُوزِيَ بنفس الجزاء. حمِدَ معنينو اللهَ أن كانت نهايةُ ذلك الخائنِ على يده، واحتسبَ ثوابَ هذه الرِّحلة ونجاحَها عند الله. أُقيمتِ الأفراحُ في المدينة بدخولِ الأُسطولِ سالماً.

وصل معنينو إلى بيته فوجد زوجتَه في استقباله مع نساء البيت بالزغاريد والهتاف والفرح. دخل الريس لبيته واستوصى بحليمة وزوجها مصطفى خيراً بعد أن قدَّمَهُمَا لزوجته. رحَّبَتْ حياةُ بالمرأة وزوجِها وسهِرَتْ على خدمتهما بنفسها. لما رأت حليمة هذه الحفاوة في بلاد سلا لم تملك أن نَزَلَتْ من مآقيها دموعُ الفرح. عانقَتها حياةُ في حرارة وطيَّبت خاطرها ثم قادتهُما إلى دُوَيْرَةٍ ببيتها الكبير. لم تملك حليمة أن قالت لحياة:

ـ أحب هذا الاسم كثيراً. إن له ذكرى غالية عندي.

أما مصطفى فنظر إليها نظرة مطولة وابتسم لها.

سهرت حياة على خدمة المرأة وزوجها وكلَّفتْ خادماً وخادمة بالعناية بهما.

أما باقي المغربين فقد تنافس سكان العدوتين في إيوائهم حتى لم يبق منهم أحد.

استقرَّتْ حليمة مع زوجها في الدُّويرة الملاصقة لبيت أسرة محمد معن. ثم اشتغلت كما وَعَدَتْ بذلك في الطرز والحياكة، فكانت تصنع أشكالا ليس للناس عهد بها في سلا ورباطها. وما لبث أن تزايد عليها الطلب، وتنافس الأغنياء والوجهاء على هذه الأشكال والزخارف الأندلسية الجديدة. رَبِحَتْ حليمة مالا من عملها ثم طَلَبَتْ من حياة أن تُعَلِّمَ الخادمات سِرَّ المهنة لتلبية الطَّلبيَّات المتزايدة. كانت حليمة مشتاقة إلى الذهاب إلى الحمام فطلبت من صاحبة البيت أن ترافقها حتى تأخذ بيدها وتُعرِّفَها على العادات المتبعة. لقد كانت تسمع عن هذه المرافق العامة التي كانت منتشرة في الأندلس. فلما سقطت غرناطة منعت الطهارة على المسلمين وهدمت تلك الحمامات أو حولت إلى بنايات مختلفة. وبقيت الحسرة في نفوس أهل الأندلس، إذ لم يتعودوا على القذارة التي فُرِضَتْ عليهم. أجابت حياةُ حليمةَ إلى رغبتها وذهبتا في جمع من الخادمات إلى هذا المَرْفَقِ العجيب. كان الحمَّام الذي يحمل رقم 129، كسائر حمامات المدينة مكوناً من ثلاث قاعات إضافة إلى قاعة الاستقبال الكبرى المسماة بالجلسة والتي تتجرَّد فيها النساء قبل الدخول إلى داخل الحمام. دخلت حليمة بخطى مرتبكة مُتردِّدة لا تدري كيف

تصنع، وحياة تأخذ بيدها وتلاطفها حتى أَنِسَتْ من إبراز مفاتنِها أمام سائر النساء. وضعت المرأتان أغراضهما في القاعة الوسطى ذات الحرارة المتوسطة. ثم طلبت حياة من حليمة الولوج إلى القاعة التي تلي بيت النار حيث الحرارة مرتفعة. جلست المرأتان سويعة حتى اهترأ ظاهرُ جلدِهما فاستأذنتْ حياةُ حليمةَ في دلكها بالكيس اليدوي. لم تمانع حليمة في الأمر فتمدَّدتْ على بطنها وشرعت حياة في فركها، فتكوَّنت مُلولبات من ظاهر جلدها الميت ودسمه. وبعد أن أنهت حياة تنظيف حليمة، أصرَّت هذه الأخيرة أن تفعل الشيء نفسه بصاحبتها، لكنها تمنَّعت. بيد أن حليمة عاودت الإصرار مظهرة أنها تريد أن تتعلَّم ما تصنعه النساء في الحمام. استجابت حياة لطلب حليمة وتمدَّدت على أرضية الحمام الساخنة. بدأت حليمة تفرك ظهر حياة ثم انتقلت إلى ذراعها الأيمن، فلفت انتباهها فجأة رسم غريب باهت جداً. توقفت فجأة وارتبكت ثم سألت صاحبتها:

ـ ما هذا الرسم يا حياة؟

ـ إنه رسم قديم، أو لنقل إنه وشم قديم.

ـ ومن وضعه على ذراعِك؟

ـ لعلهم أهلي حينما كنت صغيرة. إنني لا أذكر جيداً. لكن لماذا تسألين؟

ـ فقط أريد أن أعرف مصدَرَه.

ـ كل ما أذكر أنني لما كنت صغيرة أعطتني أمي بعض الحلوى، ثم مسكتْ ذراعي ورسمت خطوطاً بالفحم الأسود ثم وخزتني

بإبرة في موضع الخطوط. هذا بعض ما بقي في ذاكرتي.

ـ وأين كنت تسكنين؟

ـ لقد نشأتُ في أسرة نصرانية قشتالية، ثم لما كبرتُ بعض الشيء أخبرني خادم موريسكي كان يعمل عند هذه الأسرة أني من أصول موريسكية اختطفت منذ صغري ووضعت عند هذه الأسرة. ولعل أسرتي كانت تقطن في حي البيازين من غرناطة.

ـ أنت تخيفينني يا حياة بهذا الكلام. ويظهر لي أن هذا الوشم الباهت كلمة عربية أشك في قراءتها، لكن لدي إحساس قوي بأن شيئاً أعرفه يختفي وراء كل هذا.

ـ ولماذا أخيفك؟

ـ لأنني من غرناطة وفقدت بنتاً لي اسمها حياة، انتزعها مني القساوسة الأشرار وأخذوها إلى حيث لا أعلم. ولا أدري إن كان هذا الوشم الذي لا أتبيَّنُه الآن بوضوح يعني كلمة **حياة**. فهل أنتِ ابنتي التي أمضيت عمري كلَّه أبحث عنك؟ ألا تذكرين في أول لقاء لنا أنني قلت لك إن اسم **حياة** له ذكرى غالية عندي؟

ـ نعم، أذكر، لكني لم أكن أتوقع أنك كنت تتكلمين عن ابنتك التي فَقَدْتِ. أما عن الوشم، فقد ذكر لي زوجي محمد أنه يمثل كلمة **حياة** بالعربية.

ـ هذا دليل كاف، لكن دعيني أتأكد أكثر، وأودُّ أن تسامحيني في سؤالك عن أمر خاص جداً. هل لديك شامة في أسفل السُرَّة إلى جهة اليمين؟

لم تُصدِّقْ حياة ما تسمع وتردَّدتْ بعض الشيء، لكن رغم علمها بتفاصيل جسمها، لم تتمالك أن كشفتْ عورَتها من دون أن تفكر وعاينتْ مع حليمة الشَّامة المذكورة.

ارتمت الأم على ابنتها وطال العناق وطال معه البثُّ والانتحاب. لم تشعر المرأتان بحرارة الحمَّام وبقيتا مُسمَّرتين في تناجيهما. لقد عاد الدُّرُّ إلى أصله، ثم قالت حياة لأمها التي طالما حلمت بها.

ـ كيف يُعْقَلُ أن يجمعَ الله بيننا بعد طول هذه المدة على هذا النحو المعجز في الحمام؟

ـ يا ابنتي الغالية، تعاليْ نَخْرُجْ من حرارة الحمَّام لتقابلي والدَك مصطفى الشّارد بذهنه وقلبه منذ أن نُزِعتِ منَّا. ها قد فُكَّ صراع الحياة والموت في هذا **الحمَّام** الحامل لرقم 129 الجامع لماء برودة الحياة وقيظ حرارة الموت

ارتمت المرأتان على بعضهما مرة أخرى وبقيتا تبكيان بكاء الفرح وتلهجان بألوية المحامد سويعة ثم نظَّفتا ظاهر جلدهما الأبيض بالصابون الأسود وصبَّتا ماء دافقاً عليهما وخرجتا بسرعة لنشر الخبر.

كان مصطفى منشغلا كعادته في تأمُّلاته المعتادة حيث يجلس في أعلى الدُّوَيْرَة يُراقِبُ الأفقَ من نافذته التي تُطِلُّ من جهة اليمين على وادي أبي رقراق ومدينة سلا العتيقة. ومن الجهة الأخرى باتجاه الشمال إلى البحر المحيط. كانت المراكب تدخل وتخرج للمرسى في حركة دائبة.

دخلت الأم وابنتها إلى البيت وعَلَتِ الزغاريد فتحلَّق أهل الدار

لسماع الأخبار حيث أعلنت حياة في نشوة لا توصف:

ـ أُقدِّم لكم جميعاً أمي الغالية التي طَفِقْتُ عُمْري كلّه أبحثُ عنها. كَثُرَ الحديث والصُّراخ والفرح. وَصَلَ صدى هذه الجلبة إلى مسامع محمد معنينو فجاء يطالع الأمر مع مصطفى. وما أن أَشْرَفَ الرَّجلان على الجَمْع حتى صاحت حليمة في زوجها

ـ هذه حياة ابنتنا التي نُزِعَتْ منا يا مصطفى.

لم يتمالك الرجل حتى صاح للمرة الأولى بعد سنين طويلة من الصَّمْتِ والخَرَسِ.

ـ حياة، ابنتي. حياتي. الحمد لله بجميع المحامد.

أسرعت البنت لجهة والدها فعانقته عناقاً حاراً. وسالت دموع حرّى في ذلك اليوم الذي عُرِفَ عند أهل الدار بيوم النطق. لقد نطق أخيراً مصطفى، لقد دبَّت فيه الحياة والأمل من جديد بعد سنوات من الموت والخرس. لقد عاد إليه النطق والكلام. لقد توقَّفَتْ أخيراً مهمَّة حليمة في الكلام بالنيابة عنه. لكنها لم تعتد بعد على أن تترك زوجها يتكلم. لقد دأبت أن تتكلم نيابة عنه كما اعتادت منذ سنين، فكان المسكين ينبهها أنه الآن يحسن الكلام والتعبير عمّا يريد.

أقيمت احتفالات كبيرة في بيت معنينو باجتماع الشمل. وكم كانت حياة امرأة أخرى. لا تراها إلا جَذِلَة فَرِحَة سعيدة، تنثرُ الكلام اللطيف على كل من تلاقيه. وفي غمرة الاحتفالات زار آل معن في فاس قريبهم محمد معنينو في رباط سلا وشاركوهم هذه المسرات. انطلق لسان مصطفى من عِقاله القديم يحكي عن أيام عذابه وما

حصل لهم في بلاد الأندلس. وفي خِضَمّ حكاياته بدأ يسرد قصة شنق وحرق الشيخ ابن معن. وفي هذه الأثناء اِلْتَفَتَ معنينو إلى أقاربه من آل معن متعجِّباً فصادف منهم نفس النظرة فسأل مصطفى

- هل تعرف الشيخ معن؟

- نعم، أعرفه كما أعرفك. ولقد حضرتُ مأساة شنقه مع زوجتي حليمة.

- وهل كانت حليمة أيضاً معك ذلك اليوم؟

- أي نعم، بل لقد خاطرت بنفسها وسقته شربة ماء قبل أن يُشْنَقَ. لقد كانت آخرَ من أسنده وسقاه.

- يا سبحان الله، يا سبحان الله. كيف هذا. لما كنتُ أُغيرُ على بلاد الأندلس لافتكاك الأسرى في ذلك اليوم الذي حرَّرناكم، كنت أسمع بداخلي هاتفاً يستحِثُّني على تقديم العون لحليمة قبل غيرها من ضحايا الطغيان القشتالي. لقد كان نداءً من روح جَدِّي رحمة الله عليه، عرفاناً بالجميل ورَدّاً لبعض الحق لتلك المرأة التي خاطرت بنفسها في خِضَمّ سَوْقِ الشيخ إلى حبل المشنقة. سبحان الله، كيف يجمع الله بيننا ويقود بعضَنا لبعض. لقد تعرَّفَتْ حياة عليكما وتَعرَّفْتُ أنا على أقاربي في فاس. والآن نسمع منك عن جدنا تغمَّده الله بواسع رحمته. طوبى لنا جميعاً بهذا اللقاء.

بعد سماعه لأخبار تعذيب جده صار معنينو أكثر حماساً في افتكاك المغرَّبين فقام بطلعات كثيرة رفقة جماعة الهورناتشوس الذين استوطنوا في القصبة وبنوا عدة سفن وبدأوا ينتقمون من إسبانيا التي

أَجْلَتْ الموريسكيين عن أرضهم ونَهَبَتْ أموالَهُم وشَرَّدَتْ أطفالَهم وغيَّرَتْ دينهم وأذاقتهم صنوفَ الهوان والعذاب.

وأثناء انشغال الأسطول المغربي بإنقاذ أهل الأندلس كانت تُحاك مؤامرة أخرى لاحتلال مدينة العرائش ومدينة سلا بين فيليب الثالث ومحمد الشيخ المأمون الذي اسْتَظْهَرَ بالنصارى على أخيه مولاي زيدان. فقد فَرَّ المامون إلى العرائش بعد سلسلة من الهزائم نُكِبَ فيها مع ابنه عبد الله. ومن هناك رَكِبَ البحر إلى طاغية إسبانيا فيليب الثالث. واتفق أن يترك المامون عنده أولاده وأهلَه وأمه الخيزران ويُسلِّم له مدينة العرائش مقابل أن يُمِدَّه فيليب الثالث بالمال والرجال حتى يستردَّ الملك من أخيه مولاي زيدان. وفعلا حصل ذلك في خِضَمِّ طرد الموريسكيين سنة 1610. فكانت هذه الأخبار النَّكِدة سبباً في حصول استياء عظيم لدى الناس حتى لبسوا نعالا سوداء إظهاراً للحزن على سقوط هذا الثغر المغربي المسلم في يد إسبانيا.

* * *

بعد مرور أشهر على بدء تغريب وتشريد الموريسكيين، كان فرانسيسكو هيريرا، الذي كان يكره أسلوب المدرسة الإيطالية السائد آنذاك في إسبانيا، قد أخذ تلامذته ليتفرجوا على تشريد الموريسكيين. كان هذا الفنان يحبُّ أن يخرجَ عن الرسم داخل المُخْترَفات أو في القصور، بل يحب أن يُصوِّر الأشياء الواقعية، لكن هذا التصور لم يكن منتشراً بعد في إسبانيا التي كان يغلب

عليها أثر المدرسة الإيطالية. خاطب الفنان طلبته قائلا:

- حاوِلوا هذه المرة أن تُسَجِّلُوا بقلم الرَّصاص لحظاتٍ آسِرَة من هذا الرَّحيل القَسْري. إن هذه مادة لا مثيل لها في قَنْصِ المشاعر الإنسانية الكبرى مثل الحب والحقد والحزن والغضب والخوف والشجاعة واللامبالاة والمقاومة. إنها لحظات ومشاهد لن تتكرر، فعليكم بتصويرها في أذهانكم. لاحظوا بدقة كل التفاصيل، واغمضوا عيونكم بعد إدراك كل تفصيل حتى ينطبع في ذواتكم ثم انقلوه بقلم الرصاص. وانتقلوا بعد ذلك إلى تفصيل آخر حتى تكتمل الصورة الكلية لديكم. ومن شاء أن يقتطع جزءاً من هذا المشهد العام فله ذلك شريطة أن يملكَ بصرَه ولا يحوِّلَه إلى المشاهد الأخرى المختلفة. لا بدَّ من تمرين الباصرة على الالتزام باقتطاع مشهد خاص داخل المشهد العام. هيَّا اشتغلوا، ولنحرِّرْ إسبانيا من استعمار الرسم الإيطالي.

إنْهَمَكَ الفنَّانونَ الصِّغار في تصوير المشاهد التي اختاروها بعدما أَلْهَبَ أستاذُهم حماسَهُم بهذه المشاعر الوطنية حول تحرير الفن الإسباني من هيمنة الذوق الإيطالي. لقد كانوا يشعرون أن تحرير الفن الإسباني يضاهي تحرير إسبانيا من الموريسكيين. يجب أن يرسموا تشريدَهم بريشة إسبانية، وذوق إسباني، وحماسة قومية إسبانية. أما دييغو، فلم يكن يُعِرْ هذه الأفكارَ القوميَّة الضَّيِّقَة اعتباراً حقيقياً. ومع ذلك، فقد تخيَّل شيئاً آخر، لقد كانت تراوده فكرة أن يرسم إسبانيا في صورة امرأة، لكنه لم يفعل مخافة أن يسيء فهمه الأستاذ.

تبدَّلَتْ إسبانيا ونسي دييغو فيلاسكيز أَوْ لَمْ يُلَقَّنْ أن هؤلاء الذين يحاولُ توثيقَ طردِهِمْ وتَشْرِيدِهِمْ هُمْ أبناءُ قِمَمٍ إنسانية شَاهِقَةٍ لا يجودُ بمثلِها الزمان كابن العربي الحاتمي والششتري وابن رشد وابن طفيل وابن حزم وابن الخطيب وأبو مدين وأبو العباس المرسي. هؤلاء نشأوا وعاشوا هنا قبل قرون، وحَلَّ محلَّهُم قَوْمٌ نَكِرُوا أسلافَهم، **فهل يُهْلَكُ إلا القَوْمُ الفاسقون.**

حِسابُ الجُمَّل الكبير

الترتيب النَّفَسي		الترتيب المشرقي		الترتيب المغربي	
ء	1	ا	1	ا	1
ه	2	ب	2	ب	2
ع	3	ج	3	ج	3
ح	4	د	4	د	4
غ	5	ه	5	ه	5
خ	6	و	6	و	6
ق	7	ز	7	ز	7
ك	8	ح	8	ح	8
ج	9	ط	9	ط	9
ش	10	ي	10	ي	10
ي	11	ك	20	ك	20
ض	12	ل	30	ل	30
ل	13	م	40	م	40
ن	14	ن	50	ن	50
ر	15	س	60	ص	60

ط	16	ع	70	ع	70
د	17	ف	80	ف	80
ت	18	ص	90	ض	90
ز	19	ق	100	ق	100
س	20	ر	200	ر	200
ص	21	ش	300	س	300
ظ	22	ت	400	ت	400
ث	23	ث	500	ث	500
ذ	24	خ	600	خ	600
ف	25	ذ	700	ذ	700
ب	26	ض	800	ظ	800
م	27	ظ	900	غ	900
و	28	غ	1000	ش	1000

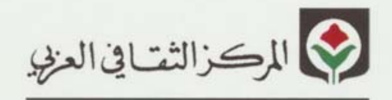
ملحوظة: للحصول على الجزم الصغير أو الجُمَّل الصغير، تخصم الأصفار من قيمة كل حرف. مثال: قيمة «حم» بالجزم الكبير 48 (أي 40+8) فتصير بالجمّل أو الجزم الصغير 12. وهناك حسابات أخرى يعرفها أهلها منها الترتيب النفسي والترتيب الطبائعي للحروف.

فهـرس المحتويـات

عبدالإله بن عرفة

الحواميم

تحكي هذه الرواية مرحلة مأساوية من تاريخ الإنسانية تمتد من سقوط مملكة غرناطة سنة 1492 حتى طرد الموريسكيين بين سنوات 1609 و1614. واليوم وبعد مرور 400 سنة على قرار الطرد يكون هذا العمل شاهداً أدبيا وأخلاقيا على هذه المرحلة أوعلى الجرائم البشعة التي ارتكبتها محاكم التفتيش ضد المسلمين واليهود والبروتستانت. وبجانب هذه المأساة قصة حب مستحيل ينشأ من رحم الألم والحزن بين طريدين من أبناء أمة الموريسكيين على ظهر سفينة جهادية قرصانية. وكما كان هذا العصر مظلماً بجرائم هذه المحاكم، فقد حفلت الرواية بمشاهد رفيعة وحوارات فكرية ممتعة عن بداية نشوء فكر الإصلاح والأنوار في أوروبا عند مارتن لوثر وكالفين أو سيرفانتيس وفيلاسكيز.



الدار البيضاء: ص.ب 4006 (سيدنا)
بيروت: ص.ب: 113/5158
www.ccaedition.com
markaz@wanadoo.net.ma

ISBN 978-9953-68-447-2

